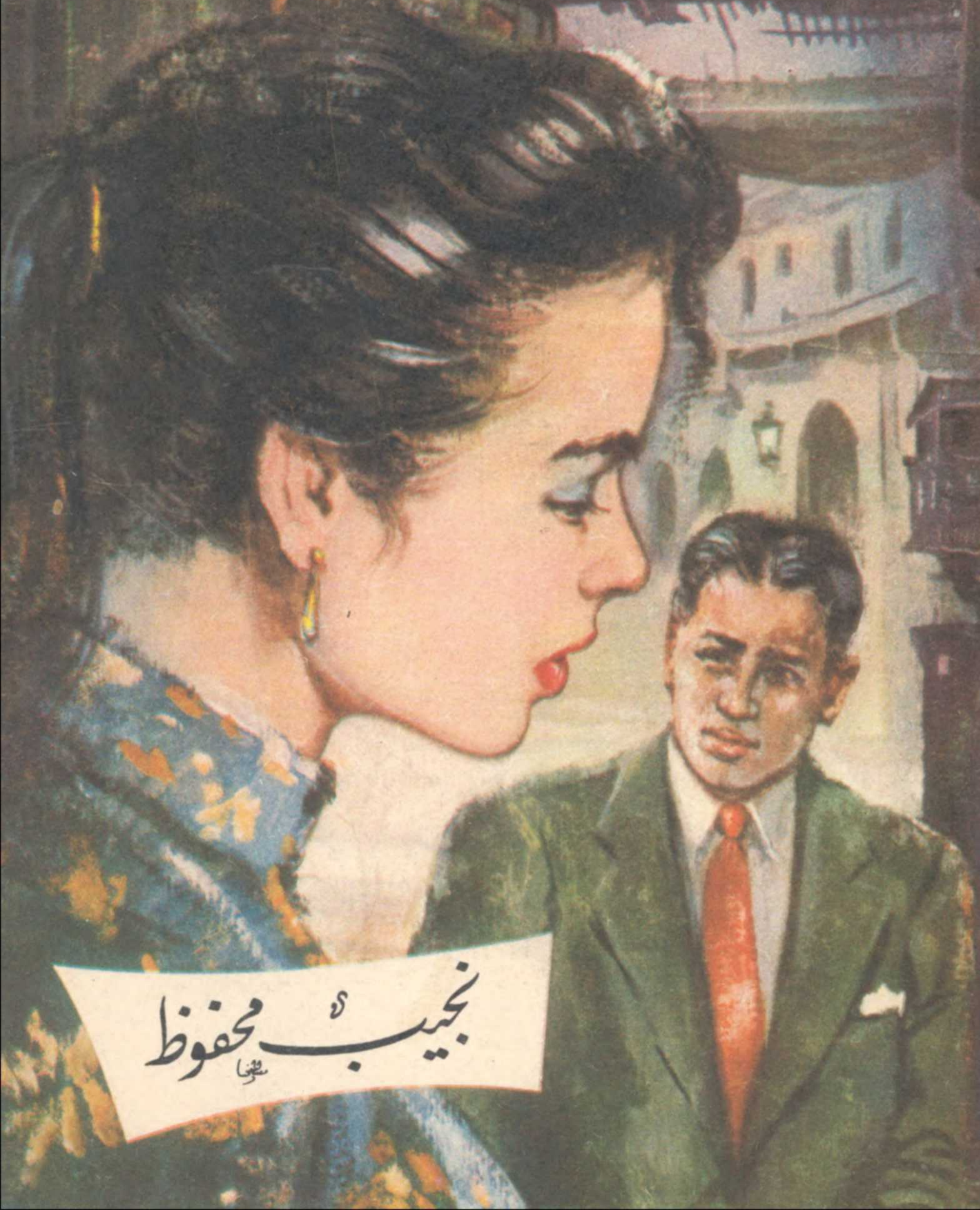
خان الخليلي



إهـــــــداء ٢٠٠٩

أسرة المرحوم الأستاذ / سامي خشبة

جمهورية مصر العربية

خان الخليلي



خان الخليلي

تأليف

نجيب محفوظ

الطبعة السادسة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

١

انتصفت الساعة الثانية من مساء يوم من سبتمبر سنة ١٩٤١ ، موعد انصراف الدواوين ، حين تنطلق جماعات الموظفين من أبواب الوزارات كالفيضان العارم ، وقد نهكها الجوع والملل ، ثم تنتشر فى الأرض تطاردها أشعة الشمس الموقدة . انطلق أحمد عاكف — الموظف بالأشغال — مع المنطلقين . وكان من عادته أن يتخذ سبيله فى مثل تلك الساعة كل يوم الى السكاكينى ، أما اليوم فوجهتــه تتغير فتصير الأزهر لأول مرة . حدث هذا التغير بعد اقامة فى السكاكينى طويلة ، امتدت أعواماً مديدة ، واستغرقت عقــوداً من العمر كاملة ، وادخرت ما شاءت من ذكريات الصبا والشباب والكهولة . وأعجب شيء أنه لم يفصــل بين التفكير فى الانتقــال وحدوثه الا أيام معدودات ؛ كانوا مطمئنين الى مسكنهم القديم ، يخال اليهم انهم لن يفارقوه مدى العمر ، وما هى الا عشية أو ضحاها حتى صرخت الحناجر : « تباً لهذا الحى المخيف » وغلب الخوف والجزع ، ولم تعــد ثمة فائدة ترجى من مراجعــة الأنفس المذعورة ، واذا بالبيت القديم يضحى ذكرى الأمس الدابر ، واذا بالبيت الجديد فى خان الخليلى حقيقة اليوم والغد ، فحق لأحمد عاكف أن يقول متعجبا : « سبحان الذى يغير ولا يتغير ! » . كان الرجل من أمر هذا الانتقال المفاجىء فى حيرة . كان قلبه ينازعه الى المقام القديم الحبيب ، ويمتلىء حسرة كلما ذكر انه قذف به الى حى بلدى عتيق ، الا انه لم ينس ما خامره من شعور الارتياح حين علم أنه ابتعد عن جحيم ينذر بالهلاك المبين ، ولعله أن ينعم الليلة بأول

رقاد آمن بعد تلك الليلة الشيطانية التى زلزلت أفئدة القاهرة زلزالا شديداً . وبين الحزن والتعزى ، والأسى والتأسى ، مضى يذرع الطوار فى انتظار ترام يوصله الى ميدان الملكة فريدة ، وقد ابتل جبينه عرقا ، وكانت الحال لا تخلو من لذة طريفة ، ذلك أنه مقبل على استجلاء جديد ، واستقبال تغيير : مرقد جديد ومنظر جديد وجو جديد وجيران جدد ، فلعل الطالع أن يتبدل ، ولعل الحظ ان يتجدد ، ولعل مشاعر خامدة أن تنفض عن صفحتها غبار الجمود وتبعث فيها الحياة واليقظة من جديد . هذه لذة الاستطلاع ولذة المقامرة ولذة الجرى وراء الأمل ، بل هذه لذة استعلاء خفية ناشئة من انتقاله الى حى دون حيه القديم منزلة وعلماً . ولم يكن رأى المسكن الجديد بعد ، اذ بوشر نقل الأثاث منذ الصباح الباكر وهو فى وزارته ، وها هو ذا يقصد اليه كما وصف له . وجعل يقول لنفسه : انه مسكن مؤقت وانه ينبغى أن يحتملوه مدة الحرب وبعدها يأتى الفرج . وهل كان فى الامكان خير مما كان ؟ وهل كان من الحكمة أن يلبثوا فى الحى القديم على مرأى ومسمع من الموت المخيف ؟ . مضى يذرع الطوار لأنه لم يكن يحتمل الجمود طويلا ، وكأنما سويت أعصابه من قلق ، وكان يدخن سيجارة بعجلة دلت على انشغاله ، فبدا فى اضطراب حركته وقلق مظهره وشذوذ هندامه كهلا متعباً ضيق الصدر تلوح فى عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عما حوله ، كان يدنو من ختام الأربعين ، عسسياً أن يسترعى الانتباه بنحافة قامته وطولها واضطراب ملابسه اضطرابا يستدر الرثاء ، والواقع أن تكسر بنطلونه وانحسار ذراعى الجاكتة عن رسغيه ، وتلبد العرق والغبار على حرف طربوشه ، وتقبض القميص ورثاثة رباط الرقبة ، وصلعته البيضاوية ، وسعى الشيب الى قذاله وفوديه ، كل أولئك أوهم بتكبير سنه ، وفيما عدا ذلك فوجهه نحيل مستطيل ، شاحب اللون ، ذو رأس صغير

مستطيل ينحدر انحداراً خفيفاً الى جبهة تميل الى الضيق ، يحدها حاجبان مستقيمان خفيفان متباعدان ، يظلان عينين بالغتين في امتدادهما وضيقهما ، فهما تكادان أن تملآ صفحة الوجه الضيقة ؛ فاذا ضيقهما ليحد بصره أو ليتقى شعاع الشمس بدتا مغمضتين واختفى لونهما العسلي العميق ، وقد تساقطت أهدابهما واحمرت أشفارهما احمراراً خفيفاً ؛ يتوسطهما أنف دقيق وفم رقيق الشفتين وذقن صغير مدبب . ومن عجب أنه عد يوماً ممن يعنون بحسن هندامهم وأناقتهم ، وبدا اذ ذاك فى صورة مقبولة ، ولكن اليأس والحرص وما اعتراه بعد ذلك من داء التشبه بالمفكرين نزع به عن أية عناية بنفسه أو بلباسه .

أستقل الترام رقم « ١٥ » وقد افترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة كشفت عن أسنان مصفرة من فعل التدخين . ومن ميدان الملكة فريدة أخذ الترام رقم « ١٩ » . وقد ارتكب خطأ سهواً : فرمى بحكم العادة بالتذكرة التى قطعها فى الترام الأول وكانت توصله الى الأزهر ، واضطر أن يقطع تذكرة جديدة ضاحكا من نفسه فى غيظ ، وآلمه حرصه على تفاهة الغرم . والحق أنه تعود منذ زمن بعيد أن يكون رب أسرة ، وان بقى لحد الآن أعزب ، بيد أنه لا ينفق مليما بغير تململ ، فحرصه ليس من العنف بحيث يغله عن الانفاق ، ولكنه لا يعفيه أبداً من التألم كلما وجب الانفاق .

وانتهى الى ميدان الأزهر ، واتجه الى خان الخليلى يتسمت هدفه الجديد ، فعبر عطفة ضيقة الى الحى المنشود ، حيث رأى عن كثب العمارات الجديدة تمتد ذات اليمين وذات الشمال ، تفصل بينها طرقات وممرات لا تحصى ، فكأنها ثكنات هائلة يضل فيها البصر . وشاهد فيما حوله مقاهى عامرة ودكاكين متباينة — مابين دكان طعمية ودكان تحف وجواهر — ورأى تيارات من الخلق لا تنقطع ، ما بين معمم ومطربش ومقبع ، وملأت أذنيه أصوات وهتافات ونداءات حقيقة بأن تثير أعصاباً قلقة كأعصابه ؛ فتولاه

الارتباك واضطربت حواسه ، ولم يدر أيان يسير ، فدنا من بواب نوبي اقتعد كرسياً على كثب من احد الأبواب وحياه ثم سأله قائلا :

ـ من أين الطريق الى العمارة رقم « ٧ » من فضلك ؟

فنهض البواب بأدب وقال مستعيناً بالاشارة :

ـ لعلك تسأل عن الشقة رقم ١٢ التى سكنت اليوم ؟ .. انظر الى هذا الممر ، سر به الى ثانى عطفة الى يمينك فتصير فى شارع ابراهيم باشا، ثم الى ثالث باب الى يسارك فتجد العمارة رقم ٧ .

فشكره وانطلق الى الممر مغمغما « ثانى عطفة الى اليمين ... حسناً ها هى ذى ... وها هو ذا ثالث باب الى اليسار ، العمارة رقم ٧ » . وتريث قليلا ليلقى نظرة على ما حوله . كان الشارع طويلا فى ضيق ، تقوم على جانبيه عمارات مربعة القوائم تصل بينها ممرات جانبية تقاطع الشارع الأصلى ، وتزحم جوانب الممرات والشارع نفسه بالحوانيت ؛ فحانوت ساعاتى وخطاط وآخر للشاى ورابع للسجاد وخامس رفاء وسادس للتحف وسابع وثامن الخ الخ . وتقع هنا وهناك مقاهى لا يزيد حجم الواحدة على حجم حانوت . وقد لزم البوابون أبواب العمارات بوجوه كالقطران وعمائم كالحليب وأعين حالمة كأنما خدرتها الروائح العطرية وذرات البخور الهائمة فى الفضاء . والجو متلفع بغلالة سمراء كأن الحى فى مكان لا تشرق عليه الشمس ، وذلك أن سماءه فى نواحى كثيرة منها محجوبة بشرفات توصل ما بين العمارات . وقد جلس الصناع أمام الحوانيت يكبون على فنونهم فى صبر وأناة ويبدعون آيات بينات من أفانين الصناعة ، فالحى العتيق ما يزال يحتفظ لليد البشرية بقديم سمعتها فى المهارة والابداع ، وقد صمد للحضارة الحديثة يلقى سرعتها الجنونية بحكمته الهادئة وآليتها المعقدة بفنه البسيط وواقعيتها الصارمة بخياله الحالم ونورها الوهاج بسمرته الناعسة . قلب فيما حوله طرفا حائرا وتساءل ترى هل يستطيع

أن يحفظ هذا الحي الجديد كما كان يحفظ حيه القديم ؟! وهل يمكن أن يشق سبيله يوما وسط هذا التيه تقوده قدماه وقد انشغل فكره بما ينشغل به من أمور دنياه ؟ .. ثم اقتحم الباب مغمغما : « باسم الله الرحمن الرحيم » وارتقى درجات سلم حلزونى الى الطابق الثانى حيث عثر بالشقة رقم ١٢ . وابتسمت أساريره لرؤية الرقم كأنه قديم عهد به وآنس اليه فى وحشته ، ودق الجرس ، فانفتح الباب ، وظهرت أمه على عتبته تلوح فى ثغرها ابتسامة ترحيب . وأوسعت له مستضحكة وهى تقول : « أرأيت الى هذه الدنيا العجيبة ! » فجاز الباب وهو يقول مبتسما : « مبارك عليك البيت الجديد ! » . فضحكت عن أسنان مصفرة لأنها كانت مولعة بالتدخين كابنها وقالت بلهجة المعتذر :

ــ قصارى ما وسعنا اليوم أن نفرش حجرتك وحجرتنا ... وكان يوما متعبا حقا ، ولقد كسرت قائمة أحد الكراسى على ما بذلنا من حرص . وتقشر مسند سريرك فى بعض المواضع ..

ووجد أحمد نفسه فى صالة صغيرة مزدحمة بأحزمة المتاع والمقاعد وقطع الأثاث ، وضعت السفرة فى وسطها وحملت بالآنية ولفات الأبسطة ، وكان بها بابان على يمين الداخل وفى مواجهته . فنظر فيما حوله فى صمت ، أما الأم فراحت تقول :

ــ الله يعلم انى لم أذق للراحة طعما فى يومى هذا ، فيالشقاء الأم التى لم تنجب انثى تستعين بها عند الحاجة ، ولقد هربت أنت الى وزارتك وقبع أبوك فى حجرته كعادته ، ولم يتورع ــ غفر الله له ــ أن سألنى منذ هنيهة عما هيأت لكم من طعام ؟ كأنما يسأل ساحرة تقدر على كل شيء ! ولكن من حسن الحظ أن حينا الجديد غنى بمأكولاته السوقية ، ولقد أرسلت الخادم لتبتاع لنا طعمية وسلطة وباذنجانا ..

فتحلب ريق أحمد لسماع اسم الطعمية ولاح الرضاء فى بريق عينيه ، ثم سأل أمه :

ـ وهل ارتاح أبى واطمأن ؟

فابتسمت المرأة ابتسامة لطيفة دلت على أن بلوغها الخامسة والخمسين لم يفقدها كل ما كان لها من دلال انثوى ، وقالت :

ـ ارتاح واطمأن والحمد لله وعسى ان يصدق رأيه . ولكن الشقة صغيرة والحجرات ضيقات ، فحشرنا الأثاث فيهـا جشرا و « اللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين » . .

وجعـل يصغى الى أمه ويتفحص ما حوله . فرأى ردهة تمتد على يسار القادم ، على يمينها تقع حجرتان ، وفى الناحية المقابلة المطبخ والحمـام . وقد اشارت أمه الى الحجرة التى تواجه باب الشقة الخارجى وقالت له : « حجرتك » . أما حجرتا الردهة فقد أعدت أولاهما لنـوم والديه ، وقالت امه عن الأخـرى : « سنحتفظ فيها بأثاث أخيك ونتركها خالية على ذمته » . ومضى الرجل الى حجرة والده فرأى الشيخ مقتعداً سريره تلوح فى عينيه نظرة هدوء واستسلام . وكان عاكف أفندى احمد ـ كابنه ـ طويلا نحيفا ، ذا لحية كثة بيضاء ، وقد وضع على عينيه عوينات غليظة بعثت فى نظرته الذابلة بريقا خداعا ، وقد حدج ابنه بحـذر وريبة وتوثب لرد العدوان اذا حدثت الرجل نفسه بالتهكم به بسبب النقل الى البيت الجديد ، وحياه احمد وقال له :

ـ مبارك يا أبتى !

فقال الشيخ بهدوء :

ـ الله يبارك فيك . كل شيء بأمره !

فهز أحمد راسه وقال :

ـ ولكننا بالغنا فى خوفنا مبالغة تنكبت بنا عن جادة الصواب . ألا ترى يا أبتى أن ما بين السكاكينى وخان الخليـلى ادق من أن يدركه الطيار المحلق فى السماء ؟ ! .

فقال الأب بحزم :

ـ هذا الحى فى حمى الحسين رضوان الله عليـــه . وهو حى الدين والمساجد ، والألمان أعقل من أن يضربوا قلب الاسلام وهم يخطبون ود المسلمين ! .

فابتسم أحمد وقال :

ـ واذا ضرب خطأ كما ضرب السكاكينى خطأ من قبل ؟ ! .

فقال الرجل وقد ضاق صدره :

ـ لا تجادل فى الحق ، انى متفائل بهذا المكان خيرا ، وأمك به راضية ، وان كانت ثرثارة لا تعرف الحمد والشكر ، وأنت نفسك مطمئن راض ، ولكنك تدعى حكمة زائفـــة ، وتتظاهر بشـــجاعة كاذبة . هلم فاخلع ثيابك ودعنا نتناول غداءنا ! .

فابتسم احمد ، وتراجع الى حجـــرته وهو يقول لنفسه : « صدق أبى » والقى على حجرته نظرة فاحصة ، فوجـــدها قد وسعت أثاثه تحت ضغط محى ما كان لها من تناسق ؛ فعلى الشمال الفراش ، وعلى اليمين صوان الملابس ، تليه المكتبة كدست على كتب منها الكتب . وكان بها نافذتان فرغب أن يلقى نظرة عجلى من كل منهما ، فدلف من اليمنى وفتحها ، وكانت تطل على الطريق الذى جاء منه ، ومنها استطاع أن يتبين معالم الحى من عل ، فرأى أن العمارات شيدت على أضلاع مربع كبير المساحة ، واقيمت فى مساحة المربع التى تحيط بها العمارات مربعات صغيرة من الحوانيت تلتف بها الممرات الضـــيقة ، فكانت نوافذ العمارات وشرفاتهـــا الأمامية تطل على أسطح الحوانيت ، وتأخذ نصـــيبها من الهـــواء والشمس ، ولا يحجب عنها بقية العمارات حجاب ، فكان الناظر من احدى النوافذ الأمامية يرى مربعا كبيرا من العمارات ينظر هو من نقطة فى احد اضلاعه ، ويرى فى اسفله مربعات كثيرة من اسطح الحوانيت ، تخترقها شبكة معقدة من الممرات والطرقات ، ورأى فيما وراء ذلك مئذنة الحسين فى علوها السامق تبارك ما حولها .

فارتاح الرجل لانطلاق الفضاء امامه لأن أخوف ما كان يخافه أن ينظر فلا يرى الا جدراناً صماء . ثم تحول الى النافذة الأخرى التى تواجه باب الحجرة وفتحها فرأى منظراً مختلفا ، ففى أسفل طريق ضيق يوصل الى خان خليلى القديم مغلقة حوانيته فبدا مهجورا ، وعلى الجانب الآخر من الطريق جانب من عمارة تواجهه نوافذها وشرفاتها عن قرب ، ثم تبين له أن سطحى العمارتين متصلان فى أكثر من نقطة وان أطباقهما المتقابلة متصلة كذلك بالشرفات مما جعله يحسب انهما عمارة واحدة ذات جناحين ، وفى الطرف الأيسر من الطريق يبدأ خان خليلى القديم ، وقد رآه الرجل من نافذته أسطحا بالية ، ونوافذ متداعية ، وأسقفا من القماش والأخشاب تظل الطرق المتشابكة ، وفيما وراء ذلك تملأ الفضاء المآذن والقباب وقمم الجوامع وأسوارها ، تعرض جميعا صورة من الجو للقاهرة المعزية . وكان يرى ذلك المنظر لأول مرة . فأكبره على نفوره من الحى الجديد ، ومضى يسرح الطرف فى مشاهده الغريبة المترامية ، وهى مشاهد حقيقة بأن تدهش عينين لم تألفا غير الورق ، ولا عهد لهما بآيات الطبيعة أو الآثار ، على أنه لم يجد من الوقت متسعا ، فما لبث أن سمع نقراً على الباب وصوت أمه يدعوه قائلا :

ــ الطعمية جاهزة يا سعادة البيك .

فأغلق النافذتين وخلع بذلته ، ثم ارتدى جلبابه وطاقيته ، وهو يدعو ربه قائلا : « اللهم اجعله سكنا مباركا » الا أنه ــ فى نفس اللحظة وقبل أن يفارق الحجرة ــ جاءه صوت أجش من الطريق يصيح غاضبا : « الله يخرب بيتك ويحرق قلبك يابن . . » فرد صوت آخر بأقبح مما قذف به ، مما دل على أن اثنين يتقاذفان بالسباب كعادة أهل البلد ، فامتعض الكهل ولعنهما ساخطا وغمغم قائلا : « أعوذ بالله من الشؤم والتشاؤم ! » . ثم غادر الحجرة . . .

٢

وأكل الذ طعمية ذاقها فى حياته ، وأطراها بغير تحفظ ، فسر أبوه وعد ذلك الاطراء اطراء للحى الجديد ، فقال بحماس كبير : « أنت لا تدرى عن حى الحسين شيئا . فها هنا ألذ طعمية وأشهى فول مدمس ، وأطعم كباب وأحسن نيفة وأمتع كوارع وأنفس لحمة راس . هنا الشاى المنعدم النظير والقهوة النادرة المثال ، هنا نهار دائم وحياة متصلة ليلا ونهارا . . . هنا ابن بنت رسول الله وكفى به جاراً ومجيرا ! » .

ورجع بعد الغداء الى حجرته ، واستلقى على الفراش ينشد قسطا من الراحة ، وقد أقر فيما بينه وبين نفسه بأن دواعى سروره بالحى الجديد لا تقل عن بواعث ضيقه به . وقلب عينيه فى أنحاء الحجرة حتى استقرتا على أكداس الكتب المتراصة على كثب من المكتبة لم يهيأ لها التنظيم بعد ، فثبت عليها بصره فى ارتياح وسخرية ، هذه كتبه المحبوبة ، وجميعها باللغة العربية ؛ لأنه — على عهد الدراسة — لم يصب تفوقا فى الانجليزية فأهملها مضطرا بعد ذلك وأنسيها أو كاد ، وأكثر من ثلثها كتب مدرسية فى الجغرافيا والتاريخ والرياضة والعلوم ، وبها عدد لا بأس به من مراجع القانون ومثله من كتب المنفلوطى والمويلحى وشوقى وحافظ ومطران ، ومجموعة من الكتب الأزهرية الصفراء فى الدين والمنطق تاه بصفرتها عجبا واعتبرها آية العلم العسير الذى لا ينفذ الى حقائقه الا الأقلون ، وهى لا تخلو كذلك من بعض مؤلفات المعاصرين التى يعد اقتناءها تفضلا منه . هذه هى مكتبته المحبوبة أو هى جل

حياته جميعا . كان قارئا نهما لا تروى له غلة ، وقد ادمن على القراءة ادمانا قاتلا ، وأكب عليها عشرين عاما كاملة من عام ١٩٢١ — تاريخ حصوله على البكالوريا — الى عام ١٩٤١ ، فاستغرقت حياته الباطنة والظاهرة ، وتركزت فيها مشاعره ونوازعه وآماله جميعا ، بيد انها امتازت منذ البدء بخصائص لم تفارقها مدى العشرين عاما . وهى أنها قراءة عامة لا تعرف التخصص ولا العمق ، نزاعة الى المعارف القديمة ، سريعة مضطربة ، ولعل السبب فى عدم تركيزها ما كان من اضطراره الى الانقطاع عن الدراسة بعد البكالوريا . مما لم يهيىء له فرصة منظمة للتخصص .

وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة فى حياته الاجتماعية والنفسية ، لم ينج من شرها مدى الحياة . أما سببه ؛ فهو أن أباه أحيل على المعاش فى ذاك الوقت — وكان يشارف الأربعين — لاضاعته عهدة مصلحية باهماله ، وتطاوله على المحققين الاداريين . فأجبر أحمد عاكف على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطمة ويربى أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما ، وصار الثانى موظفاً ببنك مصر . وكان أحمد طالبا مجداً طموحا واسع الآمال ، رغب من أول الأمر فى دراسة القانون ، وطمع فى أن تنتهى به دراسته الى مثل ما انتهت بسعد زغلول نفسه ؛ وطوحت به الأحلام والأمانى ، فلما أجبر على الانقطاع عن الدراسة أصابت آماله طعنة قتالة دامية ، ترنح من هولها ، واجتاحته ثورة عنيفة جنونية حطمت كيانه ، فامتلأت نفسه مرارة وكمدا . ووقر فى أعماقه انه شهيد مضطهد ، وعبقرية مقبورة ، وضحية مظلومة للحظ العاثر . وما انفك من بعد ذلك يرثى عبقريته الشهيدة ويحتفل بذكراها لمناسبة وغير مناسبة ، ويشكو حظه العاثر ويعدد آثامه ، حتى انقلبت شكواه فصارت هوسا مرضيا ، واعتاد زملاؤه أن يسمعوه وهو يقول بصوته المتهدج : « لو أتممت دراستى —

وكان نجاحى مضمونا ــ لكنت الآن كيتا وكيتا ! » أو يقول متحسرا : « انى أدنو الآن من الأربعين ، فتصور يا صاح لو أن الحياة سارت كما ينبغى ، فلم يعترض مجراها الحظ العاثر ، أما كنت أكون محاميا قديما يعتز بخدمة فى القضاء تناهز العشرين عاما ؟ ! . وماذا كان ينتظر من رجل فى مثل جدى فى غضون عشرين عاما ؟ ، » وربما قال متأسفا : « فاتتنا ظلما أخصب فترة فى تايخ مصر ، تلك الفترة التى تستهين باعتبارات السن والجاه الموروث ، ويقفز فيها الشبان الى كراسى الوزارة ! » . ولم يكن يفوته تتبع خطى المتفوقين من أقران المدرسة الذين واصلوا دراستهم ، وليس نادرا أن يرفع راسه عن جريدة بين يديه ، ويقول بانكار « أتعرفون فلانا الذى يقولون عنه ويعيدون ؟ ! ... زاملنى عهد الدراسة فصلا فصلا ، وكان تلميذاً خاملا لا يطمع أن يدركنى يوما ما ! » أو يهتف متهكما « يالطف الله ! ... وكيل وزارة ! .. ذاك الغلام القذر الذى لم يكن يعى مما يلقى عليه شيئا ؟ ! هى الدنيا ! » ثم يزوح محدثا اخوانه بآى نبوغه المدرسى ، وما تنبأله به المدرسون . هكذا تلوثت عواطفه بتمرد ثائر وسخط خبيث وكبرياء حنق ، واعتداد كاذب بمواهبه ، مما جعل حياته عذابا متصلا وشقاء مقيما . ثم وجدت هذه العبقرية المزعومة نفسها مهملة فى الدرجة الثامنة بمحفوظات وزارة الأشغال ، ولكنها لم تسكن ، ولم تستسلم ، ولم تيأس ، ومضت تلتمس السبل الى تحطيم الأغلال ، وشق الطريق الى الحرية ، والمجد والسلطان ، وكابدت التجارب ، وتوثبت للمحاولة تلو المحاولة . وقد فكر أول ما فكر فى التحضير ــ من بيته ــ لشهادة القانون ، فهو العلم الذى انجذبت اليه آماله من بادىء الأمر ، ولم يكن عن الشهادة من محيد ، لأن المحاماة لم تعد اجتهادا كما كانت على عهد سعد والهلباوى ، فراح يقتنى الكتب القانونية ، ويستعير المذكرات ، وأكب على الدراسة عاما

مدرسيا كاملا تقدم فى نهايته الى الامتحـــان . ولكنه سقط فى مادتين ! . وطعن كبرياؤه طعنة نجلاء ، واحرج أمام الذين تتبعوا انباء عبقريته باهتمام ، وجعل يعتـــذر عن اخفاقه بوظيفته ، وبادعاء مرض وهمى اقعده عن مواصلة الدرس ، ولم ينثن عن ادعاء المرض بعد ذلك على سبيل الاحتياط والحذر . وخاف أن يجرب الامتحان مرة أخرى ، وأشفق من تعريض عبقريته للتجارب الظاهرة التى يطلع الناس على نتائجها فمال الى العمل الحر ، وبادر باعلان احتقاره للامتحانات والشهادات ، ثم اقنع نفسه بأن اخفاقه فى امتحان القانون جاء نتيجة لعدم استعداده له — لا لتقصير أو قلة كفاية — وعدل عند ذلك عن دراسته ليجد المجال الطبيعى الذى خلقت له عبقريته الشهيدة ، وهكذا خسر عاما وربحت مكتبته عددا لا يستهان به من كتب القانون . ثم فكر فى تكريس حياته للعلم ، وتحير بين الأبحاث النظرية والاختراعات العملية أيها يختار ! ثم أقلع عن فكرة الاختراع بحجة أن البلد خال من المصانع والمعـامل ، وهى ميـــادين التجارب ، ومهبط الوحى الابداعى ، وركز آماله فى العلم النظرى ، وطمع فى أن يكتشف نظرية يوما يغير بها آفاق العلم الحديث ، ويقفز الى سماء الخلود بين نيوتن واينشتين . وتوثبت به الهمة ، فراح يبتاع ما وقعت عليه يداه من ملخصات الطبيعـــة والكيمياء ، ويطالعها باهتمام وشغف . وبعد دراسة عام طويل وجد نفسه حيث بدأ لم يتقدم خطوة نحو هدفه البعيد ، ثم اقتنع بأن التعمق فى العلم يتطلب دراسة تحضيرية لم تتح له .

وغلبه الجزع وكثيرا ما يغلبه ، فيئس من الدراسة العلمية النظرية . وسوغ يأســـه نفسه بأن البحث النظرى ليس دون الأختراع حاجة الى المعامل ومعاهد الابحاث ، وأن جو مصر بصفة عامة لم يتهيأ بعد للعلم . ولم يجد ضرورة للاعتذار هذه المرة عن

اخفاقه للغير ، لأنه كان تعلم أن يخفى أهدافه عن الناس جميعا ، بيد أن ذلك لم يمنعه من أن يذيع بين الزملاء والصحاب أنه يكرس وقت فراغه للمعرفة والاطلاع ... المعرفة الحرة التى تسمو على الدراسة المدرسية والشهادات الحكومية ، والاطلاع العميق الذى يجعل من صاحبه عالما بعيد الغور . وضاع عام ثان زادت فيه المكتبة صنفا جديدا من كتب العلم . ثم تساءل متعبا متحيرا : ترى لأى شىء خلقت مواهبه على وجه التحقيق ..؟! لا شك أنه لم يعرف نفسه بعد . ولو عرف نفسه لحفظ وقتا ــ أحق به أن يحفظ ــ من الضياع هدرا بغير ثمرة . فما حقيقة ميوله ؟! . لقد انتهى من القانون والعلم ولكن ليس القانون والعلم بكل شىء . هنالك ما يضارعهما جلالا وجمالا فما سر ولعه بشوقي والمنفلوطي؟! ما طربه للبيان الساحر ؟! الا يجوز أن يكون اســـتعداده الحق للأدب ؟ ! وأجمل به من فن لا يستوجب التمرس به شهادة ولا دراسة مدرسية . فما عليه الا أن يقرأ كما قرأ شوقي وحافظ ومطران من قبل . وما عتم أن استقبلت مكتبته ضيوفا جددا من ازاهر الشعر والنثر اكب عليها بشغف وحمـــاس بلغ حد الغضب : ووقع فى رحلاته على قول ابن خلدون : « سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الادب وأركانه أربعة دواوين وهى : كتاب الكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى . وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها » فتنهد ارتياحا كأنما وقع على كنز واقتنى الأركان الأربعة ، وقرأها جميعا بما طبع عليه من حماس وسرعة ، فلما أن فرغ منها تساءل مسرورا : « هل صرت الآن أديبا ؟ » . وأمسك بالقلم وصدقت عزيمته على أن يكتب ، وكتب موضوعا سماه : « على شاطىء النيل » أفرغ فيه فنه والهـــامه : وأرسله بالبريد الى احدى

المجلات . ومضى يتخيل ما عسى أن يستقبله به القراء من الاكبار والاعجاب ، وكيف أنه قد يكون أول درجات الشهرة والمجد ، وحسبه هذا فما يطمع فى أجر غير المجد الأدبى . وظهرت المجلة وفتش عن مقاله فما وجد له أثراً ، ففتر حماسه وتعثرت أمانيه فى الخجل ، ولكنه لم ييـــأس فناجى نفسه يستنظرها اسبوعا آخر ، ومضت أسابيع دون أن تتاح للمقال فرصة الظهور . لقد قرأ اركان الأدب الأربعة التى يعد ما سواها تبعا لها وفروعا منها ، فهو اديب بحكم ابن خلدون ، وما أدراك ما ابن خلدون ! . فكيف لم ينشر مقاله ! .. هل أهمل القوم نشره لأن كاتبه غير معروف ؟ . أو لأنه لم يستشفع اليهم بشفيع ؟ أو تراهم عجزوا عن فهمه ؟ !.. وفكر فى أن يذهب الى المجلة بنفسه ليقف على حقيقة الأمر ، ولكنه لم يستطع لأن خجله كان يقف له بالمرصاد دائما . ثم تناسى آثار الصدمة الأولى وكتب مقالا ثانيا عن العدالة فلم يكن حظه أحسن من الأول ، فكتب ثالثا عن « جناية الفقر على النبوغ » فلم يكن خيرا من سابقيه . وتوثب للكتابة بعناد واصرار من ناط بها أمله الأخير فحطمت محاولاته جميعا على صخرة الاهمال الباردة . وأعاد كتابة أكثرها وأرسلها الى مجلات مختلفة ، فلم يجد بينها من ترحم أمله المعذب ، وتنقذه من هاوية القنوط . وكان آخر مقال كتبه عن « تفاهة الأدب » فضاع كما ضاع اخوته . وانكسر عن محاولاته محطم النفس مطعون الفؤاد . لقد تآمر عليه سوء الحظ ــ عدوه القديم ــ وخبث طوايا النفوس ولؤم الطباع . فلم يساوره شك فى قيمة مقالاته الأدبية ، بل ظنها خيرا مما بدا به المنفلوطى نفسه وما يتيه به كثير من المعاصرين ، ولكنه سوء النية وفساد الطوية ! .. وتبددت الأحلام جميعا . الا ما أضيق العيش وما اظلمه . ورمى بالقلم ، وتضاعف ما به من حقد وتمرد وألم ، ويئس أخيرا من المجد والسلطان ، وامتلأت نفسه سخطا وغضبا

على الدنيا والناس ، والعظمة والعظماء خاصة ! . وما العظمة ؟ . . أو ما العظمة كما تعرفها مصر ؟ . . أجاب على ذلك بكلمة واحدة : « الظروف المواتية » . بل قال عن سعد نفسه على حبه : « لقد مهد له صهره سبل النجاح ، ولولا صهره ما كان سعدا الذى نعـــرفه » . وكان يردد كثيرا : « ان الوظائف الكبرى فى مصر وراثية » أو يقول : « اذا أردت التفوق فى مجتمعنا فعليك بالقحة والكذب والرياء ، ولا تنس نصيبك من الغباء والجهل » أو يقول ساخرا : « ما هؤلاء الأدباء الذين يمثلون الصحف والمجلات ؟! . أمن الأدب الحق أن تستعين على البروز فيه بالسياسة والحزبية !! . وهل يعجز عن بلوغ ما بلغوا من مجد كاذب الا كريم ؟! » . أو يقول محتدا غاضبا : « والله لو أردت أن اكون عظيما فى مصر ما عجزت . . ولكن قاتل الله الكرامة ! » وحرق الغضب نفسه حتى تركها شعلة من لهب غير مقدس وحطاما من رماد . ولكن الحياة لا تحتمل الغضب فى كل حين ، فما من معدى عن سويعات راحة وان تكن راحة القنوط ، فكان يستريح الى اليأس كلما لج به الغضب أو الحقد . وفى تلك السويعات كان يقول لنفسه : ألا ما جدوى العناد فى هذه الدنيا !. . اذا كنا نموت كالسوائم ونتتن فلماذا نفكر كالملائكة ؟ . . هبنى ملأت الدنيا مؤلفات ومخترعات فهل تحترمنى ديدان القبر أو تلتهمنى كما التهمت جثتى رية وسكينة ؟! . . الدنيـــا أكاذيب وأباطيـــل وما المجد الا رأس الأكاذيب والأباطيل . وسلم نفسه الى عزلة عقلية وقلبية مريرة . يئس من الحياة فهرب منها ، ولكنه خال وهو يدبر عنها يائسا عاجزا ، انه يزهد فيها متعاليا متكبرا . ولذلك لم يهجر عادة القراءة ، لأن الكتب تهيىء للانسان الحياة التى يهواها ، فتعالى بحياة الكتب على حياة الدنيا ، وظفر منها ببلسم لآلام كبريائه ، واستعار ما بها من قوة ، فخالها قوة ذاتية ، وكأن أفكارها أفكاره وسيطرتها سيطرته وخلودها خلوده ، وقد عدل ــ بعد اخفاقه

المتواصل ــ عن القراءة المنظمة المحددة الهدف ، واندفع يقرأ ما تقع عليه يداه ، وعنى عناية خاصة بالكتب الصفراء لأنها فى نظرة عسيرة وعزيزة المنال . وانكب على القراءة بسرعة وشراهة واعصاب متوترة فلم يتمتع بقراءة مجدية ولا نافعة ، واصابه سوء هضم عقلى ، فكان يعرف أشياء وأشياء ولكنه لم يتقن شيئا ابدا . ولم يتعود عقله التفكير مطلقا ولكن كانت الكتب تفكر له وتتأمل بدلا منه . ولم يكن يعنيه التفكير ولا التأمل وانما كان همه الحقيقى أن يحدث الغد بما قرأ بالأمس ، وأن يحاضر الزملاء من الموظفين والصحاب ــ بلهجة الفيلسوف المعلم ــ فيما وعته الذاكرة وحفظته ، ولذلك سماه موظفو المحفوظات بالأشغال « الفيلسوف » فسر بالتسمية وان كان ما بها من التوقير يعادل ما بها من التحقير . ولم يكن للفيلسوف رأى يثبت عليه لأنه كان يقرأ ولا يفكر ، وعسى أن ينسى اليوم ما قال بالأمس القريب ، وعسى أن يقول غدا ما يناقض قوليه جميعا . وهو سباق الى اي راى ما دام فيه رضاء لكبريائه وغروره وولعه بالظهور ، فلهج بالمعارضة واللجاج ، فاذا قال محدثه يمين قال شمال ، وان قال ابيض قال أسود ، ثم يندفع فى النقاش بعنف واحتداد وضيق صدر حتى ليوشك ان يأخذ بتلابيب مناظره ! وليس يعنى هذا حتما انه غبى ، والحقيقة انه كان عادى الذكاء . فلم يهبط عقله الى البلادة والغباء ولم يعل للنبوغ فضلا عن العبقرية . ولكن خدعه عن حقيقة نفسه طموحه للمجد وهيامه بالعبقرية فضل ضلالا بعيدا . وزاد من أسباب تعاسته ما فطر عليه من حساسية مرهفة مضطربة فقتلت فيه روح الصبر والمثابرة ، والتأمل والتفكير ، فصار دماغه وعاء لخليط من معارف شتى بدل من أن يكون رأسا مفكرا . ولا شك أن الأرق الذى مرض به نصف عام من حياته كان من جملة الأسباب التى عقم به عقله . وقد اشفى

به على الجنون والموت ، وسهر الليالى ذاهلا أو هاذيا ، ثم أدركته رحمة الله فتعافى بعد يأس . ويرجع السبب المباشر لمرضه الى تجربة خطيرة خاض غمارها غير حافل بعواقبها . ذلك أنه كان يؤمن بالسحر ولا يشك فيما يلقى على سمعه من أساطيره . وعثر يوما بموظف قديم راسخ الاعتقاد فى السحر والشياطين فأقبل عليه بشغف واهتمام ، وبعد أن توطدت الصداقة بين الاثنين أعاره الرجل بعض كتب قديمة عن السحر وتحضير الشياطين ككتاب خاتم سليمان ، والقمقم ، ويا أسيادى . وطار بها الشاب سرورا وعدها أجل ما بلغته يداه من زبد العلم والحقيقة ، وعكف عليها بحماس ويقين يحل رموزها ويفقه أسرارها ، ويتحرق شوقا الى وقت يتاح له فيه السيطرة على القوى الكونية والاستئثار بمفاتيح المعرفة والقوة والسلطان ! . اوشك أن يجن لهفة وأن يذوب هياما . متى يدين له عرش النفوذ اللانهائى فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء ، ويعبث بمن يشاء ، فيرفع ويخفض ويغنى ويفقر ويحيى ويميت ؟! ولكن لم تحتمل اعصابه الجهاد طويلا ولا قدر على قضاء الليالى الطوال مختليا بأرواح الشياطين فاضطرب حبل أمنه وأرهقت أعصابه وصرعه الخوف والوهم فتلقفه المرض وأوشك ان يسلمه للجنون أو الموت !. ولم ير بدآ من العدول عن سعيه والنزول عن أطماعه فأعاد الكتب الى صاحبها ويئس من المجد للمرة الأخيرة بعد أن جرب جميع السبل والمسالك المفضية اليه . وجعل يتساءل فى حزن بالغ : ماذا بى ؟ هل حل فى روح نجس ؟. لماذا أصرع دائما اذ لا يفصل بينى وبين ما أريد سوى ذراع ؟!. وسقط تحت انقاض المحاولات الفاشلة والآمال الخائبة والأوهام الضائعة !. واطرد مجرى الأيام وتقدم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ ، بل جعل يجد لألمه لذة غامضة . وكان يتوهم حدوث الظلم بداع وبغير داع ويتلقى ما يقضى به عليه

من ألم ممتزج بتلك اللذة الخفية . وعسى أن يتساءل متحديا ساخرا : أليس جليلا أن ينهض العالم جميعه لمقـــاتلة انسان فرد ؟!... أليس مما يطيب به الغرور أن يتوفر له سوء الحظ ذلك التوفر الذى ان دل على شيء فعلى الحسد والخوف ؟! بلى فقد قضى لحكمة سلفت أن يكون الشقاء نصيب العقول الفذة فى هذه الدنيا ... !

وقد كان لالتذاذه بالألم هذا أثر فى توجيه ميوله السياسية المتقلبة ، فمال دائما الى الحزب المغلوب على أمره بصرف النظر عن مبادئه السياسية ، وسرعان ما يتمثل نفسه فى موقف زعيمه يتلقى ما يتلقى من ضروب الاضطهاد والاعتداء وينوء بما ينوء به من ألوان التبعات والواجبات ، يجد فى هذا وذاك ألما لا حصر له ولذة لا شبهة فيها .

والواقع أن خلقه هذا لم يتكون اتفاقا ولا تحت تأثير الاخفاق فحسب ولكن له أصول بعيدة ترجع الى عهد نشأته الأولى ، حين كان الطفل الأول لوالديه ، فدرج على الرعاية والحب والتدليل ؛ ولكنه كان ـ كذلك ـ الطفل الذى ادخره حظه لكى ينهض بأعباء أسرة محطمة وهو دون العشرين ، فلم تتلطف معه الدنيا ـ فضلا عن أن تدلله ـ ساعة واحدة !..



لبث مستلقيا فى الفراش دون أن يغمض له جفن . وجعل يقلب عينيه فى سقف الحجرة وجدرانها وأرضها . وتساءل قلقا ترى هل تطيب له الحياة فى هذا الحى العجيب ؟!. ونازعه الحنين الى شارع قمر وحى السكاكينى والبيت القديم ، وعلى انه لم يفارقه كذلك ذاك الشعور المشرق بالأمل الوضاء بالتطلع . ثم ملأت البيت حركة متصلة وأتاه صوتا أمه والخادم فأدرك انهما

يستأنفان نشاطهما لفرش الشقة واعداد الحجرات . وتصاعدت اليه من الطريق ضجة مزعجة وضوضاء فظيعة فأنكرها وأصغى اليها بانتباه فتبين له أنها أصوات أطفال يلعبون ويغنون . وكأنه ضاق برقاده ذرعا فنهض الى النافذة المطلة على العمارات وفتحها وراح ينظر منها الى الطريق ، فرأى جماعات من الصبيان والبنات يملئون الطريق متصايحين متضاحكين وقد انقسموا فرقاً أكب كل فريق على رياضة ، فبدا الطريق وكأنه ناد رياضى ساذج فهذه جماعة تلعب بالجديد وتلهب الأكف بالطرة ، وهذه جماعة تلعب بالبلى ، وتلك عصبة تحجل وتلك أخرى تتصارع ، واقتعد الصغار الطوار يرقصون ويغنون ويصفقون . اضطربت الأرض وضج الجو وثار الغبار فأيقن أن لا قيلولة منذ اليوم ! وسمع أناشيد عجيبة « يا عم يا جمال .. » و « يا أولاد حارتنا توت توت » و « الجبل ده عالى يا عمى » الخ الخ . فحار بين الدهشة والحنق والسرور ! ثم تصاعد صوت جهورى أجش غليظ النبرات يصيح كالرعد القاصف « ملعون أبو الدنيا ! » وكرر صياحه بصوت منغوم على ايقاع كفين شديدتين !.. وكان الصوت صاعداً على الأرجح من دكان تحت النافذة مباشرة ولكن من داخلها فلم يستطع رؤية ذلك الذى يتغنى بسب الدنيا ولكنه لم يتمالك نفسه فأغرق فى الضحك حتى تورد وجهـــه الشاحب . واشرأب بعنقه من النافذة فاستطاع أن يرى لافتة الدكان وقد نقش عليها بخط جميل « نونو الخطاط » ! .. ترى هل يكتب الرجل لوحات فى سب الدنيا ويبيعها المتذمرين والساخطين ؟! .. الا ما أجدر أن يبتاع منها ما يشفى غليله !

٣

واختفى شعاع الشمس المنعكس على زجاج النافذة العليا من العمارات التى تواجه نافذته ، فأدرك أن الشمس تغيب وراء قباب القاهرة المعزية بالجهة الخلفية ، وصعد بصره الى مئذنة الحسين السامقة تنطلق بجلال فى غلالة من ظلال المغيب فهزت مشاعره وأيقظت قلبه . ثم ارتفق حافة النافذة يردد ناظريه مابين أسطح الدكاكين التى تتوسط العمارات ، والنوافذ والشرفات المطلة من واجهات المبانى ، والممرات المتقاطعة . رأى نوافذ مغلقة وأخرى شبه مفتوحة وشرفات تسعى فيها ربات البيوت يجمعن الغسيل أو يملأن القلل ، وقد أوشك الطريق أن يخلو من الصبية كأنما افزعها دنو الليل ، وكان يرغب أن ينطلق الى الخارج ليرى من كثب مشاهد الحى الجديد . ويكتشف طرقاته ومسالكه ، ولكن غلبه التعب على رغبته لما بذل من جهد فى تنظيم مكتبته . هذا الى تعوده لزوم البيت حتى ندر أن يفارقه بعد عودته من الوزارة ، فأجل تنفيذ رغبته . وترك النافذة فتربع على شلتة — وهى جلسته المختارة اذا تهيأ للقراءة — واستخرج من المكتبة كتابا يقرأ فيه حتى يأزف ميعاد النوم .

وكان والده فى تلك الأثناء يتربع على سجادة الصلاة والمصحف بين يديه يتلو ما تيسر منه فى صوت مسموع ، غير منتبه الى اخطاء القراءة العديدة التى يتتابع عثوره بها . كان عاكف افندى أحمد فى الستين من عمره ، وقد أرسل لحية بيضاء أكسبت وجهه النحيل وقارا ، وفرض على نفسه عزلة قاسية عقب احالته على

المعاش وهو فى أواسط العمر ومشرق الآمال . وبدا كأنه كرس حياته للعبادة وتلاوة القرآن ، ولم يكن يفارق البيت الا فترات متباعدة للتريض المنفرد أو زيارة الأضرحة . وربما كان لعسره المالى — اذ لم يجاوز معاشه ستة جنيهــات — الأثر الأول فيما اتخذ فى حياته من نظام ، ولكنه رضى أخيرا عن طيب خاطر بحياته والفها بل واحبها أيضا شاكراً حامداً . وكانت أقسى أيام حياته وآلمها تلك التى اعقبت احالته على المعاش . فقد انقطع مورد رزقه أو كاد ، وتهددت الفاقة أسرته البائسة ، واجبر على اعتزال العمل والنشاط ، وأقصى عن الوظيفة وجاهها ، وهب كالمجنون للذود عن كيانه ، فسعى واستشفع بكل شفيع ، ولكن ذهبت مساعيه أدراج الرياح . قدم العريضة تلو العريضة ، والالتماس وراء الالتماس دون جدوى أو رجاء ، حتى علم أخيرا بالحقيقة المحزنة وهى أن باب الحكومة قد أغلق دونه الى الأبد . وكان فى الحقيقة طاهر اليد الا أنه ثبت اهماله وجاء تطاوله على المحققين فزاد الطين بلة ، ثم لم يسكت بعد ذلك عن شكوى الظلم والظالمين ، واستنزال اللعنات عليهم أجمعين . وراح تحت تأثير الغضب والحنق واليأس يتهكم بالحكومة والموظفين ، ويقول انه أحيل على المعاش لأنه أبى ان تمس كرامته ، وان الوظيفة أضيق من ان تتسع لانسان يحترم نفسه ، وبعــــد أن كان ينكر تطاوله على هيئة المحققين ، جعل يفاخر به ويبالغ فيه . ولم يعد له حديث سواه ، فصار ضحكة المتغامزين ، وفقد عطف الصحاب والاقارب . وحافظ بادىء الأمر على صلته بالناس ، فتردد على قهوة قيتا بغمرة يلاعب بعض الصحاب النرد ، ولكن خلقه ساء بعد فاجعته ، فأصبح ضيق الصدر سريع الغضب ، فاحتـــد يوما على لاعب فانفجر الآخر هائجا وصاح به : « يا طريد الحكومة ! » فلم تطأ قدمه قهوة بعد ذلك ، وانزوى بعيدا عن الناس والدنيا ، واختار

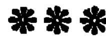
العبادة ملاذا وسكنا ، ولم يعد للماضى أثر فى نفسه . وسارع بالشفاء إليه نهوض ابنه أحمد بأعباء الأسرة ، وكأن الابن قد ورث عن أبيه تبعته ومرضه !.

على أنه لا ينبغى أن نهمل عاملا هاما فى شفاء الأب ، وهو الأم . حوت منذ البدء مزايا لا يستهان بها فى حساب السعادة العائلية ، فتمتعت بنصيب موفور من الحسن الذى رمقته القاهرة على أيام شبابها بعين الاكبار والاعجاب ، وما زالت - وقد شارفت الخامسة والخمسين - على وسامة وقسامة ، وولع بالصبغ والألوان ، وذوق فى الأزياء ، وما زالت الحيمة جسيمة وان اعتورها الاسترخاء ،خبيرة بوصفات السمن والتجميل ، مشهورة بخفة الروح والدعابة اللطيفة والنادرة الحلوة ، لا تضاهيها امرأة فى قدرتها على أن تألف وتؤلف ، فكثرت صويحباتها ، وتعددت البيوت التى تزورها وتستزيرها ، واستقبلها النسوة والأوانس بالسرور والغبطة شأن أعضاء الأسرة ولذلك لم تتأثر بالضائقة التى نزلت ببيتها . فلما انقبضت يد بعلها عنها انبسطت لها أيادى الصديقات الحبيبات بالهدايا ، فحافظت على مستواها المعهود من الأناقة والتجميل . وكانت لها على زوجها دالة ، فمسحت عن صدره الحزن بلطفها ودعابتها وتفاؤلها ، وكانت تقول له ضاحكة : « لقد انتهيت ياعاكف افندى من الحكومة فافرغ لى ! » . أو تداعب لحيته قائلة : « من أجل الورد ينسقى العليق ! » . ولكن كان صدرها يضيق اذا رأت بعلها مكبا على القرآن ، وبكرها عاكفا على مكتبه ، فتصيح بهما : « هلا علمتمانى القراءة لأجاور معكما ؟ ! » ولشد ماأحنقها أحمد باهماله نفسه ، فكانت تزوح على خديها كأنها تلطمهما وتهتف مؤنبة : « كبرت امك وجعلت سمعتها كالطين ! . هاك الكواء فمال لبدلتك مسترخية متقبضة ؟ ! . . وهاك الحلاق فما لذقنك مخضرا ؟ ؟ . . والدنيا بالأفراح حافلة ، فما انزواؤك بين الكتب الصفراء ؟ ! كيف تركت رأسك يصلع

وقذالك يشيب ؟ ! .. كبرتنى .. كبرتنى .. كبرتنى .. ! »
فكان أحمد يبتسم اليها ساخرا ويغيظها قائلا : « الطمى كيف شئت الست فى الأربعين ؟ ! » فيهولها التصريح بالحقيقة الفظيعة ، وتنهره قائلة : « اخرس .. قطع لسانك الطويل .. هل رأت الدنيا قبل اليوم ابنا يدعى عمر أمه ؟ ! » .

ومع ذلك فلم تخل حياتها من الحزن . كانت مريضة ، أوهكذا توهمت ، ولكن لم يأس على مرضها احد ممن حولها . وقد اقتنعت على مر السنين بأن عليها أسياداً ، وبأن لا شفاء لهـا الا بالزار ، وطالما توسلت الى بعلها ليسمح لها باقامة حفلة زار ، ولكن الرجل لم يصغ الى توسلاتها . واستقبح أحمد الفكرة وان لم يساوره شك فى وجود العفاريت ، وكان قريب عهد ــ وقتذاك ــ بالتجربة التى أوشكت أن تنتهى بجنونه ، فيئست المرأة من استمالتهما ، وقنعت بشهود حفلات الزار اذا اتفقت فى بيوت الصديقات ، حتى قال أحمد يوما متعجبا : « حقاً ان أسرتنا ضحية الشيطان ... ألم يغر والدى بتحدٍ لكلب حقير من الموظفين ففقد وظيفته ؟ ! .. والم يحضنى على تعلم السحر فاشفيت علي الجنون ؟ ! وها هو ذا يركب أمى ويهيىء لها خرابنا ! .

ولكن الله سلم فقد غلب مرح الست دولت ــ أم أحمد ــ على حزنها ، كما غلبت الحناء على ومضات المشيب بمفرقها .. !



لم يستطع أحمد أن يركز انتباهه فى القراءة لما أحدثه تغير المكان فى نفسه من اليقظة والقلق ، فمضى فى مطالعة فاترة متقطعة ومضى من الليل ساعة فسكتت ضوضاء النهار ، ولكن لتحل محلها ضوضاء أشد وافظع سرعان ما جعلت الحى جميعه كمسرح من مسارح روض الفرج الشعبية . أما مصدرها فالقهاوى العديدة

المنتشرة فى جوانب الحى ، فالراديو يذيع أناشيده وأحاديثه بقوة وعنف فكأنه يذيع فى كل شقة ، والندل لا يكفون عن النداء والطلب فى أصوات ممطوطة ملحنة « واحد سادة .. شــاى أخضر .. تعميرة على الجوزة ... وشيشة حمى ... » ودق قطـع النرد والدومينو وأصوات اللاعبين ! فخال نفسه فى طريق مزدحم بالمارة لا فى شقة ، وعجب كيف يحتمل أهل الحى ضــوضاءه أو كيف يغمض لهم جفن ؟! .

ولم يزل ملازما الشلتة حتى بلغت الساعة التاسعة فقام لينام ، وأطفأ المصباح ورقد على الفراش بعد أن أحكم غلق النافذتين ، ولكن الضوضاء لم تزل تملأ حجرته وتدوى فى أذنه ، فذكر سكون السكاكينى فى مثل هذه الساعة من اليوم وتأسف من الأعماق ، ثم لعن الغارات التى أجبرتهم على هجر مسكنهم القديم الهادىء ، فاستثار ذكرى تلك الليلة الجهنمية التى زلزلت القــاهرة زلزالا مخيفا ، وملأت الذكرى شعوره وضاعف من تأثيرها جثوم الليل حتى لم يعد يحس من ضوضاء الطريق ركزا ولا همسا .

كانت الدنيا نائمة ـ تلك الليلة المفزعة ـ يستقبل ليلها هزيعه الأخير وكما تعودت القاهرة فى مثل تلك الساعة من الليل أطلقت صفارات الانذار نعيرها المتقطع النميم ، فاستيقظت الأسرة ونهض أحمد لاطفاء المصباح الساهر فى الصالة الخارجية ثم عاد الى رقاده ليغط فى النوم مرة أخرى شأنه كل ليلة ، اذ لم تعرف القاهرة قبل تلك الليلة الا الغارات الاستكشافية ولم تسمع سوى طلقات المدافع المضادة للطائرات . ولكنه لم يسكن الى النوم وراح يرهف أذنيه رافعا رأسه عن الوسادة فى دهشة وانزعاج ، فقد سمع بوضوح أزيز طيارات ما فى ذلك من شك ، اتصل وقعه لا يغيب ولا يهن ، بل جعل يزيد وضوحا ويعلو شدة فضاق به صدرا وامتلأ منــه رعبا . ولكن خاطرا طمأنه بعض الاطمئنان ، فلم يفصل بين سكوت

الصفارة وسماع الأزيز الا دقيقة أو بعض دقيقة وهى مدة غير كافية بطبيعة الحال لوصول الطيارات المعادية حيث يسبق الانذار وصول الطيارات بربع ساعة على الأقل ، فبات مرجحا أن تكون الطيارات انجليزية حلقت للمطاردة . وانتظر أن ينقطع الأزيز ولكنه اتصل اتصالا مرهقا للأعصاب وكأن الطيارات آختارت بيتهم مركزا تدور من حوله . ونهض ثانية وغادر الحجرة يتلمس طريقه فى الظلام الى حجرة والديه وقال عند الباب بصوت مسموع « هل انتما مستيقظان ؟ » فجاءه صوت أمه قائلا : « لم ننم بعد ، أما تسمع شيئا ؟ » فأجاب أحمد : « بلى أزيز طيارات . . . وقد سمعته عقب الانذار مباشرة ! » فقال والده : « الأغلب أن تكون انجليزية » فقال أحمد : « لعلها » . وطمأنه اتفاق الظن بينه وبين أبيه فعاد الى حجرته . وقبل أن يمس جنبه الفراش أضاءت الحجرة المظلمة بنور عجيب آت من الفضاء أعقبه صفير مبحوح انتهى بانفجار شديد دوى فى سماء القاهرة دويا شديدا مزعجا ، فانتفض رعبا وتولاه فزع جنونى وقفز نحو الباب لا يلوى على شىء ، وضاعف من رعبه ان الحجرة لم تزل مضاءة بذاك النور الوهاج الذى اخترق نوافذها من الخارج داعيا القذائف الى أهدافها . وتتابعت الانفجارات الشديدة واختلط تفجرها بذاك الصفير المبحوح المقوت ، فارتجت الأرض ارتجاجا وزلزل البيت زلزالا ، ولم ينقطع الضرب لحظة واحدة وبدا كأن السماء ستظل تقذف الأرض بهاتيك الرجوم الشيطانية فى ذاك العناد الشيطانى الجبار . ووجد والديه فى الصالة ، الأب معتمدا ذراع الأم يوشك أن يسقط صريع الفزع والارهاق ، فهرع اليهما وتأبط ذراع والده وصاح بهما « هلما الى مخبأ العمارة » ومضوا مسرعين تتقدمهم الخادم ، وتساءل بصوت متهدج مضطرب « ما هذا النور ؟ . هل بسبب حريق فى الخارج ؟ » فقال احمد وهو يعالج انفاسه المضطربة ويتبين

مواقع قدميه من السلم : « هى مصابيح المغنسيوم التى قرأنا عنها فى الجرائد » فقال الرجل : « ربنا يلطف بنا » . وكان السلم مكتظا بالهابطين الداعين الله من قلوبهم الواجفة ، وكلما حدث انفجار ارتجت الجدران وتعالى صراخ يصم الآذان وصوت النسوة وأعول الأطفال . وانطفأ نور المغنسيوم فجأة والضرب فى عنفوانه والموت فى حومانه فساد الظلام ، وحدث هرج ومرج فزلت أقدام وعثر أناس وزاد الفزع والارتباك ، ثم بلغوا مخبأ العمارة ـ البدروم ـ بعد جهد جهيد . وكان مضاء بمصباح خافت ، مغطاة نوافذه بستائر كثيفة سوداء ، واعتمد سقفه على عمد افقية قامت على عمد حديدية راسية ، ووضعت حول جدرانه أكياس من الرمل . وعلى ضوء المصباح الخافت لاحت وجوه تعلوها صفرة الموت ، جاحظة عيونها مرتجفة أوصالها ، هاذية السنتها ، ووقفوا ثلاثتهم متقاربين يذوبون لهفة أن يكف الضرب لحظة واحدة فيأخذوا أنفاسهم ويبلوا ريقهم ، ولكن الضرب اشتد وبدا من اشتداد الانفجارات أنه أخذ يقترب منهم ! . وهنا حرك ساقيه فى الفراش فزعا من هول الذكرى وهو يغمغم : « تبا لها من ليلة ! » وتنهد من اعماق صدره وفتح جفنيه ، فعادت ضوضاء الحى الى وعيه ، وذكر انه رقد لينام لا ليستذكر آلام افظع ليلة فى حياته ، ولكن هيهات ... لقد هجمت عليه الذكرى بقوة لا تقاوم . أجل ، اخذ الضرب يقترب ، بل انفجرت قذيفة خال القوم الفزعون انها انفجرت فى صدورهم ورءوسهم ، فرفعوا أيديهم كأنما ليتقوا بها السقف اذا انهار عليهم ، واشتد الصراخ والدعاء وجرى اسم الله على كل لسان ، وقوى شعور مفزع بأن القذيفة الثانية ستسقط على رءوسهم ! . وهوت القذيفة التالية ! ... رباه هل يمكن أن ينسى ذلك الصفير المبحوح ـ صفير الموت ـ وهو يهبط عليهم لا مهرب منه ولا مفر ؟ .. وكيف تقلقلت العمارة وطقطقت النوافذ

قبل أن تبلغ القذيفة الأرض ! .. ثم كيف دوى الانفجار فصك الأسماع وصم الآذان ورج الأمخاخ ومزق الأعصاب وخنق الأنفاس ! .. لقد تقوست الظهور فى انتظار المقدور ... وقبض اليأس القلوب ... وتعجلت النفوس النهاية مختارة الموت على انتظاره ... أجل لم يعد بينهم وبين الموت الا قذيفة لعلها تغادر فى تلك اللحظة مكمنها من الطيارة ... ولكن القذيفة — وهنا ابتسم ابتسامة حزينة — لم تسقط ! ... أو سقطت بعيدا ، فقد ابتعد الضرب سريعا كما جاء سريعا ، لم يجئهم الموت كما أوهمهم .. أراهم وجهه ولكن لم يذقهم طعمه ... أو أجل ذلك لليلة أخرى ، فباعد الضرب ، ثم خف عن ذى قبل ، وبات متقطعا ثم انقطع فلم يعد يسمع الا طلقات المدافع ، ثم ساد السكوت ! .. واسترد التعساء أنفاسهم ، وتبادلوا نظرات الشك والرجاء ، وانفكت عقد السنتهم فهذوا كالمجانين ، ومضت ربع ساعة رهيبة ثم انطلقت صفارات الأمان ! .. يا رحمة الله ! .. هل ذهب الموت حقا ؟ .. هل يدركهم نور الصباح ؟ .. ودبت الحركة واضيئت الأنوار وانطلق أناس الى الخارج وجاء آخرون من الجهات القريبة ، وانتقلت روايات ، قالوا العباسية خراب ... أما مصر الجديدة فقل عليها السلام ، وقصر النيل أمست أثرا بعد عين ، ومخازن الترام دمرت وجثث العمال أكوام !

وصعدوا الى شقتهم يغمر صدورهم سرور عصبى ، سرور من نجا من الموت وعقابيل الخوف لم تزل ناشبة فى صدره ، ومضوا بقية الليل ايقاظا يتكلمون . وفى نهار اليوم الثانى بدا الحى وكأنه قد أزمع الهجرة ، وتتابعت عربات النقل تحمل المتاع الضرورى الى الأحياء التى حسب الناس أنها آمنة أو الى القرى المتاخمة للعاصمة حتى خلت عمارات من ساكنيها ، وضاعفت مناظر الهجرة من خوف الأسرة . خصوصا الأب الذى تضعضع قلبه الضعيف

من عنف الغارة ، فنشأت فى رأسه فكرة الهجرة مع المهاجرين . وإذا كان من المتأثرين بدعاية المحور الاسلامية فقد اعتقد اعتقادا راسخا فى أن حيا دينيا كحى الحسين لا يمكن ان يقصده المغيرون بسوء ، فجد فى البحث عن مسكن فيه ، فاهتدى الى هذه الشقة . وكان النقل . . . وان ينس لا ينسى اليوم الذى اعقب ليلة الغارة . فلم يكن للقاهرة حديث الا حديث الليلة الماضية . واستفاض الناس فى الكلام بأعصاب متوترة ونفوس قلقة ، وضحكوا جميعاً ضحكا فيه سرور النجاة وتوتر الخوف . وشعر أحمد بدنو الموت دنواً جعله يحس تردد انفاسه على وجهه . بل هنالك ما هو افظع من الموت نفسه ، كأن يلقى به الى قارعة الطريق مقطع الأوصال أو مشطور الرأس ، وربما ألحق بعد ذلك بذوى العاهات المستديمة ، أو كأن ينجو من الموت ويدك البيت بما فيه فيجد نفسه وأسرته بلا مأوى وبلا اثاث وبلا لباس ! . وجعل يدعو ربه ويستشفع بنبيه ، فالحياة محبوبة ولو كانت خائبة يائسة ، واعجب من هذا أنه مال الى الترفيه عن نفسه وتهيئة السرور لها ما أمكن ، فغلب حرصه الطبيعى وابتاع لدى عودته الى البيت صندوق بسكوت بالشيكولاتة وهو طالما اشتهته نفسه وحرمها اياه حرصاً على القليل من النقود التى تعود أن يودعها صندوق التوفير كل شهر . ولكن عندما أتى المساء غشى القلوب هم وكآبة ، وبات الكل فى ذعر عظيم ، ولم يغمض لانسان جفن ، وتيقظت ذكريات الليلة المفترسة ، واختلت الحواس ، فصار كل نفير صفارة انذار ، وكل صفقة باب انفجار قنبلة ، وكل خشخشة ازيز طيارة . . ! وها هم أولاء قد انتقلوا فهل تطمئن قلوبهم حقاً ؟ ! العمارات حديثة البناء متينة ، ولها مخبأ يضرب بقوته المثل وهذا جوار الحسين . . ولكن الم تدك حصون وتخرب جوامع ؟ ! . . آه لكم يعذبنا حب الحياة ، ولكم يقتلنا الخوف ، ومع ذلك فالموت لا يرحم ، وبالتفكير فيه يبدو

أى جليل تافها . كم حمل نفسه ما لا طاقة لها به من الحزن والغضب . . فبفيم كان ذاك ؟ وسمع عند ذاك الراديو يذيع السلام الملكى ، فأدرك أن ساعتين مضتا فى أرق وقلق فجزع وراح ينشد النوم بمطاردة الأفكار . ولكنه لم يظفر بأفكاره وبالعكس ظفرت هى به فغمره سيل الذكريات الزاخر ، فذكر كيف اقترح على والديه ان يسافرا الى أخيه الأصغر فى أسيوط ـ مقر عمله ـ فيبتعدا عن الخطر حقا ، وكيف قالت له أمه : « بل نبقى الى جوارك فاما أن نعيش معا واما . . » ثم استضحكت مستعيذة بالله ! . . ماذا كان يفعل لو وافقا على السفر . . كان أسهل الحلول أن ينزل فى بنسيون ، والحق أنه رحب بالفكرة فى أعماقه لأنه يروم التغيير وهو لا يدرى ، وكيف لا يروم التغيير أعزب قضى أربعين عاما فى بيت واحد يكابد حياة رتيبة لا فرق بين يوم منها وبين عام ترهقها عزلة وحشية ؟ ! . . فمهما ألف هذه الحياة وتعودها لا بد أن تنزع به النفس ـ ولو فى خفاء الى التغيير . . . والتغيير الكامل ! . . الا أنه لم يستسلم هذه المرة طويلا الى أفكاره فقد طرقت انفه رائحة غريبة أوقفت تيار أحلامه ! . . ذابت فى خيشومه فجأة كأنما حملتها اليه هبة نسيم كان من قبل راكدا . ونبهه اليها أنه كان يشمها لأول مرة فى حياته ، وتحير كيف يصفها ، فما كانت رديئة ولا كانت زكية ، ولكن تطيب بها النفس ، وفيها هدوء ، وعمق ، والا فما نفاذها الى قرارة الاحساس ؟ ! . . وما كانت تنقطع الا لتعود . . فهل بخور يحترق فى هذه الساعة من الليل ؟ ! . . أم يكون لهذا الحى الغريب أنفاس تتردد فى أعماق السكون ! . .

وغاب به التفكير فى الرائحة الغريبة عن أفكاره فتهيأ للنوم وهو لا يدرى . . وما لبث أن استرق الكرى خطاه الى جفنيه فأخذ بمعاقدهما . . . .

٤

وعند الساعة السابعة من صباح اليوم الثانى كان جالساً الى السفرة يتناول فطوره الذى يتكون عادة من فنجان قهوة وسيجارة ولقمات مع قطعة من الجبن أو قليل من الزيتون . وغادر الشقة فصار فى الردهة الخارجية التى تفصل بين الشقق ، وقبل أن يبلغ السلم سمع وقع قدمين خفيفتين وراءه فنظر خلفه فرأى فتاة فى أولى سنى الشباب مرتدية مريلة مدرسية زرقاء ومتأبطة حقيبة الكتب ، وقد التقت عيناهما لحظة خاطفة ثم أعاد رأسه وقد تولاه ارتباك ، والارتباك طبيعته اذا التقت عيناه بعينى أنثى ! . ولم يدر هل الأليق ان يسبقها الى الطريق أو أن يتنحى لهـا جانبا فزاد ارتباكه وتورد وجهه الشاحب وبدا فيلسوف ادارة المحفوظات بوزارة الأشغال كالطفل الغرير يتعثر حياء وخجلا ! . . وتوقفت الفتاة كالداهشة وانتقلت اليها عدوى ارتباكه ، فلم يجد بدآ من أن يتنحى جانبا وهو يهمس بصوت لا يكاد يسمع « تفضلى ! » فمضت الفتاة الى حال سبيلها وتبعها متثاقلا متسائلا أاصـاب يا ترى أم أخطأ ؟ . . وبم حدثت نفسها عن تردده وارتباكه ؟ ! . . وعند باب العمارة أيقظه صوت جهورى من أفكاره يصيح « ملعون أبو الدنيا » فالتفت الى يسراه فرأى نونو ـ كما ظن ـ يفتح دكانه ، فسرّى عنه وابتسمت أساريره وغمغم « يا فتاح يا عليم ! » ثم سار فى طريقه والفتاة على بعد منه غير بعيد حتى بلغت السكة الجديدة فانعطفت الى يسارها ومضت نحو الدراسة وواصل هو مسيره الى محطة الترام . ولم يكن رأى من وجهها سوى عينيها .

استقرت عليهما عيناه لحظه حين التفاتته اليها . عينان نجلاوان ، ذواتا مقلتين صافيتين وحدقتين عسليتين ، بدتا لغزارة أهدابهما مكحلتين ، يقطران خفة وجاذبية ، فحركتا مشاعره . وكانت الفتاة تتخطى عتبة الشباب اليافع فلا يمكن أن يجاوز عمرها السادسة عشرة ، بينما هو فى الأربعين ، فأكثر من عشرين عاما تفصل بينهما ! ولو أنه تزوج فى الرابعة والعشرين — وهى سن زواج معقول — لكان من المحتمل ان يكون ابا لفتاة فى مثل عمرها ونضارتها ! . وأخذ مجلسه من الترام وهو ما زال يتصور تلك الأبوة التى لم تتحق .

وسرعان ما خمدت نشوة التأثير بالعينين ، وفتر حماس الحنين الى الأبوة ، واجتاح صدره انفعال عنيف قاتم شأنه اذا اقترب من انثى أو اقتربت انثى منه ، ذلك أنه يحب النساء حب كهل محروم ، ويخافهن خوف غرير خجول ، ويمقتهن مقت عاجز يائس . فأية انثى جميلة تترك فى وجدانه انفعالا شديداً ، يضرب فى أعماقه الحب والخوف والمقت . وقد كان لنشأته الأولى أكبر الأثر فى تكييف طبيعته الشاذة ، فخضعت طفولته لصرامة أبيه وتدليل أمه ، صرامة ترى القهر عنوان الحنان ، وتدليل محبة مغرم لو ترك الأمر له ما علمه المشى خوفا عليه من العثار . فنشأ على الخوف والدلال، يخاف أباه والناس والدنيا ، ويأوى من خوفه الى ظل أمه الحنون ، فتنهض بما كا نينبغى أن ينهض به وحده . فبلغ الاربعين ولم يزل طفلا ، يخاف الدنيا وييأس لأقل اخفاق ، وينكص لدى أول صدمة ، وما له من سلاح سوى سلاحه القديم البكاء أو تعذيب النفس ، ولكن لم يعد يجدى هذا السلاح ، لأن الدنيا ليست أمه الحنون ، فلن ترق له اذا امتنع عن الطعام ولن ترحمه اذا بكى ، بل أعرضت عنه بغير مبالاة ، وتركته يمعن فى العزلة ويجتر العذاب . فهل يصدق الوالدان أن ذلك الكهل الأصلع الخائب قد ذهب ضحيتهما ؟ ! .

ومع ذلك كله سجل قلبه تاريخا فى حياة القلوب .

سطر أولى كلماته وهو فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية ، وما يعنينا من سرده الا دلالته على طبعه . كان غلاما ناضراً متأنقا . ولعله ورث الأناقة من والدته ، فجذب اليه يهودية صغيرة حسناء من بنات الجيران ! . فأحمد عاكف — كما ترى — كان يوما ما جذابا ! . كانت تلعب فى طريقه وترقب مرجعه من المدرسة فى نافذتها ، ولا تضن على عينيه بملاحتها ودلال أنوثتها فأصلت وجدانه نيرانا ولكنها لم تستطع أن تبعث فى قلبه الجسارة أو الشجاعة . الهبت قلبه وجدا ولكن قصارى ما كانت تدفعه اليه شجاعته أن يرمقها بلحاظ مغرم وجل سرعان ما يرتد أمام نظرتها وهو كليل ، ولكنه على رغم خجله طارحها الغرام صراحة بفضل جسارتها هى . كانت جسوراً لعوبا لا يردعها عن هواها رادع ، فاستطاعت أن تعالج حياءه بجسارتها ، وتبعته ذات أصيل حتى أدركته ثم نادته فالتفت اليها بوجه كالجمان ، فابتسمت اليه ابتسامة لطيفة فأجابها بابتسامة مقتضبة فى حياء وخفر فقالت له « هلم نتمشى فى شارع عباس ! » فأطاع دون أن ينبس بكلمة وسارا جنبا الى جنب والشمس تتقدمهما نحو المغيب . وتعمدت أن تدنو منه وأن تلامسه فى رفق فجعل يبتعد كأنما يخاف أن تحسب أنه المتعمد وهو يذوب شوقا الى اللمس الذى بجانبه . ثم تأبطت يمناه وهى تضحك ضحكة لم تخل من الارتباك ، فطرفت عيناه ونظر فيما حوله بخوف فسألته فى دعابة « أتخاف ؟ ! » فقال بصوت رقيق : « أخاف أن يرانا أحد من بيتك ! » فهزت كتفها استهانة وقالت « لا تبال هذا » فلاحت فى عينيه نظرة عجب فاستدركت متسائلة « أما تزال خائفا ؟ ! » فقال بعد تردد « أخاف أن يرانا أحد من بيتنا ! » فأغرقت فى الضحك وعاجت به الى بستان وهى تغمغم « نحن الآن فى أمن من الرقباء ! » وتمشيا فى

سكون والشمس تذوب فى الشفق ، وظلال المغيب تمتد فى الأفق فتجعل منه سرادقاً قائما لاستقبال الليل الزاحف . ثم قالت الفتاة الجريئة لتحتال على حيائه « حلمت حلماً يا له من حلم ! » فقال وقد اخذ يأنس بها « خيرا أن شاء الله » فقالت « حلمت أنك قابلتنى وقلت لى اريد ... ثم ذكرت كلمة لن أعطيها لك حتى تقولها بنفسك ، فحزر ما هى ؟ !» فاشتد عليه الارتباك وقال بلسان متلعثم « لا أدرى » فقالت بصوت عذب « بل تدرى وتدارى ... قل ! » فحلف لها بسذاجة أنه لا يدرى ، فقالت : « لا فائدة من الكذب على ... أولى بك ان تتذكر ... كلمة أول حروفها ق ! » فصمت وقد خفق قلبه واضطربت أنفاسه فقالت : والحرف الثانى ب ! » فلزم صمته وغض بصره فاستطردت تقول: « والثالث ل .. قل ما الحرف الأخير ! » فابتسم مرتبكا ولكنه لم يدر كيف يتكلم ، فقرصته فى ذراعه وهمست فى أذنه « اذا لم تخرج عن صمتك فلن أكلمك أبدا ! » وفعل التهديد فعله فرسمه بأصبعه فى الهواء تاء مربوطة ! فضحكت بسرور وقالت : « الآن اعترفت بما تريد ولن أضن به عليك !! . ثم أدنت منه وجهها وقد أيأسها خجله الشديد من الانتظار فأخذ قبلة مضت عقود من العمر كاملة وهو يحترق توقاً الى مثلها . وهكذا كان دائما : احساسا عنيفا وخجلا مؤيسا . وكان يحلو لتلك اليهودية الحسناء أن تداعبه بالسخرية من قسمات وجهه ، فآمن بسخريتها ، واستقبح وجهه أكثر مما ينبغى ، ووجد سببا جديدا يقوى به خجله الطبيعى فتضاعف ، ولو امكن رجلا أن يسدل على وجهه نقابا لكان ذاك الرجل ، وكان ذلك من بواعث المبالغة فى تأنقه حينا التى انقلبت فصارت اهمالا زريا حين أدركه اليأس .. !

واختفت اليهودية الحسناء من حياته فجأة ، فما هو الا أن خطبها شاب من بنى جنسها حتى هجرت لعبتها لتستقبل حياة

الجد ، غير عابئة بالجرح الدامى الذى أحدثته فى قلب غض . بيد أن القلوب الغضة سريعا ما تندمل جروحها . وفى الفترة النهائية من المرحلة الثانوية دانت أسباب الجوار ايضا بينه وبين صبية حسناء هى صغرى بنات أرملة من صديقات والدته ، فألفت بينهما المودة وتشجيع الأمين اللتين ما برحتا تدعوانهما بالعروسين. ولم يكن ذاك الحب الثانى كالأول الذى كان اول يقظة لقلب مفطور على الاحساس ، ولكن حوت الصبية مزايا نادرة من رجاحة العقل ومتانة الخلق مما جعل ضياعها من بين يديه خسارة كبيرة اسف عليها أكبر الأسف . وكثيرا ما كان يحدث نفسه قائلا : انه لو تزوج من فتاته كما أرادت أمه وأمها لتمتع بحياة زوجية سعيدة قليلة الأشباه . ولكن عقب حصوله على البكالوريا حلت الكارثة بأسرته فأحيل أبوه الى المعاش ودفع به هو الى مواجهة الشدة فانتزع من نعيم الآمال ورمى به الى جحيم اليأس ، واصبح حتما على الفتاة اذا أرادت أن تبقى عليه ان تنتظر عشرة اعوام ريثما ينتهى من تربيه أخيه . والظاهر أن أمها لم تشجع التضحية المطلوبة لما فيها من انتظار طويل ، وغلبت حكمة الفتاة — نفسها — على عاطفتها فانقطعت الأسباب وتبددت الأحلام . وكفر احمد بالحب وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميعا . فالحب الذى ثمل به قلبه بين يدى اليهودية وهم ضال ، أو مرض ملازم للمراهقة كتوعك التسنين للطفل . وقد قضت مرارة الحقيقة بالعقاب الصارم على من يركن لعهد امرأة ... سواء أكانت كخطيبته عقلا وفضلا او كاليهودية التى علقته ما شاء لها الهوى ثم هجرته كما يهجر الانسان حجرته ، فى فندق بميدان المحطة .. !

وانقضت بعد ذلك عشرون عاما من حياته وقلبه من الحياة خواء يكابد مرارة عيشة فقيرة مترعة بالهموم مثقلة بالتبعات ضيقة بالأمل . ولو سكنت ثائرته لأمكنه أن يجد فى حياته من

بالنجاح ، وساوره أمل ـ وهل ينعدم من الحياة الأمل ؟ ـ ان يراود السعادة ، فقد يظفر بالسعادة وان يئس يأسا نهائيا من الجاه والسلطان . وسعى الى ان يخطب كريمة أحد التجار المقيمين فى غمرة ، ولكن والدها رده رداً جميلا . وعلم الكهل أن أمها قالت عنه « ان مرتبه صغير وعمره كبير ! » . وترنح من هول الضربة التى هوت على كبريائه ، وثار ثورة عنيفة ، وكبر عليه ـ وهو العبقرى الذى حشد الكون ما به من سوء حظ لمكافحة عبقريته ـ كبر عليه أن ترفضه أنثى من بنات حواء ، بل أن ترفضه خاصة لأنه حقير ! .. أيقال عنه حقير ؟ ! . فمن العظيم اذاً ؟ ! .. وكور قبضته متوعداً الدنيا بالويل والثبور والشرر يتطاير من عينيه . بالأمس هجرته حبيبته لأنه صغير لا ترجى منه فائدة . واليوم ترفضه فتاة لأنه كبير لا ترجى منه فائدة ، فمتى كان ذا فائدة ترجى ؟ ! .. أذهب العمر هباء ؟ ! .. أضاع المجد وعزت السعادة وانتهى كل شى ؟ ! . وصار دأبه بعد ذلك ذم النساء ورميهن بكل نقيصة ، فهن حيوانات ماكرة ومكرهن سيء قوامه الطمع والكذب والتفاهة ، انهن أجساد بلا روح ، انهن مصدر آلام الانسان وويلات البشرية ، وما أخذهن بظاهر العلم والفن الا خدعة يختفين وراءها ريثما يوقعن فى شباكهن الضحايا ، ولولا شهوة خبيثة القيت فى غرائزنا ما ظفرن برجاء ولا مودة ... وهن .. وهن ... وكثيراً ما يقول لزملائه « شرعت لنفسي ـ والحمد لله ـ الا أتزوج على كثرة ما واتتنى الفرص ، لأنى آبى أن ينتهبنى حيوان قذر لاروح له ولا عقل ! » لقد جعل منه عجزه عن النجاح عدوا للدنيا ، فجعل منه عجزه عن المرأة عدوا للمرأة ! ... ولكن أعماقه اضطربت بالرغبة والعاطفة المنهومة المحرومة .

ان انفعاله لامرأة عابرة ـ كما حدث اليوم ـ حقيق باهاجة أعماقه وسرعان ما يذكر تاريخه القديم الحديث مع المرأة فيثور ، ويساوره ذاك الشعور العميق الطافح بالحب والخوف والمقت ... !

لذات التضحية والقيام بالواجب ما يعزيه عن خيبة آماله جميعا ، ولكن غضبه لم يسكت وحدته لم تلن فلم يزل ساخطا متبرما حاقدا ، لأن انسانا الف أن يكون المعبود الذى تقدم على مذبحه القربان لا يحتمل أن يصير كبش التضحية . وشغل بأحزانه وتبعاته وعزلته عن الحياة فكأنما رمى بقلبه — الذى لبث طوال اربعة أعوام كقيثارة دائمة الترنيم — الى بئر آسنة فاختنق وعاش بلا أمل ، بلا حبيب ، وبلا قلب ، لا يأنس بالحياة ولا يدرك معنى أفراحها ، فدفعه القنوط من النجح الى العزلة ، ودفعه القنوط من الحب الى البغاء . وكأنه لم يكفه ما اعتنق من سوء ظن بالمرأة فالقى به سوء حظه بين يدى الأنوثة التعسة المشوهة ليزداد ايمانا بعقيدته المريضة . فأقنع نفسه — بسوء نية — بأن المرأة الحقيقية هى البغى ! ... فهى المرأة الحقيقية وقد جلت عن وجهها قناع الرياء ، فلم تعد تشعر بضرورة ادعاء الحب والوفاء والطهر . على أن البغى قد نالت من نفسه أكثر من ذلك فقد أودت بالبقية الباقية من ثقته بجدارته كرجل ، اذ انه أعتقد أن البغى اذا احبت رجلا فانما تحبه لما يجذبها فيه من فحولته وجاذبيته الطبيعية بصرف النظر عن اعتبار القيم الاجتماعية وظروف القربى أو الجوار ، فعسى أن تكون اليهودية أحبته لأنها لم تظفر بسواه ، أو أن خطيبته أحبته لدواعى الجوار وايحاء الأمهات . أما البغى فلا تختار حبيبا من بين عشرات الرجال الذين يترددون عليها لداع من هذه الدواعى ، فاذا كان لم يستطع أن يجذب اليه بغيا طوال هذا الدهر فما ذلك الا لأنه عاطل من جاذبية الجنس ! ... وهكذا عانى وهم نقيصة الجنس كما عانى نقيصة الدمامة من قبل .

ولما اتم أخوه رشدى دراسته وحصل على بكالوريوس كلية التجارة وتوظف ببنك مصر منذ عامين — وكان أخوه الآخر توفى منذ أمد بعيد — شعر بحق بأن مهمته قد انتهت بل وكللت

٥

وعاد ظهراً الى الحى الجديد ، وغمغم مبتسما وهو يدنو منه : « ثانى عطفة على اليمين ثم ثالث باب على اليسار ! » ، وذكر وهو يرتقى السلم الحلزونى فتاة الصباح ذات الوجه الأسمر والعينين العسليتين النجلاوين . ترى هل يراها مرة أخرى ؟ .. وفى أية شقة وفى أى طابق من هذه العمارة تقيم ؟! ولبث فى البيت — وقد أكملت أمه فرشه وتنظيمه — حتى العصر . ثم بدا له ان يجول فى طرقات الحى الجديد مستطلعا ومستكشفا ، فارتدى ملابسه وانطلق الى الخارج . وتريث قليلا أمام باب العمارة ، وجعل ينظر فيما حوله كأنما ليختار ناحية يبدأ منها استكشافه . ولكنه قبل أن يجمع على راى شعر بشخص يدنو منه فالتفت اليه فرأى الرجل الذى حسب صباح اليوم أنه المعلم نونو ، وقد اقبل بخطوات ثقيلة مبتسما ابتسامة ترحاب وسرور ، ومد له راحة غليظة كخف الجمل وقال :

— أهلا وسهلا بالجار الجديد !.. ويا ألف نهار أبيض !

وسلم الجار الجديد . ولم يكن يتوقع تلك المفاجأة من صاحب « ملعون أبو الدنيا ! » ، وقال وقد ابتسمت أساريره :

— أهلا وسهلا بك يا معلم !

فأشار المعلم الى كرسى موضوع أمام دكانه وقال والابتسامة لا تفارق شفتيه الغليظتين :

— شرفنا بالجلوس دقيقة .. ذا يوم سعيد !

وتردد أحمد — لا لأن قبول دعوة المعلم يناقض الغرض الذى

خرج من أجله ـ ولكن لأن طبعه النافر لا يستسيغ مثل هذه الدعوة الكريمة بغير تردد . وقرأ الآخر تردده فى وجهه ، فقال بصوته الجهورى الخشن :

ـ حلفت بالحسين ـ ان لم تكن قاصداً غاية تستوجب العجلة ـ الا ما شرفتنا ... يا ولد يا جابر هات شاياً .. وهات نرجيلة !

وقبل احمد ـ بسرور يعادل تردده ـ الدعوة شاكرا . ومضى الى الكرسى بينا غاب المعلم لحظة ثم عاد بكرسى آخر وجلسا متقابلين . كانت دكان الخطاط مثل بقية الدكاكين حجما واناقة ، وقد غصت باللافتات الجميلة ، وتوسطتها طاولة رصت عليها قنينات الألوان والأقلام والمساطر ، واسندت الى احدى قوائمها لافتة كبيرة كتب فى أعلاها بالألوان الزاهية «محل بقالة خان جعفر» وتحت ذاك العنوان لاح اسم صاحب البقالة مرسوما بالرصاص لم يلون بعد . وكان الرجل يرتدى جلبابا ومعطفا أبيض وطاقية . فى الخمسين أو نحو ذلك ، ربع القامة متين البنيان ، كبير الوجه والرأس واضح القسمات ، يمتاز وجهه بصدغين وفم واسع ، وشفتين ممتلئتين ، ولون قمحى مشرب بحمرة . وقد جلس وهو يقول :

ـ محسوبك نونو الخطاط .

فرفع أحمد يده الى راسه وقال :

ـ تشرفنا يا معلم . محسوبك احمد عاكف بوزارة الأشغال !

وكان لا يحب ذكر وظيفته ارضاء لكبريائه ، فكانت لحظات التعارف لحظات تعذيب ، بيد أنه لم يتألم هذه المرة كعادته لايقانه بما يكنه امثال المعلم نونو للموظفين من احترام . وقد رفع الرجل يديه الى رأسه احتراما ثم ابتسم ابتسامة لطيفة ، وقال بما طبع عليه من صراحة :

ـ انتم شرفتم حينا يا سادة ولكن هل جئتم حقا الى هنا خوفا من الغارات ؟!

وعجب أحمد عاكف كيف عرف سبب هجرتهم ولما يمض عليهم فى الحى الجديد سوى ليلة واحدة . فحدج الرجل بنظرة انكار وتساءل :

ـ من قال لك ذلك ؟!

فقال المعلم ببساطة :

ـ الحوذى الذى نقل أثاثكم ، الناس جميعا تهاجر هذه الأيام !

فقال أحمد عاكف يدافع عن « شجاعة » أسرته :

ـ الواقع أن احياءنا المعرضة للخطر كادت تخلو ، وقد حملنا مرض والدى بالقلب وخوفنا عليه على هجر بيتنا القديم آسفين !

وعند ذاك جاء غلام المعلم بالشاى والنارجيلة . فوضع النارجيلة امام المعلم ، ثم اتى بكرسى من الدكان وضعه امام الضيف ووضع الابريق عليه . وعزم المعلم على ضيفه ان يحسو الشاى واقبل على النارجيلة بلذة وشهوة ، واخذ نفسا طويلا روى به غلة خيشومه ثم استدرك قائلا :

ـ حسن أن يلتمس الانسان سبيل الطمأنينة وان كان العمر واحدا والرب واحدا والمكتوب حتما تشوفه العين . انى يا عاكف افندى من المتوكلين على الله ، وما عرفت حتى الآن طريق المخبأ . اى مخبأ يا سعادة البيك ؟!.. هل يستطيع نونو أن يراوغ القدر ، او يؤجل قضاء الله ؟! .. الم تسمع صالح عبد الحى وهو يغنى « نصيبك فى الحياة لازم يصيبك » ؟! . بيد أنى أدعو الله أن يكفينا شر الأيام ، وادعو فأقول ان حظنا حلو ، فلولا حكمة بعض الناس ما فزنا بهذا الجوار السعيد !

ولاحظ احمد أن كلام الرجل حوى أوله سخرية به ـ وان كانت سخرية غير مقصودة ـ بينا حوى آخره ما يستوجب الشكر !.. فابتسم قائلا :

ــ شكرا يا معلم ، فطالما قال لنا الحكماء ان حى الحسين آمن !

فأخذ الرجل نفسا عميقا ثم زفره سحابة من الدخان كثيفة وقال :

ــ صدقوا ثم صدقوا . انه حى مبارك محبوب ، مكرم من أجل صاحبه ، وسوف ترى فيما يقبل من الأيام أنك لن تستطيع السلو عنه أو الزهد فيه ، وسوف يدعوك شيء من الأعماق اليه ... تفضل خذ نفسا من النارجيلة ...

فشكره أحمد معتذرا ، وكان يحتسى الشاى بلذة مصغيا لصاحبه ، وكأنما أراد أن يجاريه فى التدخين ولكن على طريقته هو فاستخرج سيجارة من علبته واشعلها مبتسما . وقد أحس نحو محدثه بارتياح لما وجده فيه من غرابة لم يعهدها فى أحد من الناس قبله ، وأعجبته بساطته وصراحته وقوته ، وأهم من هذا جميعه انه شعر نحوه باستعلاء تملق غروره المعذب فمال اليه . أما المعلم نونو فاستدرك قائلا :

ــ لماذا ترغب عن النارجيلة ؟! ان هى الا سيجارة بماء ، او دخان مكرر مطهر . وفوق ذلك فلحضرتها سلطنة ، وقرقرتها موسيقى ، وفى شكلها « سكس أبيل » .

فلم يملك عاكف نفسه من الضحك فأرسل ضحكة رفيعة ضاعت فى جلجلة ضحكة المعلم التى تصاعدت كخوار عال متصل انتهى بسعال متقطع استمر حتى انقطع نفسه ، ثم قال وأساريره ما تزال ضاحكة :

ــ أتحسب أن البلدى جاهل ؟. الم تعلم ان زوار هذا الحى من الانجليز أضعاف أضعاف أمثالهم من أولاد العرب ؟!.. ودين الحسين ورب الحسين لتسرن بحينا سرورا لا مزيد عليه ، وليكن جوارا سعيدا وأياما سعيدة رغم هتلر وموسولينى !

ــ باذن الله . ان شاء الله !

وقال المعلم بلغة الاغراء :

ــ وفينا أفندية محترمون كحضرتك !

فقال احمد بسرعة :

ــ أستغفر الله يا معلم ، أستغفر الله ...

ــ والحسين وجده .. بل ان جل أصدقائي افندية من خيرة هذا الحى . فالعمارات الجديدة جذبت أسرا طيبة كثيرة .. يوجد هنا كل ما تريد .. القهوة والراديو واللطف والنارجيلة ، بل هنا متسع لمرضية الله ومعصيته على السواء !

فضحك أحمد قائلا :

ــ أعوذ بالله من معصية الله !.

فحملق المعلم فى وجهه ، ثم قال مستدركا بصراحته الغريبة كأنه يعرفه منذ سنين طويلة لا منذ دقائق :

ــ المرضية والمغضبة كالنهار والليل لا ينفصلان ، وفوقهما مغفرة الله ورحمته .. احنبلى انت ؟!

ــ كلا .. كلا ...

ــ تعجبنى !

ــ ولكن كيف يتسع هذا الحى لمعصية الله ؟.

ــ اوه .. يا ما تحت السواهى دواهى .. فصبراً حتى يأتيك اليقين . ومع ذلك فليس الذنب بذنب حينا ، الذنب ذنب الأحياء الأخرى . لقد ضاقت بالفساد ، فصدرت ما يزيد عن حاجتها الينا ، على حد قول الراديو عن التجارة العالمية . هنا نحن نصدر المواد الأولية والأحياء الأخرى توردها مصنوعة . فمن بعض أطراف هذا الحى تصدر الخادمات فتحولها الأحياء الأخرى الى غانيات ، فى هذه الحرب قلبت الدنيا رأسا على عقب . تصور يا انسان أنى سمعت بالامس بنت بائعة فجل تدعو أختها تقول « تعالى يا دارلنج » !...

وضحك احمد بسرور ، وانبسط وانشرح صدره ، وقال وغرضه الأول أن يستدرج محدثه الى الكلام :

ـ حيكم طاهر يا معلم رغم هذا كله ، فالفساد هناك فوق ما يتصوره العقل !.

ـ اللهم احفظنا . الا انه من الحكمة الا نركب الهم انفسنا . دع الهموم واضحك واعبد الله . الدنيا دنيا الله ، والفعل فعله ، والأمر أمره ، والنهاية له . فعلام التفكير والحزن ؟ ! .. ملعون ابو الدنيا ؟.

ـ هذا شعارك المحبوب يا معلم طالما صعد الى حجرتى ترديدك له .

ـ أجل ملعون أبو الدنيا . هذا شعار الاستهانة لا اللعن أو السب . ولكن هل تستطيع ان تلعنها بالفعل كما تلعنها باللسان ؟ هل تستطيع أن تستهين بها وتضحك منها اذا افقرتك ؟ . واذا أعرتك ؟ ، واذا كربتك ؟ ، واذا أجاعتك ؟ ، صدقنى ان الدنيا كالمرأة تدبر عمن يجثو بين يديها ، وتقبل على من يضربها ويلعنها ، فسياستى مع الدنيا ومع النساء واحدة ، واتكالى من قبل ومن بعد على الله سبحانه . ورب يوم يستدبر ولما يفتح الله علينا بمليم ، ولا يدرى أحد ماذا يأكل العيال وما املك ثمن النارجيلة . فما أزال آخذا فى الغناء واللعن والتنكيت ، وكأن العيال عيال جارى والفقر راكب عدوى . ثم تفرج ، فيطلب منا عمل واقبض مقدم الأتعاب . افرح يا نونو ، اشكر الله يا نونو ، خدى يا زينب اشترى لحمة وانت يا حسن هات فجلا ، اجرى يا عائشة ابتاعى بطيخة . املأ بطنك يا نونو ، كلوا يا أبناء نونو ، واشكرن يا زوجات نونو ...

ولفت سمع أحمد قوله : « زوجات نونو » فتساءل ترى كم زوجة يضم حريم نونو ؟! ... وهل يحدثه بأسراره الداخلية بمثل

صراحته هذه عن فلسفته العامة ؟! ... ولم يجد سبيلا الى غرضه الا بالحيلة ، فسأله :

ـ كان الله فى العون ، الظاهر أن أسرتك كبيرة .

فقال الرجل ببساطة :

ـ احد عشر كوكبا ، وأربع شموس .

ثم اشار الى نفسه وكمل قائلا :

ـ وقمر واحد !.

فتردد عاكف لحظات ، ثم قال :

ـ ازواج أربع !.

ـ كما شاء الله .

ـ وان خفتم الا تعدلوا ؟ .

ـ ومن قال عنى انى ظالم ؟!

ـ وهل تستأجر تبعا لذلك بيوتا أربعة ؟ .

ـ بل شقة واحدة كشقة حضرتك ، مكونة من حجرات اربع فى كل حجرة أم وأبناؤها !.

فلاحت الدهشة فى وجه الرجل ونظر الى محدثه بانكار ، فضحك المعلم ضحكته العظيمة بفخار ، وقال :

ـ ما الداعى للدهشة يا أحمد افندى ؟.

فأتت احمد جراءة ليست من طبعه ، وسأله :

ـ لماذا لم تقنع بواحدة ؟.

ـ واحدة ؟!... أنا خطاط ، والنساء كالخط أنواع لا يغنى نوع عن نوع ، فهذه نسخ ، وتلك رقعة ، وثالثة ثلث ، ورابعة فارسى . أنا لا أوحد الا الله .

ـ ولكن أليس الأربع بأكثر مما ينبغى !

ـ ليتهن كفيننى . أنا والحمد لله أكفى مدينة من النساء ، أنا المعلم نونو والأجر على الله !

ـ وكيف تجمعهن فى شقة واحدة ! . الم تعلم بما يقال عن غيرة النساء !؟.

فهز المعلم منكبيه العريضين استهانة وبصق على الأرض ، ثم قال :

ـ هل تصدق ما يقال عن النساء وغيرتهن ومكرهن ؟! ... كل أولئك سجايا خلقها ضعف الرجل . المرأة فى الأصل عجينة طرية ، وعليك أن تشكلها كما تشاء . واعلم أنها حيوان ناقص العقل والدين فكملها بأمرين ، بالسياسة والعصا ! فما من واحدة من نسائي الا مطمئنة الى انها الأثيرة المفضلة ، وما من واحدة استوجبت أكثر من علقة واحدة ، ولن تجد مثل بيتى سعادة وهدوءا ، ولا مثل زوجاتى حشمة وتنافسا فى ارضائى . ولذلك لم يجرؤن على مغاضبتى حين علمن بأن لى خليلة !.

فصاح أحمد عاكف :

ـ خليلة !.

ـ سبحان الله ربى ! مالك تدهش لأتفه الأشياء ؟! . اقول : أن طعمية البيت لذيذة ، ولكن ما رأيك فى طعمية السوق ؟

ـ وهل ترضى زوجاتك عن خليلتك ؟.

ـ الرضا يساوى التعود على الرضـــا . وانت برجولتك تستطيع أن تحمل المرأة على ما تريد فتعمل ما تشاء ، وتؤمن بما تشاء ، والرجل القوى لا يلجأ الى الطلاق الا اذا وافق هواه .

فابتسم أحمد ، وقال :

ـ عوفيت يا معلم !.

وأخذ المعلم انفاسا متتابعة ، ثم سأل ضيفه :

ـ هل أنت متزوج يا أحمد افندى ؟.

فأجاب باقتضاب وقد امتعضت نفسه :

ـ كلا .

ــ ولا واحدة ؟!.

ــ ولا نصف واحدة .

فضحك الرجل ، وقال بصراحته المعهودة :

ــ أنت بغير شك نطاط كبير !.

فابتسم أحمد ابتسامة غامضة ، ولم يعرض لقوله بنفى أو اثبات ، فقال نونو ضاحكا :

ــ عوفيت . . . عوفيت !

وبلغ المعلم نونو من نفسه ما لم يبلغه سواه ، فأحدث فيها يقظة عنيفة . كان شيئا يناقضه قوة وصحة وابتساما ، واقبالا على الحياة ، وفوزا وسعادة ، فأعجب به أعجابا استمده من عجزه عن مجاراته ، وحقد عليه لتفوقه وسعادته ، الا أنه كان حقدا خفيفا لا يقاس بما أحدثه فى نفسه من شعور بالاستعلاء ، فغلب ميله اليه حقده عليه ، وأستثار فيه رغبة جديدة للاختلاط به وبحيه العجيب .

وعندما استأذن فى الانصراف ، قال له المعلم :

ــ عليك بقهوة الزهرة هى قهوة صــــغيرة ، ولكنها تجمع افندية هذا الحى المحترمين ، وستعرف فيها الصفوة من جيرانك ، هلا حضرت هذا المساء ؟!.

فقال أحمد وهو يودعه :

ــ آن لم يكن هذا المساء ، فمساء الغد ان شاء الله .

وسلم عليه شاكرا ، ثم مضى الى ما كان بسبيله من اكتشاف أنحاء الحى الجديد . . .

٦

وعند مساء اليوم الثانى غادر العمارة .ووجهته قهوة الزهرة . فوجدها عند مدخل شارع محمد على الكبير وهو السابق لشارع ابراهيم باشا . وكانت فى حجم الدكان ذات مدخلين أحدهما على شارع محمد على والثانى على الممر الطويل الذى يؤدى الى السكة الجديدة . وقد وجد فى الحى من امثال هذه القهوة عشرات حتى قدر قهوات الحى بمعدل قهوة لكل عشرة من السكان . واقبل على القهوة متمهلا مترددا لأنه لم يتعود ارتياد المقاهى ولا ألف جوها . وما كاد يعبر بابها حتى رأى المعلم نونو يتوسط جماعة من الأفندية بينهم واحد من أهل البلد . ورآه المعلم فنهض قائما مبتسما وقال بصوته الجهورى الخشن :

ــ أهلا وسهلا تفضل يا أحمد افندى .

فاقترب منه بقامته الطويلة النحيفة تلوح على شفتيه ابتسامة ارتباك وحياء ، مادا يده بالسلام ، فتلقاها براحته الغليظة ، ثم التفت الى الجماعة قائلا :

ــ جارنا الجديد أحمد افندى عاكف الموظف بوزارة الأشغال .

فنهض الرجال نهضة واحدة فى لطف واحترام زادا من ارتباكه وحيائه ، ومضى يسلم عليهم واحدا فواحدا والمعلم يقدمهم قائلا :

ــ سليمان بك عتة مفتش بالتعليم الاولى . سيد افندى عارف بالمساحة . كمال افندى خليل بالمساحة أيضا . الأستاذ أحمد راشد المحامى . المعلم عباس شفة من الأعيان .

وأوسعوا له مكانا بينهم ورحبوا به أيما ترحيب ، فأخذ يأنس

بهم وينفض عن نفسه الارتباك والحياء . وما لبث أن ســـاوره شعور ســعيد بالعزة والاستعلاء أحسن اخفاءه بابتسامة حلوة ونظرة حيية .

لم يخامره شك قط فى تفوقه على هؤلاء الناس من جميع الاعتبارات والوجوه ، فهو من أهل السكاكينى وهم من أبنـــاء الدراسة أو الجمالية ! ، وهو المفكر والعقل الكامل وهم لا شيء من هذا جميعه . بل خال أن وجوده بينهم تعطف جميل وتواضع محبوب ، بيد أنه تساءل متحيراً ترى كيف السبيل الى تفهيم هذه الجماعة حقيقة قدره واطلاعهم على مزاياه العقلية والثقافية؟ . . كيف يقنعهم بعظمته ويدعوهم الى احترامه ! . . لاشك أن ذلك آت لا ريب فيه اذا اتصلت المودة وتكرر اللقاء . فلا عليه من تأخيره جلسة أو اثنتين ! . وتقلب بصره بين الوجوه الجديدة يعاينها باهتمام . فهذا ســـلمان عتة المفتش رجل فى الخمسين أو يزيد ، قبيح الوجه لحد الازدراء ، قمىء ذو أحديداب ، يذكرك وجهه بالقرد فى انحدار جبهته وبروز وجنتيه واستدارة عينيه وصغرهما وكبر فكيه وفطس انفه ، الا انه حرم من خفة القرد ونشاطه ، فبدا وجهه ثقيلا جامدا متجهما كأنه سيؤخذ بجريرة قبحه ، أما أجل مافيه فمسبحة كهرمانية لعبت انامل يمناه بحباتها . ومن عجب أن صورته على قبحها لم تهج مقته ولكنها استثارت هزءه وسخريته . والمدعو سيد عارف كهل فى مثل سنه على وجه التقريب ، صغير الحجم رقيق الأعضاء ، لبشرة وجهه نعومة وفى نظرة عينيه براءة . أما كمال خليل فرجل تلوح فى عينيه الرزانة . كبير العناية بهندامه واناقته معتدل القامة يميل للبدانة ، وكان احفل القوم استقبالا للجار الجديد . ثم تحول الى أحمد راشــد باهتمام خاص ، فوجده شاباً فى ريعان الشباب ، مستدير الوجه ممتلئه كبير الرأس تكاد تخفى صفحة وجهه نظارة سوداء عميقة

السواد . أثار هذا الشاب اهتمامه لانه محام ، والمحامى رجل متعلم ، والمحاماة مهنة طمع فيها أول عهده بالآمال وعجز عنها وان لم يقر بعجزه قط . فما يزال يحقد على المحامى حقده على الأديب والعالم ، وقد اعتاد أن يشعر نحو الواحد منهم كما يشعر الرجل نحو آخر تزوج من فتاة يحبها ، فوجد فيه عدوا وتوثب للإنقضاض عليه . ولم يبق من الجماعة الا المعلم عباس شفة وهو شاب ذو سحنة زنجية توحى ملامحه الغليظة الدميمة بالدناءة والوضاعة ، وقد ارتدى جلباباً فضفاضاً وشبشباً وترك رأسه بلا غطاء فانتفش شعره المفلفل وزاده دمامة وقبحا وبدا شيئاً حقيراً لا ينقصه سوى لباس السجن ! . واحتلت الجماعة على صغرها أكثر من ثلث القهوة ، وجلس القهوجى الى صندوق الماركات على كثب منها وكأنه — لاشتراكه فى احاديثها — واحد منها ! وبينا أقبل المعلم نونو وكمال خليل أفندى على احمد عاكف أيما اقبال ثابر سليمان عتة على جموده وتجهمه كأنما نسيه نسيانا تاما ، أما الأستاذ أحمد راشد فجعل ينصت الى حديث يذيعه الراديو . . .

ووجه كمال خليل الخطاب الى عاكف قائلا :

— علمنا أن حضرتك آت من السكاكينى ؟

فحنى أحمد رأسه قائلا :

— أجل يا أستاذ . .

فسأله الرجل باهتمام :

— أحقا لم ينج من بيوت الحى الا عدد قليل ؟

فضحك أحمد قائلا :

— الحقيقة أنه لم يهدم سوى بيت واحد .

— يا للناس من الاشاعات ! . . فماذا فعلت تلك الفرقعة الهائلة التى خلناها فى بيوتنا ؟

ــ كانت فرقعة فى الهواء !

فتحول الأستاذ أحمد راشد عن الراديو ــ مما دل على انه لم يستغرق كل انتباهه ــ وسأل الجار الجديد :

ــ وهل سقط طوربيد حقا ولم ينفجر ؟

فقال أحمد وقد شعر بسرور لتحول الشاب اليه :

ــ وقيل طوربيدان ولكن أحيط بهما وعالجهما الخبراء .

فقال أحمد راشد :

ــ من لنا بذاك الخبير الكندى الذى قرأنا عنه فى انباء الحرب؟.. يقال انه انقذ أحياء كاملة فى لندن !

فتسأل سيد عارف كالمتهكم وكان من محبى الألمان :

ــ أما تزال توجد أحياء كاملة فى لندن ؟ !

فابتسم أحمد راشد وقال لعاكف :

ــ صاحبنا من انصار الألمان !

وضحك المعلم نونو قائلا مكملا قول المحامى :

ــ لأسباب طبية !

وتورد وجه سيد عارف ، ولكن المعلم نونو لم يرحمه فارسل ضحكته العظيمة مرة أخرى وقال :

ــ يحسب أن الطب الألمانى يستطيع أن يعيد الشباب !

وقطب سيد عارف جبينه مستاء ، والظاهر أنه كبر عليه أن يصارح بمثل هذا الكلام أمام رجل ما يزال جديداً فى جماعتهم ، وأدرك أحمد عاكف أن وراء ملاحظة نونو ما وراءها ، ولكنه لم يبد على وجهه أنه سمع شيئا ، وأراد نونو أن يستدرك هفوته فراح يحدث الضيف عن الحى الجديد مثنيا عليه بما يعلم حتى علق أحمد راشد على كلامه قائلا :

ــ هذا الحى هو القاهرة القديمة ، فهو بقايا متداعية حقيقة بأن تهز الخيال وتوقظ الحنان وتستثير الرثاء . فاذا نظرت اليها

بعين العقل لم تر الا قذارة تقتضينا المحافظة عليها التضحية بالبشر . وما أجدر أن نمحوها لنتيح للناس فرصة التمتع بالحياة الصحية السعيدة !

وتنبه أحمد الى ما فى قول صاحبه من جدة عسى أن تنزله من القوم منزلة المحدث الماهر والمفكر الذكى ، خاصة وأن لشهادته الحكومية ـ ليسانسيه القانون ـ مكانة يدين لها الجهلاء والسذج ، فخاف أن يمتاز عليه ، فتوثب للنضال ، وأجمع على معارضته بأى ثمن ؛ فقال :

ـ ليس القديم من البقاع مجرد قذارة ، فهو ذكرى قد تكون أجل من حقائق الواقع ، فتبعث فىالنفوس فضائل شتى!. . . ان القاهرة التى تريد أن تمحوها من الوجود هى القاهرة المعزية ذات المجد المؤثل . أين منها هذه القاهرة الجديدة المستعبدة ؟ !

ووقع هذا الكلام من نفوس القوم موقعاً حسناً قراه فىاعينهم ، فسر به ، وأراد أن يهتبل الفرصة ليعلن عن علمه فقال :

ـ معذرة يا أستاذ أحمد فقد قرأت عن تاريخنا مجلدات جعلت تعلقى به أمراً مقضياً !

فقال سيد عارف :

ـ الظاهر ان أحمد افندى من عشاق التاريخ !

فسر أحمد بما هيأه كلام الرجل من فرصة اطيب للحديث عن معارفه ، فقال مبتسما :

ـ الواقع انى لا اعشق التاريخ إكثر من غيره من فروع المعرفة ، والحقيقة انى انفقت اكثر من عشرين عاما فى تحصيل المعارف المختلفة !

فولاه القوم نظرات دلت على الاهتمام ، وفسر هو ذاك الاهتمام بانه اكبار فرقص قلبه طرباً ، ولكم ود لو يستطيع ان ينفذ الى عينى أحمد راشد خلال عويناته السود ليقراهما . وقد سأله كمال خليل :

ــ ولماذا تدرس هــذه المعارف يا « أســتاذ » ؟ .. أتحضر لشهادة ما ؟ !

وعلى قدر سروره بلقب أستاذ غص ببقية السؤال فقــال باستكبار :

ــ اية شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة ؟ !... ما الشهادة الا لعبة يستبق اليها الشبان ، أما دراستى فلا غاية لها الا العلم الحق ، وربما مهدت بها يوما الى التأليف المنتج !

فسأله أحمد راشد وعلى ثغره ابتسامة أحنقته :

ــ ما معنى أن الشهادة لعبة ؟ !

فقال أحمد كاظماً حنقه :

ــ الشهادة ليست دليل العلم !

ــ أهى دليل الجهل ؟ !

فأخذ غيظه يفور حتى أجهده أن يكتمه ، ثم استدرك قائلا :

ــ اعنى أن الشهادة هى الدليل على أن شاباً حفظ بعض المواد بضع سنين ، والعلم الحق شىء غير هذا البتة !

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسـك عن الجدل ، وكان يعطف على رأى محدثه فى الشهادات . بل انه لم يغب عنه الحدة التى يسوق بها رأيه ، مما جعله يميل الى فرض احتمــال وجود أسباب أخرى لذلك الرأى غير التى أعلنها . ورحب أحمد عاكف بصـــمته لأنه يرجح كفته عليـــه أمام « العوام » الذين يجالسونهما ! . وساد الصمت برهة ، وجعل المعلم نونو يفــرغ الشاى فى اكواب الجلوس . ودار عاكف ببصره فى المكان ، فلاحظ لأول مرة أن غلاما يجلس على كرسى جنب كمال خليل افندى ، ولم يدر أكان موجودا قبل مجيئه أم أنه جاء فى أثنـاء اشتغاله بالحديث ، ولكنه أيقن من أول وهلة أنه ابنه ، لمشابه لا تخفى عن النظر العابر ، وتركه بصره الى غيره ولكنه عاد اليه سريعا ، فقــد

استوقف انتباهه « شيء » في وجه الغلام لم يدر ما هو على وجه التحقيق . ولم يستطع أن يرمى اليه بطرفه طويلا ، فجعل يختلس من وجهه نظرات حائرة من وراء كوب الشاى وهو يحتسى منه رشفة بعد اخرى . ما الذى جذب انتباهه الى ذاك الوجه فكاد أن ينسى آثار المعركة التى خاض غمارها ؟ ! .. لعله شعور غامض بأنه رآه من قبل ، بأنه رأى هاتين العينين الواسعتين ونظرتهما الحلوة الساذجة . ومثل هذا الشعور لا يريح صاحبه حتى يتضح الغامض من الذكريات على ضوء التذكر والعرفان ، وان كان فى الغالب لا يفيد شيئا ذا بال . ولذلك الح عليه هذا السؤال « أين رأيت هذا الوجه ؟ ومتى كان ذلك ؟ » . فى السكاكينى ؟ .. فى الترام ؟ .. فى الوزارة ؟ . وردت ذاكرته على عناده والحاحه بعبث ساخر معذب ، فجعلت تدنى الى وعيه الصورة وترميه بأطياف الزمان والمكان حتى خال انه ظفر بها او كاد ، ثم لا تلبث أن تبتلع الأطياف فى ظلمة عميقة ، وتتراجع بالصورة عن الوعى المشوق ، فيعود الغموض والابهام والحيرة الى ما كانت عليه . ورغب اخيرا أن يعرض عن تذكر شيء ليست معرفته بالمطلب الهام ، ولكن الحقيقة أن ذاكرته لم تعد الشيء الوحيد الذى يحيره ويلح عليه ! ، الحقيقة أن رغبة صادقة او شعورا عميقا راح ينزع بقلبه الى العينين النجلاوين ونظرتهما الحلوة الساذجة ! ! فكلما اختلس نظرة استثار فى اعماقه حنانا ووداد وانجذابا !! وتملكته الحيرة . وتولاه الحياء ، وحذر اعين الجلوس حذر مريب مذنب !! فأطرق ممسكا بعروة الكوب وقلبه شديد الخفقان . وأبى خياله ان يفارق الغلام ، فعلق وجهه وتمثل نظرة عينيه ، ودار قلبه عطفا ووداد وهياما . وهمت عيناه ان تخونا ارادته ولكنه شد عليهما بخوف وغضب ، وتساءل متحيرا عما دهاه ! ؟ .. بيد أن المعلم نونو انتشله من خلوته النفسية المحيرة فسأله :

ـ الا تحب أن تتسلى بلعب شيء ؟

فنظر اليه كمن يتنبه من سبات بغتة وقال ببساطة :

ـ لا أدرى عن الألعاب شيئا !

فضحك كمال خليل قائلا :

ـ اليك الأستاذ أحمد راشد قرينا وشبيها فى ذلك ، فتسامرا معا ريثما نلعب ساعة . . .

ثم التفت الرجل الى ابنه ، وقال له :

ـ هلم إلى البيت يا محمد ! .

فخفق قلب عاكف ، وأرسل نحوه ناظريه ، فتبعاه وهو يسير بخطى لطيفة حتى غيبته الباب . فعاد يقول لنفسه متجسرا : « هلا ذكرت متى عرفت هذا الغلام ؟ . وكانت الجماعة قد انقسمت فريقين ، فلعب المعلم نونو وكمال خليل الدومينو ، ولعب سليمان عتة وسعيد عارف النرد . أما عباس شفة فتزحزح بكرسيه الى مجلس المعلم « القهوجى » ، وتنحى أحمد راشد ليتوسع للاعبين ، فصار جنب احمد عاكف . وشعر الرجل باقترابه فتغير شعوره العجيب وتوثب مرة أخرى للنضال والعراك . ذهب الهيام وجاء الغضب والحقد ! . . . والتفت الشاب نحوه قائلا برقة :

ـ كيف حالك يا أستاذ ؟ ! . لا تحسبن أنى قديم عهد بخان الخليلى . لقد سبقتك الى هنا بشهرين ! .

فابتسم عاكف مسرورا بتودد الآخر اليه ، وقال كالمتسائل :

ـ الغارات أيضا ؟ ! .

ـ تقريبا ! . . الواقع أن مسكننا القديم فى حلوان أخلى لأغراض عسكرية فرأيت أن انتقل الى القاهرة قريبا من مكان عملى ، ووجدت مشقة فى البحث عن شقة خالية حتى أرشدنى صديق الى هنا ! .

فقال احمد عاكف وقد أخفض صوته :

ـــ يا له من حي مزعج ! .

ــ اجل . ولكنه مسل وغريب وحافل بالفنــون والنماذج البشرية المدهشة . انظر الى القهوجي الذى يحدثه عباس شفه ، انظر الى عينيه الذاهلتين ! . . انه يزدرد نصف درهم من الافيون كل اربع ساعات ، ويمضى فى عمله كالحالم لا يفيــق او بالأحرى لا يرغب ان يفيق .

ــ وهل تطيب الحياة على هذا النحو ؟ ! .

ــ لا أدرى ! . . . المؤكد فقط ان اليقظة التى نحبها ونستزيد منها بالقهوة والشاى يمقتها هذا الرجل وكثيرون امثاله : وتراه اذا اجبر بسبب ما ، على البقاء فيها مدة ، متثائباً ، دامع العينين ، شرس الخلق ، ولا تسكن ثائرته ، ويصفو مزاجه حتى يغيب عن الوجــود ، ويهيم فى عوالم الذهول : اهى لذة عصــبية تكتسب بالعادة ؟ ! . . . ام سعادة وهمية تهرب اليها النفس من شــقاء الواقع ! . علم هذا عند المعلم نفسه ! .

انه يخاف شقاء الواقع ، كواحد من هؤلاء المدمنين ، ويهرب منه أيضاً لائذاً بعزلته وبكتبه ، فهل هو أسعد حالا منهم ؟ ! . ورغب عن الاسترسال فى ذاك الموضوع ، فسأل محدثه وقد غير لهجته :

ــ هل أستطيع أن أكب على دراستى فى مثل هذه الضوضاء ؟

ــ ولم لا ؟ . . الضوضاء قوية حقاً ، ولكن العــادة اقوى ، وسوف تألف الضوضاء حتى ليزعجك سكونها . وقد كنت بادىء الأمر ألقاها متجهما متكدراً يائسا ، اما الآن فترانى أكتب مرافعاتى وأراجع مواد القانون هادئاً مطمئناً وســط هــذا الدوى الذى لا ينقطع . ألا ترى أن العادة امضى سلاح نواجه به غير الدهر ؟ ! .

فهز الرجل راسه موافقا ، وقال وكأنه يستكثر ان ينفرد الآخر ولو بهذا القول المبتذل .

ـ ولذلك قال ابن المعتز :

ان للمكروه لذعـــة هم   فاذا دام على المـــرء هانا

فابتسم أحمد راشد ابتسامته الغامضة . وكان لا يحفظ الشعر ويحتقر الاستشهاد به فتساءل فى رفق :

ـ أأنت يا أستاذ عاكف من الذين يستشهدون بالشعر ؟

فتساءل عاكف بانكار :

ـ وماذا ترى فى ذلك ؟!

ـ لا شيء البتة الا أننى أعلم أن الناس عادة لا يعدلون بالشعر القديم شعرا حديثا ، مما يوجب أن يكثر اســـتشهادهم ـ اذا أرادوا أن يستشهدوا بشعر ـ بالقـديم ، وأنا أكره النظر الى الماضى !

ـ لا أكاد أفهم !

ـ أريد أن أقول اننى أكره الاستشهاد بالشعر لأننى أكره الرجوع الى الماضى . أريد أن أعيش فى الحال وللمستقبل وحسبى ما فى عصرنا من حكمائهم هم أهل للارشاد والتوجيه !

وكان أحمد عاكف على عكس صاحبه يحسب أن الماضى انطوى على العظمة الحقيقية ، أو أنه لم يعرف غير بعض نماذج العظمة الماضية ولا يدرى شيئا عن عظماء « عصرنا » فثارت ثائرته وقال منكرا :

ـ وفيم انكار عظمة الغابرين وفيهم الأنبياء والرسل !

ـ لعصرنا رسله كذلك ! !

وأوشك الرجل أن يعلن دهشته ولكنه كان أحرص من أن يبدى ـ فى حديث ـ دهشته الا اذا أوجب ذلك جهل محدثه ـ لا علمه طبعا ـ ! فتساءل فى هدوء :

ـ ومن رسل العصر الحاضر ؟ !

ـ أضرب مثلا بهذين العبقريين : فرويد وكارل ماركس !

وشعر بيد تضغط على عنقه فتكتم أنفاسه ! ، بل شعر بجرح

عميق فى كرامته ، لأنه لم يسمع قبل الآن بهذين الاسمين ! واضمر لصاحبه غضباً جنونياً . ولكن لم يسعه اظهار جهله فهز راسه هزة العارف العالم وتساءل :

ـ أتراهما يضارعان العباقرة الأولين ؟ !

وكان سرور المجامى الشاب بعثوره على انسان مثقف لا يعادله سرور فرغب فى المناظرة رغبة قوية ، وادنى كرسيه الى كرسى صاحبه حتى لم يعد يفصل بينهما شيء وقال بصوت لا يسمعه سواه :

ـ لقد هيأت فلسفة فرويد للفرد فرص النجاة من امراض الحياة الجنسية التى تلعب فى حياتنا الدور الجوهرى . ونهج له كارل ماركس سبل التحرر من الشقاء الاجتماعى ؛ اليس كذلك ؟

وخفق فؤاد الكهل الحاقد الغاضب ، ولم يدر هذه المرة كيف يعارض فضلا عن أن ينتصر ، فراغ عن مواجهته الى التحايل عليه فقال بهدوء وصدره يغلى :

ـ مهلا . . مهلا ياأستاذ ، لقد كنا مثلك متحمسين ، ولكن تقـدم العمر ومداومة الفكر حقيقان بالزام الانسـان حداً من الاعتدال .

فقال أحمد راشد بلهجة لم تخل من حدة :

ـ ولكنى أحسن التفكير فيما أطلع عليه ؟

ـ بغير شك الا أنك شاب وستكتسب بالعمر حكمة حقيقية ، ألم تسمعهم يقولون « أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة ! »

ـ مثل قديم أيضا !

ـ وحكيم !

ـ لا حكمة فى الماضى ! !

ـ رباه !

ـ لو وجدت فى الماضى حكمة حقيقية لما صار ماضيا قط !

ـ ودينننا ؟ !

فرفع الشاب حاجبيه دهشة ، ولو استطاع عاكف أن يستشف ما وراء النظارة السوداء لرأى نظرة احتقار تورثه الجنون . وغمغم الشاب

ــ ياللسذاجة !

وكان عاكف قرأ فلسفة اخوان الصفاء الدينية فرغب أن يلخصها فى كلمات لمحدثه البغيض ليدفع عن نفسه تهمة الأخذ برأى العوام فى الدين من ناحية وليغمض على صاحبه كما غمض عليه ، فقال :

ــ ان فى الدين ظاهراً حسيا للعوام وجوهراً عقلياً للمفكرين ، فهناك حقائق لا يضيق المثقف بالإيمان بها مثل الله والناموس الالهى والعقل الفعال !

فهز الشاب منكبيه استهانة وقال :

ــ ان العلماء المعاصرين يعلمون بما فى الذرة من عناصر ، وبما وراء عالمنا الشمسى من ملايين العوالم ، فأين الله ؟ وما أساطير الديانات ؟ ! وما جدوى التفكير فى مسائل لا يمكن أن تحل ، وبين أيدينا مسائل لا حصر لها يمكن أن تحل وينبغى أن نجد لها حلا ؟ !

ثم ابتسم الشاب ابتسامة سريعة وقال وقد غير لهجته المتدفقة :

ــ لا يجوز أن نشرك ثالثا من جماعتنا فى هذا الحديث ! !

ــ طبعاً . . . طبعا يا أستاذ ، ولكن لا تنس أن أول العلم كفر دائما !!

وقطع عليهما الحديث ارتفاع صوت سليمان عتة بالغضب . والظاهر أن ملاعبه سيد عارف أغاظه بهذره فتهيج القرد وصاح به :

ــ ان الله الذى سلبك قواك عادل حكيم !

وذكر أحمد عاكف ما قيل عن سيد عارف منذ ساعة فنظر

الى أحمد راشد مبتسما فرد الشاب على ابتسامته ابتسامة ذات معنى وقال :

ـ صاحبنا يجرب الأقراص ويعقد بها رجاء صادقا !

ولفت انتباههما جماعة من لابسي الجلابيب أحاطوا بمائدة عند مدخل القهوة ومضى كل منهم يعد رزمة ضخمة من الأوراق المالية ، وكان منظرا يستدعي الدهشة لما فيه من أوجه التناقض ، فقال أحمد عاكف :

ـ لعلهم من أغنياء الحرب !

فقال الآخر موافقا :

ـ سيهجرون طبقة ويلحقون بطبقة اخرى !

ـ ان الحرب ترفع كثيرين من السفلة !

ـ السفلة ! .. هذا صحيح ولكن لايوجد حد فاصل بين السفلة والطبقة العالية ، فأرستقراطيو اليوم كانوا سفلة الامس . الا تعلم أن رعاع الغزاة انتهبوا فى الماضي اراضينا بحكم الغزو ؟ .. وها هم أولاء يكونون طبقة عالية ممتعة بالجاه والسؤدد والامتيازات التى لا حصر لها .

ولأول مرة يميل الى موافقته دون نزوع الى المعارضة ، فقال :

ـ هذا رأيى ! .

فاستدرك الشاب قائلا :

ـ ويرى كارل ماركس أن العمال سيظفرون بالنصر النهائى فيصير العالم طبقة واحدة ممتعة بالضرورات الحيوية والكمالات الانسانية ، وهذه هى الاشتراكية ! .

ولزما الصمت كأنما أجهدهما التعب ، فجعل عاكف يفكر متألما : يالها من آراء ! .. فرويد وماركس، الذرات وملايين العوالم ، الاشتراكية ! واختلس منه نظرات ملتهبة بالحقد والكراهية والحنق . فما كان يظن قط انه سيعثر فى خان الخليلى على من يتحدى

ثقافته ، ويجبره على التسليم بأن فوق كل ذى علم عليما ! . أفلا يظفر بالراحة فى هذه الدنيا ؟! .

وعند ذاك خلع الشاب نظارته ليمسح عينيه بمنديله فاكتشف أن عينه اليسرى زجاجية ! . ودهش أول وهلة ، ثم غمره شعور بالارتياح خبيث ، لأنه وجد فى عوره وجها للاستعلاء عليه أيا كان هذا الوجه ! . .

ولبث فترة قصيرة ، ثم غادر القهوة عائداً الى البيت هائج النفس ، ثائر الكرامة . ولحسن حظه ذكر فجأة الغلام !. . وسرعان ما تغيرت حاله ورفت على حواسه الملتهبة نسمة رطيبة أذهبت رياح الحقد والغضب . وتمثلت لخياله العينان النجلاوان ، والنظرة الفاتنة ، فتنهد متحيراً ، وهمس لفؤاده « ســـأراه حتما مرة اخرى ! » .

٧

ونهض فى الصباح المبكر نشيطاً ، ففتح النافذة وأطل منها على الحى العجيب فوجد الحى يتمطى مستيقظا فالدكاكين ترفع أبوابها ونوافذ الشقق تفتح على مصاريعها وباعة اللبن والصحف ينطلقون الى الطرق المتشابكة منادين بغير انقطاع . وجذب انتباهه قدوم جماعات من « مشايخ » المعاهد الأولية الغلمان يسيرون زرافات نحو معهدهم فى جبب سوداء وعمم بيضاء فذكروه « بالفشار » فى المقلى وانصت اليهم مستلذا وهم يرتلون معا « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً » وجعل رأسه يروح معهم ويجيء حتى ختموها « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين

أعد لهم عذابا أليما » فذكر لتوه أحمد راشد المحامى فهو من الذين أعد لهم العذاب الأليم ! .. وانه به لحقيق !

وعند عصر ذلك اليوم وقد جلس وأمه فى الصالة يشربان القهوة قالت له المرأة بسرور :

– زارنى اليوم نساء الحى من الجيران للترحيب بى والتعرف الى كما جرت العادة ..

فابتسم أحمد الذى يقدر سرور امه بمعرفة الناس وولعها بالزيارة وقال لها :

– هنيئا لك !

فضحكت وهى تتناول منه سيجارة ، ثم أشعلتها وهى تقول :

– فيهن نساء لطيفات سيملأن غربتنا حرارة وحبوراً !

– لعلك أن تنسى بهن الصديقات القديمات من نساء السكاكينى والظاهر والعباسية !

فكبر عليها قوله وصاحت به :

– أينسى الكريم أحبابه ؟ ! ... هن روحى وحياتى ، ولن يفرق بيننا البعد مهما امتد وطال .

– ونساء الحى من أى نوع هن ؟ !

فقالت المرأة باهتمام وبلهجة من ينبرى للدفاع :

– لسن من السفلة ولا من الغجر كما ظننت ، وبعض الظن اثم . وكان بين اللائى زرننى زوج موظف بالمساحة يدعى كمال خليل ، وزوج آخر بالمساحة أيضاً يدعى سيد عارف ، وجاءتنى أيضاً زوج صاحب قهوة الزهرة وشقيقته ، والزوجة امرأة طيبة القلب ، أما شقيقة زوجها فينطق فى عينيها المكر والشر ، وان سترت ذلك كله بغلالة شفافة من الرقة والابتسام !

– داريها هى وأمثالها باللطف ، فانه ان يبلغها شىء عنك من وراء وراء كشفت وجهها علينا !

ــ لاسمح الله يابنى . اما أعجب ما صادفت اليوم فهو أن الست توحيدة حرم كمال افندى خليل ــ وهى جسيمة كالمحمل أو كأمك ايام شبابها ــ صديقة قديمة ! .. عرفتها فى دكان بهلة العطار بالتربيعة ..

ــ وأنتما تسعيان معاً الى وصفات السمن !!

ــ هو ذلك .. وتبادلنا التحية هناك مرات ، وكننا لم نتقدم وراء ذلك فى سبيل التعارف !

ــ ها هى ذى الأيام تعارف بينكما !

ثم ذكر أن هذه السيدة أم الفلام محمد ! .. ولم يكن ذكره فى نهاره الا حين جاء ذكر أمه ، فعجب كيف نسيه طوال ذلك الزمن ، وقد كان قبل عشرين ساعة ملء القلب والخيال ! . ولكن امه لم تدعه لأفكاره فضحكت ضحكة عالية وقالت :

ــ وأخذنا فى كذب النساء طويلا وكذب النساء لذيذ ، فهذه أبوها فقيه كبير يتبارك الناس بتقبيل يديه ، وتلك كريمة تاجر واسع الثروة ، والثالثة قريبة مدير حسابات الداخلية ، والرابعة مرضت مرضاً انفقت على علاجه عشرات الجنيهات !

وضحكا معاً . ثم سألها الكهل وما زال ضاحكا :

ــ وكيف كان كذبك ؟ !

فقالت وهى تحدجه بنظرة ضاحكة :

ــ يسيراً لاتثريب عليه يوم الحساب . فأبوك أحيل على المعاش منذ زمن يسير ، وكان مفتشاً بالأوقاف . وأما أبى ــ جدك فكان تاجراً . وانت يا نور عينى رئيس قلم بوزارة الأشغال ، ولك من العمر اثنان وثلاثون عاما لا غير فتذكر !

ــ ياخبر !

ــ لا فائدة من الاعتراض ، واياك وتكذيب الكذب ! . وأنا أكبرك بثلاثة عشر عاما . فأنا فى الخامسة والأربعين .

ـ هل ولدتنى وأنت طفلة ؟ !
ـ الأنثى تلد فى الثانية عشرة من عمرها ؟
ـ هذه أخت وليست بأم .
ـ صدقت فالولد الأكبر أخو والديه . أما أخوك فوكيل بنك مصر بأسيوط !
فهز الرجل رأسه عجباً وقال :
ـ كيف تؤاتيكن الجرأة على تزييف حقائق لن تخفى طويلا عن أعين الجار ، ولا بد أن تنكشف حقيقتها يوما ما ؟ !
فقالت ببساطة :
ـ غداً تؤلف العشرة بين قلوبنا ونعرف الحقيقة رويداً رويداً بلا سـخرية ولا تعيير . ولو اننى قلت الحقيقة بغير زيادة ، لما صدقتنى كما لا يصدقننى الآن ، ولانتقصن من رأس المال بدلا من أن ينتقصن من الفائدة !
ـ يا لكن من كاذبات لا يشق لهن غبار !
ـ وماذا عليـك من هذا ؟ ! . طوبى لكذب غايتـه الرفعـة والفخر . ان كذب النساء بلسم لجراح دامية . متعك الله بعروس تعاطيك أجمل الكذب وأشهاه !
فضحك الكهل على امتعاضه لذكر العروس وكرر قوله السابق قائلا :
ـ يا لكن من كاذبات لا يشق لهن غبار !
فلحظته غامزة بعينيها وسألته :
ـ وأنتم يا بنى ألا تكذبون ؟
وصمت قليلا ، لا لأن الجواب غائب ، ولكن لأنه تفكر قليلا فيما تنوء به حياته من ألوان الكذب ، ثم قال :
ـ نكذب ، ولكن فى أمور أجل !
ـ عسى أن يكون تافهاً عندنا ما هو جليل عندكم ، ولكن هل تعد العمر والفخر بالجاه والسؤدد أموراً تافهة ؟ !

ـ كذب الرجال جليل كالرجوله نفسها ! .. فأين أنتن من كذب التجار والساسة ورجال الدين ؟ ! .. كذب الرجال محور هذه الحياة الجليلة التى تشاهدين آثارها فى معترك الحكومة والبرلمان والمصانع والمعاهد ، بل هو محور هذه الحرب الهائلة التى رمت بنا الى هذا الحى الغريب ... !

وعلم أنها لم تفهم من قوله الا أقله ، فسر لذلك سروراً مضاعفاً . ثم ذكر أمراً فسألها :

ـ ألم تزرك زوجة من حريم المعلم نونو ؟

ـ ملعون أبو الدنيا ؟ ! .. لقد حدثتنى بسيرته طويلا ، ولكن الرجل يحرم على أزواجه الخروج أو النظر من النوافذ ، وربما انقضى العام فى أثر العام وهن قابعات فى دارهن راضيات قانعات !

ـ حقيق بمن يتغنى بلعن الدنيا الا يأمن اليها !

ـ والله يا بنى المرأة مظلومة كالدنيا ، ولكن ما علينا من هذا فهل سمعت بشخص يدعى سليمان عتة ؟

ـ المفتش ؟ !

ـ تدعوه توحيدة هانم بالقرد !

ـ ولعل قولها هذا أول صدق تقع فيه !

ـ وقالت عنه ضاحكة انه يفكر فى الزواج !

ـ وأية فتاة ترضى بهذا القرد العجوز بعلا ؟!

ـ كثيرات لا حصر لهن ، فالمال نصف الجمال على الأقل ، فالفتاة هى التى تتصيده وتجد فى طلبه حتى لا يفوتها الزواج منه قبل الخامسة والخمسين .

فسألها ضاحكا :

ـ وهل ينتهى الرجل عند هذه السن ؟

ـ لا قدر الله ، ولكنها لا تستحق فى معاشه اذا تزوجت منه بعدها .

ـ فهى ترغب فى الزواج منه وتراهن على موته ! . فمن عسى أن تكون هذه العروسة الحكيمة ؟

ـ قالت الست توحيدة هانم انها كريمة يوسف بهلة العطار ، وانها الجمال عينه ، فقد جمعت الحسن من طرفيــه : الطبيعى والصــناعى !

فتمثل أحمد عاكف صورة القرد العجوز باشمئزاز ، وعجبه كيف يحظى بما لا يطمع هو فيه من اقبال الحسان !

ألم تنبذ يده امرأة ـ ليست بحال الجمال عينه ـ قائلة : ان عمره كبير ؟ ! . وأراد أن يتخيل صورة كريمة العطار ، فذكر فجأة وهو لا يدرى السمراء الحسناء ذات العينين النجلاوين التى التقى بها فى الردهة الخارجية ! فانقبض صدره وسأل أمه :

ـ هل يقيم العطار فى عمارتنا ؟

فقالت :

ـ كلا بل يسكن فى بيت القاضى !

فتنهد ارتياحا ! . ثم تساءل ترى لأى أسرة تنتمى الفتاة ؟ وما لبث أن كتم صيحة كادت تفلت من بين شــفتيه ! ! . . فقد ذكر فى تلك اللحظة عينى الغلام محمد ، وذكر أين رآهما اول مرة فى وجه السمراء الحسناء فى الردهة الخارجية ! . . وهذا ما حاول تذكره فعز عليه ساعتئذ وأضناه ، فالغلام شقيق الفتاة بغير شك ! وخفق فؤاده ، ولكنه شعر بارتياح عميق وسرور لذيذ وانجابت وساوسه وحيرته وخجله ! . وكان سروره باكتشافه من القوة بحيث لم يعد يلقى بالا الى حديث أمه ! . فما زالت تتكلم وما زال يتيه فى أحلامه . . .

٨

وعندما أتى المساء مضى الى الزهرة . ولم يمض دون تردد ، فان ارتياد المقهى حدث جديد عليه لم يتعوده ولم يألفه . وكان حرصه على عزلته الثقافية يعادل تباهيه بها . فلولا ما يدعوه الى هناك من مصاولة احمد راشد والظهور على الآخرين ما وجد خروجه على عزلته أمرا ميسورا . ولم يلتق فى الزهرة بأحمد راشد ؛ وسأل عنه فقيل له انه كثيرا ما يمنعه العمل عن الحضور الى القهوة . على أن الجلسة لم تصر ــ رغم ذلك ــ فاترة ، وأحياها المعلم نونو والمعلم زفتة « القهوجى » بظرفهما الجميل . وتكلم أحمد عاكف كثيرا وضحك طويلا ، وقد أخذ يستهويه الاجتماع بالناس أو بالظرفاء من الناس خاصة . ويجد فى الأنس بهم ما يجد التعب المنهوك أسلم جنبه للرقاد . وعاد الى البيت فى العاشرة ، فعكف على المطالعة زهاء الساعتين وأطياف الحياة الجديدة تتراقص أمام عينيه بين السطور ــ وما عهد قط الاستغراق فى القراءة ــ ثم نهض الى فراشه وراح فى النوم . ولم يدر أطال به النوم أم قصر . ولكنه استيقظ على صوت منكر ، لم يتنبه الى حقيقته فى الثانية الأولى من استيقاظه ، ثم أدرك كنهه فخفق قلبه خفقة فزعة ، وقفز الى أرض الحجرة بسرعة جنونية ، وتحسس شبشبه بقدميه فوضعهما فيه ثم اندفع الى الصالة الخارجية فالتقى بشبحى والديه تتقدمهما الخادم الصغيرة . وسأله ابوه بصوت متهدج :

ــ هل تعرف الطريق الى المخبأ ؟

فأجابت الخادم عنه بسرعة :

ـ أنا اعرفه يا سيدى .

وسبقت الأسرة الى الباب فى ظلمة حالكة ، وخرجوا جميعا الى الردهة الخارجية متحسسين الحائط الى السلم الحلزونى . وهناك بلغت آذانهم جلبة اليقظة التى شملت الدور جميعاً ، ومزق السكون صفقات الأبواب وهى تغلق ، ووقع أقدام المهرولين على السلم ، وتصاعد أصواتهم بالكلام والضحكات العصبية . وهبطت القافلة مهتدية الى الدرابزين تخوض بحار الظلمات ، ويسوقها الخوف والفزع ، وفى الطريق أرشدتهم أشباح السكان وأصواتهم الى الطريق فلم يحتاجوا الى الاستدلال بخادمهم . وكانت الطرقات المسقوفة تبدو كداخل البيوت ظلمة ، اما الأخر فيخفف شعاع النجوم الشاحب من شدة ظلمتها . وعاد بهم الخوف الى ذكريات تلك الليلة الجهنمية فانقبضت صدورهم وجعلوا يقلبون وجوههم فى السماء كلما لاحت لهم . ثم بلغوا مدخل المخبأ فى تيار من القوم غير منقطع ، وهبطوا مع سلمه فى باطن الأرض حتى وجدوا أنفسهم فى مكان متسع بهر أعينهم ـ المخدرة بالظلام ـ بمصابيحه الكهربائية القوية ، وكان سقفه وجدرانه تترك فى نفس المشاهد اثرا عميقا بصلابتها وشدة مراسها ، وقد التصقت بجوانبه مقاعد خشبية مستطيلة ، وبعثرت فى وسطه كثبان من الرمل . ومضت الأسرة الى أحد الأركان واتخذت مجالسها وتفرق القاعدون الى الأركان والمقاعد ، ووقف خلق كثيرون وسط المخبأ ممن ضاقت عنهم المقاعد . وشاع الخوف أول الأمر فلم ينفع الاجتماع ولا النور ولا صلابة الجدران فى تلطيف حدته ، ومضت فترة انتظار مؤلمة نطقت فيها الأعين بعذاب الصدور . ونظر ابوه فى ساعته ثم غمغم قائلا :

ـ الساعة الثانية صباحا ! . . نفس ميعاد الليلة الفظيعة .

وكان أحمد يعانى ما يعانيه أبوه وأكثر ؛ ولكنه قال بلهجة هادئة ما استطاع :

ــ كان الضرب خطأ فلن يتكرر أن شاء الله !

ومضت الدقائق متتابعة والسكون مطبق ، وطالت فترة السكون فأخذ الأمن يتسرب الى الجوانب الخافقة ، وشاع الهمس والكلام ، وعلا ضحك كثير ، ثم طمأن القوم بعضهم بعضا . ونظر أحمد فى الوجوه القريبة منه فوجدها غريبة وقد استبقوا الى الحديث فى جلبة . قال رجل منهم :

ــ لن يبلغ الأذى مهبط رأس الحسين .

فقال له آخر :

ــ قل أن شاء الله !

ــ كل شىء بمشيئة الله .

ــ وهتلر ينطوى على احترام عميق للبقاع الاسلامية !

ــ بل يقال انه يبطن الايمان بالاسلام !

ــ ليس هذا عليه ببعيد ، ألم يقل الشيخ لبيب التقى النقى أنه رأى فيما يرى النائم على بن أبى طالب رضى الله عنه يقلده سيف الاسلام ! !

ــ فكيف ضربت القاهرة فى منتصف هذا الشهر ؟ !

ــ ضربت السكاكينى وهو حى غالبية سكانه من اليهود ! !

ــ ترى ماذا ينتظر الأمم الاسلامية على يديه ؟ !

ــ سوف يعيد ــ بعد فروغه من الحرب ــ الى الاسلام مجده الأول ، وينشىء من الأمم الاسلامية اتحاداً كبيراً ، ثم يوثق بينه وبين ألمانيا بعهود الصداقة والتحالف !

ــ لذلك يؤيده الله فى حروبه .

ـ وما كان الله لينصره لولا جميل طويته ، وانما لكل امرىء ما نوى !

استمع الكهل الى المتحاورين بلذة وانكار ، وكانت غالبيتهم من اهل البلد ولكنه لم يكن يتصور ان تبلغ بهم سذاجة التفكير هذا الحد من الأوهام ، أو أن تؤثر فيهم الدعاية ـ ان كان هناك دعاية ـ هذا التأثير المضحك . ولكنه لم ينكر على حوارهم لذته وفكاهته غير المقصودة ، وما كان ليحرم نفسه من متعته لولا ان وقع بصره اتفاقا على غريمه الأستاذ أحمد راشد متمشيا على كثب منه ، فنهض اليه فورا فتصافحا ثم قال له عاكف :

ـ لم نرك اليوم .

فقال الشاب ذو المنظار الأسود :

ـ شغلت بدراسة قضية .

واستثار القول غيرته فلم ينبس بكلمة وراح المحامى يقول ملقيا نظرة شاملة على ما حوله :

ـ رأيت جميع الاخوان هنا معنا الا المعلم نونو طبعا .

فابتسم عاكف قائلا :

ـ أعجب به من رجل غريب الأطوار !

ـ يتلخص فى الكلمات الآتية « ملعون أبو الدنيا » .

ـ هذا شعاره أو قل انه نشيده .

ـ ما كان أجدره أن يعيى الموت لولا قضاء الهرم .

ـ هو الايمان !

ـ انه يشعر بالله شعورا عميقا ، ويحسبه فى كل مكان يحله ويتوكل عليه بكل قلبه ، ويطمئن كل الاطمئنان الى انه لن يتخلى عنه ، وتراه يلم بالمعصية دون أدنى شك فى غفرانه ورحمته .

فتنهد عاكف وقال :

ـ هذا رجل سعيد كما علمت :

فهز الشاب رأسه بما يشبه الاحتقار وقال :

ـــ سعادة عجماوات . سعادة الجهل والايمان الأعمى . السعادة التى يعيش الطغاة بفضل تملكها رقاب البلهاء . ومن المضحك أن تجد هذه السعادة الحمقاء من يأسى عليها بين الحكماء ! ! فتش عن السعادة الحقة على ضوء العلم والعرفان . فاذا وجدت مكانها قلقا وسخطا وشقاء فتلك آيات الحياة الانسانية الفاضلة الحقيقة بتطهير المجتمع من نقائصه والنفس من أوهامها ، الحقيقة ببلوغ السعادة الحقة ، ان سعادة نونو لا تفضل شقاءنا ـــ نحن دعاة العلم والاصلاح ـــ الا كما يمكن أن يفضل الموت براحته المزعومة نعمة الحياة بمتاعبها وكفاحها !

ولم يجد عاكف من نفسه لتوتر أعصابه بجو المخبأ قوة يتوثب بها للنضال والمعارضة فقال مبتسما :

ـــ الا ترى انه ينعم الآن بفضل سعادته العمياء برقاد لذيذ بينما نشقى نحن جميعا برطوبة الليل !

فضحك الشاب وكان أملك لجنانه من الآخر وقال :

ـــ لا شك أنه ينعم الآن برقاد لذيذ لا شريك له فيه الا معشوقة الأزواج !

فبدا على وجه عاكف ما يشهد بأنه لم يفهم شيئا ، فابتسم المحامى واستدرك قائلا :

ـــ ألم تسمع عنها بعد ؟! ... انها امرأة هائلة ، وظيفتها الرسمية «زوج عباس شفة» . أما تذكره ... أما بيتها فيستقبل كل مساء جمهرة أرباب البيوت بهذا الحى ، فسماها المعلم زفتة القهوجى « معشوقة الأزواج » !

فلاح فى وجه عاكف الاهتمام الذى يثيره هذا الحديث ، وتساءل :

ـــ أتعنى ... ؟!

ـ نعم .

ـ وعباس شفة ؟ !

ـ زوج رسمى ، زوج وجد فى الزوجية مهنة ومرتزقا !

ـ ألذلك تحتفون به على حقارته وقبحه ؟

ـ انه عزيز ذو مقام عظيم !!

وتمثل عاكف وجه الرجل الدنىء وشعره المنفوش باحتقار شديد ، وتحرك فى تلك اللحظة الشاب فتحرك معه ، يسيران فى بطء شديد مستعرضين الجلوس والواقفين ، حتى رأيا سيد عارف جالسا الى جوار حسناء نصف واضعة على حجرها طفلا ، فغمغم الشاب :

ـ صاحبنا سيد عارف وحرمه ..

فسأله عاكف باهتمام واستحياء :

ـ حرمه ؟! .. وكيف تزوج ؟!

ـ كما يتزوج الناس ، وهو رجل عادى لولا حالة طارئة غير ميئوس منها ، ورجاؤه كبير فى الأقراص الألمانية ، ولن ...

ولم يتم أحمد راشد كلامه فقد قطعه دوى طلقة شديدة ، تابعتها طلقات متقاربة . وارتجف قلب عاكف وخال أن جسمه كله ارتجف فخاف أن يكون غريمه اطلع على رجفته . وساد سكون عميق وحارت فى العيون نظرة قلق وخوف . وقال اناس : « هذه طلقات مدافع مضادة » يطمئنون انفسهم ويطمئنون الآخرين ، ولكن الكلام ـ أيا كانت مقاصده ـ أحدث فى النفوس القلقة المنصتة جزعا وحنقا . وجاء رجل من الخارج مهرولا وقال وهو يلهث : « السماء ملأى بالأنوار الكاشفة ! » فاشتد الخوف بالأفئدة . ثم سمعت طلقات أخرى بعيدة استمرت فترة وجيزة قبل أن يطبق السكون مرة أخرى ، وطالت فترة السكون وامتدت فعادت الطمأنينة الى النفوس ، وتعالى الهمس ثم ضج المكان بالكلام :

ـ لن تعاد مأساة الضرب الأعمى . .

ـ لقد اعتذر راديو برلين عن غارة منتصف سبتمبر !

ـ كانت غارة ايطالية فالألمان لا يخطئون .

ـ فابتسم أحمد راشد ـ استطاع أن يبتسم ثانيا ـ وقال لصاحبه :

ـ ارأيت الى هؤلاء المتعصبين للألمان ؟! . . . وأنت ؟! . . . هل انت كهؤلاء ؟

وكان عاكف يتلذذ ـ كعادته ـ بمشاركته المغلوبين عواطفهم ، ولما كانت الغلبة للألمان فى ذاك الوقت فقد قال بغير تردد :

ـ كلا . . . انى مع الحلفاء قلبا وقالبا . وأنت ؟ !

فسوى المنظار الأسود على عينيه وقال :

ـ لى أمل واحد : أن ينتصر الروس ويحرروا الدنيـــا من الأغلال والأوهام !

وابتعدا قليلا عن جماعة المتحدثين فرأيا فى نهاية الجناح الآخر من المخبأ على يمين الداخل ـ صاحبهما كمال خليل واسرته !. ورمى عاكف نحوه بناظريه باهتمام شديد فرأى سيدة مفرطة فى السمن ، والغلام محمد فى بيچامة ، والفتاة السمراء ذات العينين النجلاوين الساذجتين ، رأى جهرة ما جعله الشوق يلتمسه خطأ فى غير موضعه ، وجاءت الحقيقة مطابقـــة لما سر باكتشافه منذ ساعات معدودات . ولم يسعه ادامة النظر فرد الطرف متمليا ممتلئا . ثم سمع أحمد راشد يقول بصوت خافت :

ـ كمال خليل وأسرته !

فسأله :

ـ أهذه الفتاة كريمته ؟

ـ نعم . له محمد ونوال وفتاة كبرى متزوجة !

واختلس منها نظرات ليملأ عينيه من النظرة الساذجة تقطر خفة . وكانت ملتفة فى معطف شتوى وقد أرسلت شعرها الأسود فى ضفيرة غليظة . ومضت تتثاءب مرسلة نظرة ناعسة . ورآهما كمال خليل فأقبل نحوهما مبتسما ووقفوا معا يتحدثون . وأدرك عاكف أن اقبال الرجل عليهم لا بد ملفت أعين أسرته اليهم وانه لا يبعد أن تتفحصه العينان النجلاوان - ان لم تكونا تفحصتاه بالفعل - فى جلبابه الفضفاض ، وطاقيته البيضاء ، فتورد وجهه حياء وقلقا وتساءل ترى هل تذكره ؟.. ولم يطل المطال بوقوفهم معا فانطلقت صفارة الأمان ودبت فى المخبأ حركة عامة شاملة ، فحيا عاكف صاحبيه ومضى الى والديه ، وانتهره ابوه قائلا بحدة :

- أتتخلى عنا ساعة الضرب وتهرع نحونا عند الأمان !

فقالت أمه ضاحكة :

- الله معنا فى جميع الأوقات .

واندسوا فى التيار المتجه نحو الباب يسيرون فى بطء شديد حتى ارتقوا السلم الى الطريق ، وعادوا الى عماراتهم وقد أضاء الطرقات ما انبعث اليها من نور النوافذ ، وصعدوا الى شقتهم فى جمع من السكان عرف احمد صوت كمال خليل بين أصواتهم . وسارع الرجل الى فراشه يراود النوم كرة اخرى ، ولكن فرقت بينهما طويلا صورة ذات العينين النجلاوين والنظرة الحلوة ...

٩

واقترب رمضان فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيام قلائل . ولكن رمضان لا يأتى على غرة أبدا ، وتسبقه عادة أهبة تليق بمكانته المقدسة ، ولم تغفل أم أحمد عن ذلك — وكانت فى الواقع المسئولة الأولى عن جلال الشهر وجماله — فجعلت منه يوماً حديث الأسرة قائلة : انه شهر له حقوقه كما له واجباته. وكان قولها موجهاً لأحمد فأدرك مغزاه وقال مدافعاً عن نفسه :

— رمضان له حقوقه ما فى ذلك من شك ولكن الحرب ضرورة قاسية جارت على جميع الحقوق !

فقالت الأم بلهجة دلت على عدم الارتياح :

— لاقطع الله لنا من عادة !

فاستيقظ بخله وقال بشىء من الحدة :

— ليمض رمضان كما مضى غيره من الشهور ، وسنعوض ما فاتنا منه فيما يقبل من أيام السلم !

— والنقل والكنافة والقطائف ! ؟

ووقعت هذه الأسـماء من نفسه موقعاً ساحراً — على استيائه — لالاشتهائها فحسب ، ولكن لما دعته من ذكريات الشهر المحبوب وعهود الصبا خاصة ، بيد أن الذكريات الحنونة لم تغن عن حقيقة الغلاء الواقعة ولم تلطف من حدة حرصه ، فقال بلهجة حازمة رغم تحرك الحنان فى قلبه :

— لندع الكماليات فى ظروفنا الحاضرة القاسية ولندع الله الكريم أن يعيننا على ضروريات الحياة .

واصغى الوالد باهتمـــام الى أقوال ابنه وان تظاهر بعدم الاكتراث ، ومال الى تأييد الأم فيما تقول ولكن شجاعته لم تؤاته ، فلما صاغ الابن رأيه فى تلك اللهجة الحازمة ، قال الوالد بصوت هادىء :

ــ ولا تغلل يدك الى عنقك ولا تبسطها كل البسط .

وأدرك أحمد أن أباه من حزب أمه ، ولم يسعه أن يواجهه بمثل صراحته فى مخاطبة أمه ؛ لتعوده مهابته منذ نعومة أظافره ، وأشفق ــ كما أشفق دائما ــ من أن يعرض عن يده اذا امتدت له يطلب بعد أن صار أكبر اعتماده عليه ، فسكت مرتبكا متحيراً حتى قال عاكف افندى أحمد الأب :

ــ حسبنا قليلا من الصنوبر والزبيب لضرورتهما فى الحشو ، ونصف لفة قمر الدين لتغيير الريق ، ولنقنع من الكنافة بمرة واحدة ، ومن القطائف ــ وهذه لاتقلى فى السمن ــ بمرتين ، وليس هذا عليك بكثير .

فهاله الأمر ، وأيقن أنه سينفق فى هذا الشهر ما اعتاد توفيره كل شهر من النقود القلائل ، ربما أجبر على سحب مبلغ آخر من صندوق التوفير ، الأمر الذى ينغص عليه صفوه ، ثم ذكر شيئاً آخر لا يقل خطورة عن الكنافة والنقل فقال ؟

ــ واللحوم ؟!

فقالت أمه بما لها عليه من دالة :

ــ سمحت الحكومة ببيع اللحوم طوال الشهر الكريم ، وما ذلك الا لأن قطعة اللحم حقيقة بأن تسند قلب الصائم المتهالك !

فقال أحمد معترضاً :

ــ ولكن ميزانيتنا أصغر من أن تقوم بابتياع رطل لحم كل يوم مع الحاجيات الأخرى !

فقال الوالد مستعينا بقليل من الدهاء :

ــ صدقت والأفضل أن نمتنع عن اللحوم مرة كل ثلاثة أيام ؟

وانشغلت الأم فى الأيام الباقيـــة بتهيئة المطبخ ، وتبييض الأوانى وتخزين ما تيسر من النقل والسكر والبصل والتوابل . وكان لمقدم رمضان فى نفسها فرحـــة وسرور ، ولو أنها لم تؤد فريضة الصيام الا منذ سنوات قلائل ، اذ أنه شهر المطبخ كما أنه شهر الصيام ــ أو لأنه شهر الصيام ــ وأجمل من هذا أنه شهر الليالى الســاهرة والزيارات الممتعة ، حيث تدار الأحاديث على قزقزة اللب والجوز والفستق . ومن حسن الحظ أن رمضان وافق ذاك العام شهر أكتوبر ، وهو شهر معتدل ، وغالبا ما يصفو جوه ويطيب فيلذ فيه السهر حتى يتبين الخيط الأســود من الخيط الأبيض من الفجر .

وجاء مساء الرؤية ، وانتظر الناس بعد الغروب يتساءلون ، وعند العشى أضاءت مئذنة الحسين ايذانا بشهود الرؤية ــ وقد اجتزأوا بالاضاءة عن اطلاق المدافع لظروف الطوارىء ــ وأزينت المئذنة بعقود المصابيح مرسلة على العالمين ضياء لألاء ، فطاف بالحى وما حوله جماعات مطبلة هاتفة « صيام صيام كما أمر قاضى الاسلام » فقابلتها الغلمان بالهتاف والبنات بالزغاريد ، وشاع السرور فى الحى كأنما حمله الهواء السارى ، فلم يملك أحمد عاكف أن يقول :

ــ اين من رمضان شارع قمر هذا الرمضان البهيج ؟؟

فابتسم والده وقال :

ــ وماذا رأيت مما رأيت يا غلام ؟ : ... أشهدت رمضان فى حينا الجديد هذا قبل اندلاع الحرب ؟ ... انه النور والسرور ، انه الليل المنير اليقظان ، انه الليل العامر بالسمار والمنشدين واللهو البرىء . وفى أيام الفتوة والصــحة كنت أسرى قبيل السحور

بساعة فى جمع من الاخوان من السكاكينى الى حينا هذا نتسحر كوارع ولحم الراس وندخن البورى فى مقهى الحسين ونستمع الى اذان الشيخ على محمود ثم نعود مع الصباح الباكر ...

فسأله أحمد :

ــ متى كان ذلك ؟

فقال الرجل بلا جهد :

ــ وانت فى العاشرة !

آه ... تلك الأيام العذاب ، أيام السرور والمرح والتدليل . لقد اتفق له ولوالده عهد واحد يبكيانه معا . ومضى أحمد ذاك المساء ــ كعادته الجديدة ــ الى مقهى الزهرة ، وقد استسلم لهذه العادة الجديدة التى استأثرت بنصف الوقت المخصص للمطالعة . ووجد فى المعاشرة لذة ليست دون لذة القراءة والعزلة .

واجتمع بالصحاب الذين أخذ يألفهم ويألفونه . ودار الحديث عن سهرات رمضان وكيف يقضونها ، فقال عباس شفة ــ زوج معشوقة الأزواج ــ بصوته المبحوح :

ــ لا تتعبوا أنفسكم فى التفكير فلنا فى سهرات رمضان الماضية أسوة : نجىء الى قهوتنا بعد الفطار ونسمر بها حتى منتصف الليل ثم ننتقل الى « هناك » لنصل سهرتنا بالسحور .

وتنبه أحمد الى « هناك » هذه وتساءل ترى هل يستبيحون المنكر فى شهر التوبة !! على أن سبيله كان واضحا فسيلبث بينهم ما لبثوا فى المقهى ثم يعود الى بيته فيطالع حتى السحور وهكذا حتى يختم الشهر .

١٠

وفى اليوم الأول من أيام الصيام كابد أحمد عاكف تعبا مرهقا ، فشق عليه الا يشرب قهوته ويدخن سيجارته على الريق ، ومضى الى الوزارة متوجع الرأس متثائبا ، وغالب تعبه مغالبة يائسة حتى دمعت عيناه من التثاؤب واسترخت جفونه . وذكر ان أحمد راشد وأمثاله لا يعانون تعبا ولا حرمانا فسره أن يحتقره ويتعالى عليه . وعاد الى البيت ظهرا وقد نهكه التعب ، فاستلقى على فراشه وراح فى نوم عميق صحا منه قبل الفطار بساعة واحدة . وذهب الى الحمام فرطب وجهه وأطرافه ، وفى طريق عودته رأى والده فى حجرته متربعا على سجادة الصلاة يقرأ فى الكتاب ، فمر به ساكنا ، وعطف رأســـه الى المطبخ فـــرأى أمه مشمرة عن ساعديها ، ودعاه المطبخ الى الوقوف بعض الوقت عند عتبته ، فأجال بصره فيه متشمما فطاف بطبق كبير حفل بمواد السلطة من بقدونس وجرجير وجزر وبصل وطماطم ، خضرة يانعة وحمرة فاقعة ، فانشرح صدره وتحلب ريقه ، وانتقل الى سلطانية الفول فلم يستطع صبرا ، وزايل مكانه . وفى الصالة مر بالسفرة وقد هيئت فوضع على ركن منها العيش وفرقت أمام كراسيها أكواب الماء وتوسطها طبق ملآن بالفجل ، فهرع الى حجرته واغلق الباب . وكان أبقى الأهرام بغير قراءة ليتسلى بمطالعته فى الساعة الأخيرة المعروفة بشدتها وثقلها فأكب عليه حتى فرغ منه ، ونظر فى الساعة فعلم أنه لا يزال عليه أن ينتظر نصف ساعة أخرى ! .. وتجهم وجهه ، ثم لم ير بدآ من فتح النافذة المشرفة على العمارات ليقطع

الوقت بالنظر ، ورأى المعلم نونو يغلق دكانه وأطفاله ينتظرونه يكادون يسدون الطريق سداً ، ثم مضى يحفون به ويتعلق الصغار بساقيه ويصيحون جميعا فى جلبة تحسده عليها محطة الاذاعة . وقد أوشك الطريق أن يخلو الا من باعة الزبادى ، وشاهد شعاع الشمس الأخير يتقلص عن أسوار العمارات التى تواجهه من وراء مربع الحوانيت العظيم ، والنوافذ المفتوحة تعلن عن السفر الحافلة ، وعلى الشرفات انتصبت القلل لتبرد وانتثرت أطباق الخشاف المكللة بغلالات بيض ، وأتى الهواء بروائح التقلية ونشيش المقليات فتاه فى دنيا الطعام الساحرة . . . ، ثم تحول عن هذه النافذة الى النافذة الأخرى المطلة من جنب على خان الخليلى القديم ففتحها وارتفق حافتها ، ورمى بطرفه الى الحى القديم فوجده صامتا ساكنا تلوح قبابه المعزية كأنها تسجد تحية للشمس المولية ، وكان يواجه نافذته عن قريب جناح العمـــــارة الأيسر بنوافذ مغلقة ، ولكنه سمع حركة خفيفة هفت من عل ، فرفع بصره فرأى شرفة الجيران — التى تواجه نافذته ولكن فى الطابق الأعلى من العمارة — ورأى فى الشرفة فتاة مكبة على تطريز شال انسحب ذيله على حجرها وهى جالسة على كرسى ملتفة الساقين ، وعرفها من أول نظرة — حتى قبل أن ترفع اليه عينيها — فاهتز صدره ، فما كان يحسب أن شقة كمال خليل فى هذا الجناح الذى يواجهه ، ولا أن فتاته دانية اليه لهذا الحد ، فشعر بارتياح وسرور . ورفعت الفتاة عينيها اليه ثم ردتهما بسرعة الى ابرتها فنظر فى العينين العسليتين النجلاوين لثالث مرة ، وفى تلك اللحظة الخاطفة من التقاء العيون اضطرب قلبه وغلبه الارتباك وتولاه الحياء فتورد وجهه الشاحب واختلج جفناه ولم يدر ماذا يصنع ولا كيف يتخلص من موقفه . ونكس رأسه الأصلع وهو يود لو يختفى عن النافذة ريثما يأخذ أنفاسه ، ترى هل عادت الى النظر اليه ؟.. هل ترنو الآن الى صلعته ؟.. وشعر بأن موضع نظرها من رأسه يشتعل كما تشتعل

الورقة تحت أشعة الشمس المتجمعة فى بؤرة . ومضى وقت طويل أو قصير حتى تنبه على طقطقة الكرسى فرفع رأسه فرآها قد نهضت لتذهب الى الداخل ، وخال أنه لمح على وجهها بشير ابتسامة وهى تتحول لتدخل . وعاد الى النافذة الأخرى متسائلا ما معنى هذه الابتسامة ؟.. لماذا ابتسمت الصبية ؟. هل تسخر من صلعته ؟.. او تضحك من نظرته الوجلة الخجول ؟.. أم تعجب لما حسبته غزل كهل فى سن أبيها ؟.. أى والله فى سن أبيها !... فلو تيسر له الزواج فى ابانه لأنجب فتاة فى مثل سنها ، ولما أمكن أن تبعث مثل تلك النظرة فى أطرافه ما بعثت من ارتباك واضطراب وحياء ، ولكن قضى أن يفقد جنانه لدى أية صبية ، وأن تستثير جوعه وحياءه ابرأ النظرات ! وابتسم ابتسامة يأس وخجل فافترت شفتاه عن أسنان صفر ! ودوى المدفع ، وتصايح الأطفال ، فعجب كيف انقضت نصف الساعة بغير تفكير فى الجوع أو العطش ، وهتف المؤذن بصوته الجميل « الله أكبر .. الله أكبر » فأجاب أحمد بصوت مسموع « لا أله الا الله » . ثم تحول عن النافذة ذاهبا الى الصالة . والتأم جمع ثلاثتهم حول السفرة ، ثم غيروا ريقهم على عصير قمر الدين حتى رووا ظمأهم ، وأتت الأم بطبق الفول المدمس فأقبلوا عليه بنهم شديد وتركوه أبيض من غير سوء ، فقال الأب وهو يعتصر بقليل من الماء :

ـــ أظن الأوفق أن نؤخر الفول حتى نصيب من أنواع الطعام الأخرى والا امتلأنا به وحده .

فقالت الأم ضاحكة :

ـــ هذا ما تقوله كل عام ولكنك لا تذكره الا عقب الفراغ من الفول !

ولكن لم يزل فى البطون متسع فجىء باللوبيا والفلفل المحشو واللحم المحمر وتعاونت الأيدى والأعين والأسنان فى عزم وسكون .

ولم يكن الطعام الشيء الوحيد الذى يلذ احمد ، فهناك خواطر سارة زحمت رأسه الصغير الأصلع ، حدت من شـــهوة الطعام نفسها ، من هذه الخواطر : ان الفتاة جارته ، وان شقتها تشرف على شقته ، فاللقاء منتظر ، والتقاء العينين مرتقب ، والتفاعل محتمل ، والانفعال مؤكد . ومن يدرى بعد ذلك ماذا يحدث ؟ سيرمى بالقلب فى بحر لجى يعلو به أمل ويسفل به قنوط ، ويذهب به رجاء ويجيء به يأس ، ويخيفه افق مظلم ويطمئنه شاطيء آمن ، فما يدرى اين المستقر ولا ايان المنتهى ، وحسبه من السرور يقظة دبت فى قلب موات ، وليقظة القلوب فرحة وان أدى الانسان ثمنها من دمه وراحة باله ، وهل ينكر أن قلبه جمد من البرد وبرم بالنوم وضاق بالراحة ؟ فها هى ذى يقظة تدب ، وتبشر الشرفة بدوامها ، ما عقباها ؟ ما غايتها ؟ لا يبالى فى سروره الراهن ماينطوى عليه غده ، فليشرق الأفق او فليغرب ، وليبسم الحظ او فليتجهم ، فبحسبه أن قلبه صحا ، وأنه منـــذ أيام ينتفض فى اضطراب ، ويضطرب فى سرور ، ويسر فى حيرة ، ويتحير فى رجاء ، ويرجو فى خوف ، ويخاف فى لذة . هذه هى الحياة ، والحياة اجمل من الموت ، مهما كابد الحى من تعب ووجد الميت من راحة ...

١١

وغادر البيت قبل العشاء الى « الزهرة » فاجتمع بالصحاب ، وراحوا يتسامرون ويحتسون الشاى ودار الحديث حول الصيام ، وكيف أن كثيرين ــ من اهل القاهرة خاصــة ــ لا يؤدون حق فريضته لأوهى الأسباب .

وشهر سيد عارف بالمعلم زفتة وعباس شفة فقال ضاحكا :

ــ قد يستطيعان أن يمنعا عن الطعام والشراب ، أما « الكيف » فأمر يهون دونه الدين !

فقال عباس شفة متهكما :

ــ الا تفضل أن تصير « رجلا » مثلنا ، ولو قارفت المعاصى ؟ !

فاصطنع سيد عارف لهجته قائلا :

ــ دائى له دواء اما داؤك ياسيد الأزواج فلا دواء له !!

فهز عباس شفة منكبيه وقال دون أن يتلعثم أو يتورد وجهه :

ــ لاتعيرنى ولا أعيرك !

ــ بل نحتكم الى المعلم نونو . يامعلم نونو أيهما تفضل أن تكون : عباس شفة أم سيد عارف ؟ !

فضحك نونو ضحكته العظيمة وقال :

ــ لا خيرت بين ان اكون احدكما قط !

فقال سيد عارف بايمان :

ــ سبحان من يحيى العظام وهى رميم ، وغدا ترد الأقراص كيد الحاسدين الى نحرهم !

فضحك عباس شفة ضحكة داعرة وقال :

ـ وقتذاك نهنىء أنفسنا ! !

ونهاهم سليمان عتة عن الالمام بمثل ذاك الهذر علانية فى شهر رمضان ، ولم يكن صادقا فى نهيه لهم ولا غاضبا حقا للشهر المكرم ، ولكن « قافية » الأقراص أمست مملولة منذ دهر طويل ، فيئس من أن يأتى قائل بجديد . ثم راح كمال خليل يحدث عن ليالى رمضان منذ أقل من ربع قرن ، قبل أن تغمر موجة الاستهتار التقاليد الدينية المؤثلة ، وكيف كانت بيوت السراة تظل مفتوحة طول الليل تستقبل القاصدين ، وتستقرىء مشاهير المقرئين حتى مطلع الفجر ، وقال ان بيتهم القديم ـ بيت أبيه ـ كان ضمن تلك البيوت العامرة ، وتساءل أحمد عاكف : ترى هل يصدق الرجل فيمـا يقول أم يقتص اثر زوجه اللحيمة ؟ ! . وتسامروا ساعة طويلة حتى تعبت ألسنتهم فأمسكوا عن السمر وأخذوا فى اللعب . ووجد أحمد عاكف نفسه منفردا بالمحامى الشاب ، فأدرك أن جاءت نوبة النضال والتحدى ، ولحظه بطرف لم يعلن عما يضطرم فى باطنه من الموجدة والمقت . وقبل أن ينبس احدهم بكلمة مر بالمقهى جماعة من الصبيان والبنات ملوحين بالمصابيح هاتفين بأناشيد رمضان سائلين « العادة » من النكل والملاليم ، فأتبعهم المحامى ناظريه حتى اختفـوا ، وابتعدت أصواتهم الرفيعة ، ثم التفت الى صاحبه قائلا بلهجة مرة :

ـ نحن شعب من الشحاذين .

فأدار عاكف رأسه اليه كالمبتسم ، وقد بات يوجس خيفة من الاشتباك معه فى الحديث ، وأن تظاهر بالاستهانة ، وتوثب للانقضاض والتحدى . واستطرد احمد راشد قائلا بنفس اللهجة :

ـ شعب من الشحاذين وحفنة من اصحاب الملايين . فليس يتاح للشعب غير العمل الوضيع او امتهان الشحاذة ، والعمل الوضيع لا يغنى عن الشحاذة !

فهز أحمد عاكف رأسه ونظر لمحدثه نظرة لامعنى لها ولاذ بالصمت . والصمت فى مثل حاله مأمون العواقب . فهو يغنيه عن خوض ما ليس له به علم ، ويهيىء له جوا آمناً لاهتبال الفرص السانحة . أما صاحبه فاستدرك يقول :

ــ ليس يوجد شر من نظام يقضى على أناس بالانحدار الى مستوى الحيوان الأعجم .

ولست أدرى كيف تطيب الحياة لقوم عقلاء وهم يعلمون أن غالبية قومهم جياع لايدخل بطونهم ما يقيم أودهم ، جهلاء لاترتفع عقولهم عن أدمغة الدواب ، مرضى تستوطن الجراثيم أجسادهم الهزيلة . ألم يخطر لهم أن ينادوا بمبدأ المساواة بين الفلاحين والحيوانات مثلا ؟ فان للحيوان على سادة الريف حقاً فى الغذاء والمأوى والصحة لا مراء فيه ، ولم يقر بمثله للفلاح !

ولم يعد يستطيع كبح شهوة المعارضة ، وكبر عليه أن يستمر الشاب فى محاضرته وأن يقنع هو بالانصات كالتلاميذ فقال :

ــ اذا كان للفلاح حق فلماذا لا يطالب به ؟

فقال المحامى بحدة :

ــ الفلاح مضغوط تحت المستوى الأدنى للانسانية ، فلا يمكن أن يطالب بشىء ، ولكن خليق بكل انسان أهل لشرف الانسانية أن يمد يده ليرفع عن كاهله المتهالك هذا الضغط ، وقديما حارب الرق الأحرار لا العبيد !

وتنازعت الكهل عواطف جد متناقضة . فجانب من نفسه ارتاح لما يقول الشاب ، فلو اعتدل ميزان العدالة فى هذا الوطن ما عاقه عن اتمام تعليمه عائق ، ولبلغ ما يشتهى من الشرف فى الحياة . واحتقر جانب آخـــر اهتمامه الحمــاسى بالمشكلات الاجتماعية ، ورأى أنها دون ما ينبغى أن يفكر فيه « المثقف » من أمور العقل كالمنطق والتصوف والأدب ! . ثم ذكر عنف الشاب فى

حديثه وثقته برأيه فثارت كبرياؤه ، وغلبته على امره ، فقال بحدة :

ــ لو أن الفلاح يستحق أكثر مما هو متاح له لناله ، والحق لمن يقدر عليه ، وما عدا ذلك فهراء فى هراء !

وثبت الشاب نظارته على عينيه بحركة عصبية ، وقال بلهجة غريبة :

ــ أأنت من اتباع نيتشه يا استاذ ؟!

رباه ومن نيتشه هذا ؟ .. ألا يمكن أن يوجد راى ــ ولو كان من وحى الغضب والحنق ــ من غير قائل سابق من الحكماء الذين يجهلهم كل الجهل ؟ ... وكيف يجيب الشيطان البغيض ؟! .. هداه عقله الى سبيل واحد راى أنه يخلصه من الفخاخ التى ينصبها له عدوه ، فقال وقد غير لهجته ، وخفف من شدته :

ــ انك يا استاذ راشد تدفعنى الى احاديث ليست بذى بال !

ــ حياتك ليست بذى بال ؟ !

ــ دع الفلاح الى نفسه أو الى من يعنيه امره . ألم تقرأ شيئا عن ارسطو ؟ .. ألم تلم بفلسفة اخوان الصفاء الدينية ؟ .. ألم تثقف شتى المعارف الروحية ؟؟

فلاح الانزعاج فى وجه الشاب وقال :

ــ ان مثلنا مثل ربان سفينة تمخر عباب مضيق ثائر تهب عليه ريح زعزع عاصفة ، فيفــور زخاره ويصطخب ركامه ، فتعلو السفينة وتسفل ، وتميل ذات اليمين وتميل ذات الشمال ، مضطربة البنيان مزلزلة الأركان ، فهل يجوز للربان ــ وتلك حال السفينة ــ أن يولى آلة القيادة ظهره ليرمى بطرفه الى الافق متأملا ومنشدا ؟!. نحن نجتاز الآن مضيق الموت تكتنفنا الآلام من كل جانب . فلنأخذ من الآلام ذخيرة لتأملاتنا . حقا ان للأبراج العاجية لذتها ، ولكن ينبغى أن نقاوم انانيتنا الى حين .

ـ فأنت فى سبيل أن تنقذ البائسين من وهـدة الحيوانية ، تضحى بانسانية المثقفين وتقتل أرواحهم !

ـ قلت الى حين .. الم تر الى فترة الحرب وكيف تحول العلماء ـ وهم أشرف الخلق ـ الى نوع من المجرمين !

ـ ومع ذلك فلك نصـيبك من التـــأملات البعيدة كالفلك والذرة !

فضحك أحمد راشد ـ لأول مرة ـ بصوت مرتفع فلفت اليه جماعة اللاعبين وجعل المعلم نونو يقول له :

ـ ان ضحكتم فأعلمونا !

فسكت المتحاوران حتى شغل عنهم اللاعبون ثم قال المحامى :

ـ لا غنى عن التسلح بالعلم للمكافح الحق ، لا للاستغراق فى تأملاته ، ولكن لتحرير النفس من أصفاد الأوهام والترهات ، فكما أنقذتنا الديانات من الوثنية ينبغى أن ينقذنا العلم من الديانات !!

وهنا احتد سليمان بك عتة كعـــادته اذا خسر « عشرة » واشتبك معه سيد عارف فى مصاولة لاذعة لم تلبث أن انتظمت جميع المتوثبين من أهل المجون فانقطع حديث رمضان الأول !



وعند منتصف الثانية عشرة نهض احمد عاكف يريد الانصراف فقام معه المعلم نونو وهو يقول :

ـ سأذهب الى البيت لأحضر معطفى لأن الجو تشتد رطوبته عند الفجر .

ومضيا معا . وفى الطريق سأل المعلم صاحبه :

ـ لماذا لا تمد السهرة حتى السحور ؟

فقال الكهل بلهجة فاترة :

ـ انى أمضى الوقت ما بين الساعة الثانيـــة عشرة وما بين السحور فى القراءة .

ــ أتقرأ كتبا ؟ !

ــ أجل . وما يقرأ غير الكتب ؟!

ــ وفيم هذا التعب ؟

فابتسم أحمد عاكف وقال :

ــ هواية يا معلم نونو !

ــ ولكن الهواية ينبغي أن تكون ذات فائدة ما . فهل تطيل الكتب العمر !.. تدفع المرض ؟!.. تمنع المقـــدور ؟! .. تجنب الشقاء ؟!... تملأ الجيب ؟!

فقال أحمد وما يزال يبتسم وقد عاوده شـــعور الاســـتعلاء والسرور :

ــ بل أريد أن أكتب كتابا أيضا ؟

ــ هذا انكى وأمر . هل أنت صحفى ؟!

ــ هبنى أجبت بالايجاب ؟

ــ مستحيل !

ــ ولم ؟

ــ أنت ابن ناس طيبين !

فضحك أحمد ضحكة قذفت بحنق الليلة خارج صدره وقال :

ــ ولكنى سأكتب كتابا ..

ــ الكتب فى الدنيا اكثر من بنى آدم . الم تر الى مكتبة الحلبى تحت الكلوب المصرى ؟!.. فيها كتب ــ يا دين محمد ــ لو صفت جنبا إلى جنب لكاثرت طلبة الأزهر . فهل تبـــذل ما تبذل من جهد لتضيف اليها كتابا جديدا ؟!

ــ نعم .. نعم ... فلكل كتاب فائدته ..

ــ اليك هواية لطيفة لن تقتضيك جهدا ..

ــ ما عسى أن تكون ؟

ــ أما تعرفها ؟. جوزة ..

ــ لا علم لى يا معلم ..

ـ يدعونها تسلية رمضان وفرحة الزمان ..

ـ فما اسمها ؟

ـ فى الأصل من التراب ولكن مرعاها فوق السحاب .

ـ عجبا !

ـ واردها اما فى الليمان أو على كرسى السلطان !

ـ ليس فى الدنيا شيء كهذا ..

ـ يهواها الفقير والوزير ..

ـ لحد هذا !

ـ عزاء الحزنان وشرب الفرحان !

ـ ما أشوقنى الى معرفتها .

ـ قد النبقة وتنفع فى كل زنقة .

ـ هذا سحر .

ـ أحضروها من بلاد الفيل تحفة لأهل النيل ..

ـ هل تجد فيما تقول ؟

ـ ألم تسمع عن الحشيش ؟!

وارتاع الكهل لوقع الكلمة ، فضحك المعلم وقال يغويه :

ـ تعال طاوعنى . الحياة ملأى بما هو ألذ من الكتب ..

وأغراه حب الاستطلاع بأن يسأله :

ـ أين ؟

ـ المكان تحت أمرك اذا وافقت وشرفتنا .

ـ الا تخاف الشرطة ؟

ـ أعرف كيف أتقى شرها !.. فماذا قلت .. ؟

فابتسم أحمد وقال له :

ـ لا شأن لى بهذه الهواية الساحرة . شكرا لك يا معلم .



ولما خلا الى نفســه فى حجرته تناسى حديث نونو وظرفه ، ولاحت لعينيه صورة احمد راشــد بكآبتها وحماسها وعنف حركاتها ، فاستثارت حنقه وغروره ومقته ، وتساءل محزونا كيف غابت عنه دنيا المعرفة الحديثة ؟ ! . وكيف يستكمل ما فاته منها ؟ ! . ومتى يحاضر فى فرويد وماركس كما يستطيع ان يحاضر فى اخوان الصفاء وابن ميمون ؟ ! . وفكر فى هــذه الأمور طويلا فلم يستطع ان يصفو للمطالعة ولا أن يركز ذهنه فيها . ولكنه ظل عاكفا على كتابه لا يحول عنه راســه لأن عكوفه على الكتاب — ولو فى حال شروده — يقنعــه بأن يومه لم يمض بغـير ثقافة يتزود منهــا ، الأمر الذى يحـرص عليــه كل الحرص . وانسل الوقت وما تزال كبرياؤه تتجـرع غصص العـذاب . ثم خطرت على قلبــه فـكرة . هفت على قلبــه كنســمة رطيبة لطيفة فأثلجت صدره الفائر بالحنق والغضب ، فصفا وطاب ، وابتسمت أساريره . كم كانت تكون الحياة سعيدة محبوبة لو ان مايلقاه من حظ ونصيب ، ومصادفات واتفاقات ، واناس واخلاق ، كان فى مثل هاتين العينين النجلاوين يقطران سذاجة وخفة ؟ ! . ثم ذكر — فيما يشبه الدهشة — أن شهر رمضان ذو صلة قديمة بقلبه . ففى شهر رمضان خفق قلبه خفقة الحب الأولى ، وهى — كرؤية نور الدنيا لأول مرة — احساس عجيب لا يتأتى الشعور بجدته مرة أخرى . وفيه راى الفتــاة التى رغب صادقا ان يشاطرها حياته وأخفق ، وها هو ذا رمضان من جديد ، وها هو ذا قلبه ينفض عن صفحته الضباب البارد القاتم ليستقبل شعاعا دافئا منعشــا . وكان عقله من العقــول التى ترى دائما وراء المصادفات حكمة تدق على الألباب . فاذا راى غيره من المصادفة مجرد حادثة لا معنى لها ، التمس هو فيها حكمة خفية . لذلك

نظر أمامه حالمــا وقد غاب بصره ، وارتفع حاجبــاه الخفيفان المتباعدان ، وفغر فاه ، وغمغم فى حـيرة وسرور « ماذا وراءك يا رمضان » ؟ !

١٢

وعند أصيل اليوم الثانى نهض نشيطا الى المرآة ليحلق ذقنه ، وكان يحلقها عادة مرتين فى الأسبوع ، ولا يبالى أن يبدو للناس وذقنه نابتة ، فعزم على الاقلاع عن عادته هــذه ، وأن يحلق ذقنه يوما بعد يوم من الآن فصاعدا .

ولما فرغ ارتدى جلبابا نظيفا وطاقية ناصعة البياض ــ مجبرا ليخفى صلعته ــ ثم جلس على حافة الفــراش يرمق النافذة بعينين مترددتين . ليست المسألة مجرد حلق ذقن أو لبس طاقية بيضاء ، انما ينبغى أن يسأل نفسه عن معنى هذه اللهفة ومغزى هذا التغير . هل ينطلق بغير تفكير أو ترو ؟ ماذا يريد على وجه التحقيق ؟ فعسى ما يكون اليوم لعبا يكون غداً جداً . وما ينبغى له أن ينسى حظه العاثر وتاريخه المحزن . أفلا يحسن به أن يترك النافذة مغلقة ، وأن يتفادى ما ينذر به فتحها ؟ على أن الحيــاة لا تنصت لمثل هذا المنطق ، ولا تكاد تتأثر بحكمته ومخاوفه ، فقد أحرقه الظمأ وألهبته اللهفة . ونهض مرة أخرى يلوح فى وجهه العزم ودلف من النافذة ثم فتحها ، وارتفق حافتها وعيناه الى أسفل ، ثم مضى يرفعهما ببطء وحذر حتى بلغتا أرض الشرفة ، فرأى قوائم الكرسى وحاشية الشال ــ الذى كانت تطرزه مساء الأمس ــ مدلاة بينها ، ثم غلبه خجله فأطرق كالأطفال ! ولبث مطرقا وهو يشعر بعينيها تثقبان رأســه . وخاف أن تذهب الفرصــة قبل أن يتملى برؤيتهــا ، فرفع رأســه متغلبا على

بحيائه ، فرأى الكرسي خاليا والشال موضوعا عليه ! أترى كانت موجودة حين فتح النافذة ودعاها الى الذهاب داع ؟ أم غابت قبل ذلك ؟. ومهما يكن من أمر فقد أحس امتعاضا وفتر حماسه ، وخاف أكثر من قبل أن يغيب اليوم دون أن يراها ، ولم تكن احتمالات رؤيتها فى الغد لتنسيه خسارة اليوم ، فقد تهيأ بكل عناية لتراه فى احسن صورة ممكنة ، ولن تكون ذقنه ولا طاقيته ولا جلبابه غدا كما هى اليوم . واذن فهذا رجاء خاب ، وذاك تعب ضاع . واطرق مرة اخرى كاليائس ، الا أنه سمع — فى اللحظات الأخيرة قبل المدفع — حركة خفيفة فى الشرفة ، فرفع راسه بسرعة فرأى الفتاة مقبلة ، ثم رآها تنحنى على الكرسى لتأخذ الشال فالتقت عيناهما لحظة ، ثم استوت قائمة فولته ظهرها وجرت الى الداخل . وما طمع فى اكثر من ذلك . واو انها أدامت النظر اليه لأربكته وأوقعته فى الحيرة والحياء ، أما وقد خطفت بصرها بمثل السرعة التى خطفت بها روحه ، فقد أولته الجميل دون عناء او مشقة . ثم صارت بعد ذلك ساعة الغروب تلك معقد الرجاء وبسمة المنى ، هى خلاصة اليوم وهدفه ومعناه ، حسبه أن يملأ فيها عينيه من معانى السذاجة والخفة تسكبها عيناها النجلاوان ، وأن يدخر منها لبقية يومه ما يشيع فيها السرور والأحلام . وتواترت أصيلا بعد اصيل ، والتقت العينان يوما بعد يوم ، فألف منظرها المحبوب ولعلها الفت منظره ، بيد انه لبث على خجله وارتباكه ، يطالعها — اذا جاءت اللحظة السعيدة — بنظرة تفيض باحساس الجد والرزانة والوجل كأنما يتحفز صاحبها للفرار ! . ووضحت صورتها فى مخيلته بعينيها النجلاوين ذواتى الصفاء والسذاجة والخفة ، عينان تنطلق نظراتهما بالتساؤل والاستسلام ، الا ان خفتها تضفى عليها غلالة من الفطنة والحرارة .

وكان ذات مساء يغادر حجرته — بعد العشاء — الى المقهى . فدق جرس الباب الخارجي وهو يقترب منه ، ففتح الباب بنفسه ، فرأى أمامه الست توحيدة وكريمتها نوال ! وجعل ينظر اليهما بدهشة وارتباك وقد خفق صدره بما بغته من سرور ، ثم انتبه الى نفسه فتنحى عن سبيلهما قائلا ملعثما :

— تفضلا .

ودعا أمه لتلقى الزائرتين ، وذهب لا يلوى على شيء . وأدركت أم نوال ارتباكه ، ولم تكن تتصور أن رجلا فى سنه يرتبك ارتباكه ، ويبدو عليه ما بدا من الحياء لمحض أنه قابل امرأتين . وهبط أحمد السلم نشوان لأنه يذكر جيدا — كما أكد لشكوكه التى لا تنتهى — أن فتاته ابتسمت اليه وهو يستقبلهما ابتسامة خفيفة براقة . لعلها ابتسمت ابتسامة الضيف لمن يستقبله ، أو ابتسامة الارتباك والحياء ، أو لعلها جادت بالابتسامة للرجل ، جزاء حرصه ومثابرته على التطلع اليها بعينيه كل غروب أسبوعا كاملا أو يزيد ، فمهما كان الباعث فهى ابتسامة حلوة ، تلهف قلبه على مثلها عشرين عاما . ورغب عن الذهاب تواً للمقهى ليتيح لنفسه فرصة للتأمل ، وكان من الذين يستحبون المشى اذا شغلهم شاغل من الفكر . فحث خطاه الى السكة الجديدة ، وسار معها مبتهجا مسرورا ، وتمتع ما شاء بالسرور فى صفاء ورضا ، وما كان غراً ولا حسن الحظ بالدنيا — وكيف يكون ذلك بعد ما لاقى من سوء الحظ وعثاره ؟! — ولكنه أراد السرور ساعة ولو خدع نفسه وغالط رأيه . وأراد أيضا ان يسبر حظه بعين جديدة ليرى أين هو من أمانيه المكبوتة ، وليرى ان كان فى الامكان أن يعاود التجربة من جديد . فقد بدا له أنه أصبح حرا بعد أن أدى واجبه كاملا ، ألم يتلق عن والده العبء عند الحاجة ؟ ، ألم ينهض بأسرته المهددة بالشقاء ؟ ألم يكفل أخاه حتى صار رجلا ؟ فما عليه من حرج بعد ذلك اذا شغل بسعادته مخلفا أعباءه لشقيقه

الأصغر ، ولا يكره ذلك احد من ذويه ، فهل فى العمر متسع ؟ !..
وتمادى فى التأمل والتخيل يحثه شعور السرور والظفر الذى غمره منذ حين ، فقال انه يملك فى صندوق توفير البريد مبلغا لا بأس به فى ذاته ، وان عد تافها اذا قيس الى مدة خدمته الطويلة . واما عن شكله فليس مما يعيب الرجل ألا يكون جميلا ! وانه ليستطيع بالعناية — كما فعل اليوم — ان يبدو مقبولا على نحول وجهه وشحوبه وصلعته . ويا حبذا لو فصل بدلة جديدة ، وابتاع طربوشا غير طربوشه الباهت المتقبض . بيد أنه كهل ! . فهو فى الأربعين والصبية دون العشرين ! وفارق العمر حاجز لا تقتحمه الا المعجزات فمن أين له بالمعجزة ؟! وانقبض صدره لأول مرة منذ فتح باب الشقة للزائرتين ، وذكر شكه فى جاذبيته الجنسية ، فتجهم وجهه وأفاق من نشوة السرور . وتمثلت لعينيه — فى ظلمة الطريق — صورة الفتاة الباسمة ، فغمغم قائلا : « يا لها من غرة جاهلة ! » ، الا أن شيئا واحدا لم يخطر له ببال ، وهو أن يتطوع بمد يده الى الحياة التى دبت فى قلبه فيخنقها لواذا بطمأنينة الموت . فليتركها تنبض وتترعرع ولينتظر المخبأ وراء حجاب الغيب ، وهو لن يكون بحال أسوأ مما عركته به الأيام . وخطر له وهو راجع أن يتساءل هل الحب شيء غير ما يعانى ؟ .. هل هو شيء غير هذا الشوق الغامض النابع من الحنايا ؟.. هل هو شيء غير هذا الحنين الذى تزفر أنفاسه عصير القلب والكبد ؟.. هل هو شيء غير هذا الفرح السماوى تطرب له النفس والدنيا جميعا ؟ ... هل هو شيء غير هذا الألم المشفق من الاخفاق والعودة الى الوحدة والوحشة ؟.. هل هو شيء غير ان تسكن تلك الصورة الساذجة اللطيفة هذا الصدر فتصير زاد احلامه ومبعث آماله وآلامه ؟... بلى هو الحب ، وانه به لخبير !

وعاد الى الزهرة فوجد الصحاب يتسامرون ويحتسون

الشاى ورأى الغلام محمد جالسا جنب والده يقلب فى المكان عينيه النجلاوين ، فسر لمرآه — وهو سفير هواه — وانجذبت نحوه روحه ، واتخذ مجلسه المعتاد جنب الأستاذ أحمد راشد ، وراح ينصت لسيد عارف الذى كان يقول بحماس :

— وسينتهز الألمان فرصة ضباب الخريف الكثيف ويهبطون على شواطىء انجلترا وينهون الحرب !

فتساءل كمال خليل ضاحكا ، وفى هدوء لا يهيج الأعصاب :

— كما هبط هيس ؟!

فاستطرد سيد عارف غير ملق بالا الى قوله :

— وستخر انجلترا المتعجرفة صريعة قبل أن تفيق من هول الضربة .

فسأله أحمد راشد :

— كيف تغزو المانيا انجلترا وجنودها مشتبكة فى ذلك الصراع المخيف فى روسيا !

— أعد الفوهرر جيشا خاصا لغزو انجلترا ، وأرجح أن تسقط انجلترا قبل روسيا ان لم تسقطا معا !

فقال أحمد راشد :

— الظاهر انك تجهل حقيقة روسيا . روسيا الاشتراكية غير روسيا القيصرية ، الشعب الاشتراكى كتلة من الصلب والايمان والعزيمة ، وهو ربما تقهقر ريثما يأخذ انفاسه ، ولكنه لن يلقى السلاح أبدا ، ولن يسلم لدواعى الهزيمة . . .

— والمخزن رقم ١٣ !

فقال المعلم نونو وهو يفرك كفيه :

— هذا مخزن الأقراص التى تريدها . .

وسأله أحمد عاكف :

— لماذ لا يستعمل هذا المخزن ان صح ما يقال عنه ؟

ــ رحمة بالانسانية . الفوهرر لن يلجأ الى استعمال مخزنه المخيف الا اذا يئس من النصر بالفن الحربى المعتاد لا قدر الله !

وهنا صفق المعلم نونو للنادل وامره أن يحضر الدومينو وهو يقول كمن ضاق صدره بالحديث :

ــ ملعون أبو هؤلاء وهؤلاء ، فلا الألمان امنا ولا الانجليز أبونا ، وليذهب بهم الشيطان جميعا الى الجحيم . . .

وفصل المعلم نونو بصيحته بين السمر واللعب ، وما لبث أحمد عاكف أن وجد نفسه ــ كالعادة ــ منفردا بالمحامى . ورغب عن الحديث ، وحدثته نفسه بالرجوع الى البيت حيث توجد الآن نوال وامها ! . . ولكن ما عسى أن يفعل هناك الا ان يحبس نفسه فى حجرته ؟ . . وانه لفى حديثه مع نفسه اذ سمع المحامى يقول للغلام محمد بلهجة الأمر :

ــ يا محمد آن لك أن ترجع الى البيت لتذاكر !

ونهض الغلام قائما ، وقد علت شفتيه ابتسامة دلت على ارتباكه ؛ وغادر المقهى وثبا !. وعجب أحمد عاكف للهجة الشاب الآمرة واذعان الغلام لها ، فلم تكن لهجة الناصح ولا المتودد الى الأب .

واحس الشاب بعجب الرجل فقال :

ــ البنات يتفوقن على الصبيان بدرجة تدعــــو للدهشة ، فشقيقة الغلام مجتهدة مطيعة ، اما هو فيتجرع دروسه كالعلقم ويحتل على التهرب منها بالعلل !

كيف يتكلم الأعور من الفتاة بهذه الحرية ؟! وخطر له خاطر انقبض له صدره فسأله :

ــ هل تعطيهما دروسا خصوصية ؟

فحنى الشاب راسه بالايجاب ! وامتعض الآخر امتعاضــــا شديدا جعله يتكلف الابتسام حتى لا يبدو على وجهه اثر من

احساسه . أيجلس هذا « الأعور » من فتاته مجلس الأستاذ المعلم ؟ أيلقنهـا الدرس ويأمرها بحفظـه وربما تصنع الجـد فانتهرها ؟ . . ألا ينفرد بها أحيانا ؟ . . ألم ينظر اليها مرة بغير عين الأستاذ ؟ . وكيف تراه هى ؟ . . . انه شاب مثقف ذو مستقبل حسن ، ولن يضره شكله المتجهم ولا عينه الزجاجية ، بل لن يعد — اى عاكف — خيرا منه بحال ان لم يعد أسوأ درجات — على الأقل فى نظر العوام والأميين — فهل يولى الأدبار ولما تبدأ المعركة ؟! وما كان فى مثل هذه المعركة ممن تتملكهم روح الاقدام والمنافسة . وعلى العكس من ذلك تراه ينكمش ويسلم ساقيه للريح حياء واستكبارا وجبنا ! . . ولن يزال فى كل شدة يلتمس التدلل الذى نشأ فى احضانه فاذا أخطأه — ولابد أن يخطئه — انطوى على نفسه دامى القلب مجترا آلامه مكيلا التهم لسوء الحظ الذى يلاحقه ! ولو كان دور الذكر فى الغزل أن يطارَد لا أن يطارد وأن يطلَب لا أن يطلب لهان الأمر وطاب له الغرام ، أما والأمر غير ذلك أو عكس ذلك — أما والأمر يستوجب رجولة ولباقة وجسارة فكيف يطمع فى الظفر ؟ ولو أن السجايا رهن مشيئة الانسان لنزل عن ثقافته ومواهبه العقلية — المزعومة — لقاء أن يصير غزلا ماهرا ورجلا جلنابا !. ولكن هيهات أن يبلغ ما يشاء ، وليس أمامه الا أن يحتقر الغزل ويمقت المرأة ويستمرىء العزلة الوحشية !

وتجنب أن يشتبك فى حديث مع الشاب البغيض ، وتصنع الانصات للراديو ليصرفه عن محادثتـه ، فمضى الوقت وهما صامتان ، والسكون قائم الا أن يزرقه احتداد سليمان بك متة اذا استثاره سيد عارف . وأوردته افكاره المحمومة — فى صمته — مناهل سامة استقى منها خياله المحـزون ، فاستسلم لأمانى شيطانية مرعبة ، تمنى فى صمته غارة جنونية تقذف القاهرة بالحمم فتدك مبانيهـا وتلك بنيها فلا يبقى منهـا الا خرائب وآثار ،

وشخصان حيان لا غير ، هو وهى !! هنالك تصفو له بلا خوف ولا يأس ولا غيرة ولا جهد !.. وتمثلت لعينيه المظلمتين القاهرة المهدمة المحطمة ، والشخصان الشريدان ، يفزع احدهما الى الآخر لائذا بجناحه ساكنا الى ذراعيه ، والآخر سعيد - على ما يكتنفه من الخراب - بصاحبه متلذذا بانفراده به . انبعثت هـــذه الأمنية الغريبة من صدره وهو يفور بشـــعور طاغ بالاضطهاد والقهر والعذاب .

١٣

ولما خلا الى نفسه فى حجرته بعد منتصف الليل - تساءل ممتعضا الا يحسن به أن يقلع عن عادة فتح النافذة ، وان يغلق قلبه دون العاطفة الجديدة التى يسير الألم بين يديها ؟ أليس الموت مع السلامة خيرا من حياة القلق والعذاب ؟ بيد انه تناسى مخاوفه فى اليوم التالى وما بعده وصار بين النافذة والشرفة ميعاد يتجدد كل أصيل . ولم يعد شك فى أن الفتاة أدركت أن جارها الجديد يتعمد الظهور فى النافذة - أصيل كل يوم - ليبعث اليها بتلك النظرة الحيية الوجلة . ترى كيف تحدثها نفسها عنه ؟ أتهزأ بشكله ؟ أتضحك من كهولته ؟ أم باتت تضيق بخجله وجموده ؟ فمن عجب أن تتواتر الأيام وما يزال حريصا على ميعاده مترقبا لساعته ثم لا يستطيع شيئا الا أن يرسل هذه النظرة الخائفة ما أن تلتقى بنظرتها حتى ترتد فى خفر وقد اختلجت الأجفان . وما انفك شبح احمد راشد يطارده ويزعجه ، وما انفك يسائل نفسه الغيور أما ترشقه الفتاة ايضا بمثل هذه النظرة الحلوة ام تدخر له ما هو أجمل وافتن ؟! بيد أن لحظات الأصيل السعيدة كانت تنتشله دائما من هاوية الشك والقنوط . وجعل يهدىء روعه

ويقول لنفسه انها لو كانت تهوى الشاب البغيض لما منحته نظرتها الحنون مساء بعد مساء فعاوده الأمل وراجعه الرجاء . ولكن لم يكن طبيعيا أن يقنع بهذه النظرة ، وأدرك أنه ينبغى أن يخطو خطوة جديدة ، ولكن هل يستطيع ؟ هل يستطيع أن يهجم على الحياة لحظة كما استطاع أن يهرب منها عشرين عاما كاملة ؟ هلا أدام اليها النظر حتى تطرق هى حياء ولو مرة !. . . هلا حياها بابتسامة ؟ وتخيل أنه يديم اليها نظره ثم تخيل أنه يبتسم لها فتورد وجهه واضطرب اضطرابا عنيفا وغلبه الحياء والعجز على امره ! رباه أتجفل الكهولة من الطفولة ؟... أتفر الأربعون من السادسة عشرة ؟ لكم حسب فيما مضى أن الخجل داء يزول مع تقادم العهد ولكنه تشبث بطبعه حتى أدركه داء جديد هو داء الكهولة ، فلماذا يخلق الله قوما مثله لا يقدرون على الحياة ؟!. . والتمس فى يأسه سبيلا جديدا فقال لنفسه ان الذين يخافون النظر والابتسام يستطيعون بلا شك أن يكتبوا ، فلماذا لا يجرب وسيلة الكتابة اليها ؟. وراقه هذا الخاطر وفكر فيه تفكيرا جديا ، فالأمر لا يقتضيه الا أن يكتب كلمات فى ورقة ثم يطويها بعناية ويرمى بها الى الشرفة . هذا حسن . فكيف يبدأ خطابه ؟ أيقول مثلا حبيبتى نوال ؟. . هذا تصوير وقح . عزيزتى نوال ؟... ما يزال ذكر الاسم وقاحة . عزيزتى فحسب ، فهذا أليق بأدبه . ثم ماذا ؟. . ان الرسائل تبدأ عادة بالتحيات ، فليكتب لها تحية وسلاما . ثم ماذا ؟. . هل يصارحها بحبه ؟. . كلا هذا ما ينبغى أن يختم به ، واذا بدأ فليبدأ بالاعجاب والثناء ، ولكن كيف ينشىء عباراته ؟. . وكيف يتخير ألفاظه ؟. . أى الأساليب يعجبها ؟ وأى الألفاظ يحسن وقعها من نفسها ؟... وهبه فرغ من حل هذه المشكلات جميعا فماذا يسألها ؟. . أن تجيبه ؟. . أن تقابله ؟. بل هناك ماهو أهم من كل ذلك . ما الذى يدعوه الى الظن بأنها ستحسن

استقبال رسالته؟. من يدريه انها لاتمزقها وتقذف بها فى وجهه . . .
أو يغلبها السخط فتفضح سره وتشهر بكرامته؟ . . وعقله التردد بعد أن كاد يمسك بالقلم فتراجع لائذاً بالسلامة . على أن النافذة لبثت على ولائها للشرفة . واوفت كلتاهما بعهد لم يرتبطا به . فتلاقت العيون حتى تآلفت وتعارفت . وتجاذبت الأرواح دون أن يعوق تجاذبها الصمت أو الحياء . وبات يظن ـ لما يطالع فى نظرتها من العطف والصفاء ـ أنه ظلم الأستاذ أحمد راشد بأفكاره وعواطفه ، وأن الشاب ، ـ المشغول بالاشتراكية ومحو العقائد البالية ـ لا يفرغ للغزل والحب ، فذاق رحيق الأمل صافيا . ثم ادناه الحظ من الأمل والثقة بمصادفة : اذ شغله أبوه عصر يوم من ايام رمضان الأخيرة فمضى الأصيل دون ان يستطيع الظهـــور فى موعده من النافذة ، وانتظر الميعاد فى اليوم التالى بصبر نافذ ولكنه وجد الشرفة مغلقة !. . . وانتظر عبثا أن تفتح وأن تبدو بها فتاته ولكن على غير جدوى !. . . وظن أنه عاقها عن الظهور مثل الذى عاقه بالأمس ، لولا أن عثر بشبحها وراء خصاص باب الشرفة !. . فلم يشك فى انها تعمدت اغلاق الشرفة دونه كما فعل هو بالنافذة فى أمسه ومعنى هذا ـ ان صدق حدثه ـ أنها أحست غيابه أمس . بل لعلها استاءت منه واضمرت ساعتها عقابه وها هى ذى تحقق ارادتها . ومال الى تصديق ظنه . ولكنه لم يجد للعقاب المـاً ، وعلى العكس شعر له بلذة لا عهد له بها ، فطرب طربا استخفه وجعله يفرقع بأصابعه ويذهب ويجىء فى الغرفة ذاهلا عما حوله . وفى اليوم التالى أقبل على النافذة بروح جديد ممتلئا ثقة واملا ، فشعر بوجودها قبل أن يرفع اليها عينيه المستطيلتين ، وكان عزم أن يرمقها بنظرة استفهام وعتاب كانما يسألها « لماذا اختفيت أمس » . فالآن جاء وقت التنفيذ !. . رفع رأسه الصغير فالتقت

العينان ! ونادى شجاعته ليرفع حاجبيه ويحرك رأسه مستفهما مفكرا ، أجمع عزيمته كمن يتوثب لالقاء نفسه الى حوض السباحة لأول مرة ، ودفع نفسه للقفز ، ولكنه جمد لحظة أكثر مما ينبغى فانتهز عقله الفرصة ورمى فى طريقه بخاطر من خواطر الشك والخوف فخاف أن يعثر به فاستطردت ارادته وانتثر عزمه وجفل متراجعا ! . وفى تلك الليلة أنب نفسه تأنيبا قاسيا ، وطرق صلعته بشىء من الحدة وصاح غاضبا : « أما من ذرة رجولة !! » وهكذا أحبها . احبها لعينيها النجلاوين ونظرتها اللطيفة الساذجة وخفة روحها . احبها لأن أحلامه ــ والأحلام هى الفن الوحيد الذى اتقنه فى دنياه ــ أبت أن تغيبها ساعة عنه ، ولأنه جائع ــ جائع فى الأربعين ــ والجوع من بواعث الأحلام !..

١٤

ثم كانت ليلة القدر من الشهر المبارك فاحتلفت بها الأسرة احتفالا بدا فى الدجاجة المحمرة التى ازدانت بها سفرة الافطار وصينية الكنافة ، وعند العشاء راحت الست دولت تدعو لبعلها بالصحة ولولديها بطول العمر والسعادة . أما عاكف أفندى ــ الأب ــ فذهب الى مسجد سيدنا الحسين لشهود احتفال رابطة القراء بالليلة المفضلة ، فكانت ليلة سعيدة ؛ وقبل أن يأووا الى أسرتهم قبيل الفجر اطلقت صفارات الانذار فارتدوا معاطفهم وهرعوا بين جموع السكان الى المخبأ الذى باتوا يعرفون طريقه بغير حاجة الى ارشاد الخدم . وامتزج انزعاج أحمد بسرور خفى لأن المخبأ يدنيه من نوال ويمتع ناظريه باجتلاء محياها المحبوب . ورأى

فى المخبأ أحمد راشد وسيد عارف واقفين يتحدثان فانضـم اليهما ـ وكان موقفهما قريباً من الركن المرموق ـ وما ان رآه المحامى حتى قال له :

ـ أما سمعت ما يقول سـيد أفندى ؟ . يقول ان خطوبة سليمان عتة لكريمة العطار تمت اليوم !

فقال سيد عارف مبتسما :

ـ نعم يا سيدى . . فرح « ميمون » !

وعاد أحمد راشد يقول بحدة :

ـ أنظر الى المال كيف يستذل الحسن ؟ ان أقبح ما فى عالمنا هو خنوع الفضائل والقيم السامية للضرورات الحيوانية . فكيف سامت الحسناء نفسها قبول يد هذا القرد الدميم ؟!. ولن يكون اجتماعهما زواجا ولكنه جريمة مزدوجة تعد من ناحية سرقة ومن الأخرى اغتصابا . ولن يزال جمالها فاضحاً لقبحه ، وقبحه فاضحاً لجشعها . .

ثم ابتسم الشاب ابتسامة خفية واستدرك قائلا :

ـ لا يمكن أن تقترف هذه الجريمة وأمثالها فى ظل الاشتراكية !

وهنا علا صوت رجل يقول متذمراً :

ـ ألم يقولوا ان الألمان لن يغيروا على مصر فى شهر الصيام ؟ !

فتحول اليه سيد عارف وقال :

ـ ولكن الانجليز يغيرون على طـرابلس وهى بلاد مسلمين كذلك !

ثم قال لصاحبيه بلهجة اليقين :

ـ الانجليز لا يضربون طرابلس لفائدة حربية ولكن ليجبروا الألمان على ضرب القاهرة !

ولم يعن احمد بالمناقشة لأنه كان يتلقى رنوة ساجية من بين الجموع الغافلة . ولكنه لم يهنأ بها طويلا فان صوتا غليظا صاح بقوة:

« صه .. أزيز طيارة ! » وساد على الأثر صمت شامل وأرهفت الآذان حتى صاح صوت آخر « كلا .. هذه سيارة الشرطة » فقال الأول : « بل أزيز طيارة .. اسمع ! » وانصتوا جميعا فترامى الى الآذان أزيز طيارة حقا يهبط من جو سحيق ، فاضطرب قلب أحمد وتحول بصره نحو والديه فرأى أمه مصوبة عينيها نحو سقف المخبأ وأباه مطرقا . ثم سمعوا طلقة مدفع مضاد بعيدة تلتها طلقات كثيرة متقطعة . وسكت الضرب لحظة ثم عاد أشد مما كان ، واتصلت الطلقات واختلطت ، فانتشر الذعر وثرثرت الألسنة فى هذيان . وقال واحد من الخائفين الذين يستجدون الطمأنينة : « هذا الضرب فى الماظة مؤكد » .. فارتاح كثيرون الى تأكيده وآمنوا على قوله بغير وعى . وذهب الى والديه وسأل أباه — وان كان فى مثل حاله من الذعر والاضطراب — : « كيف الحال يا أبتى ؟ » فأجابه الرجل بصوت متهدج : « ربنا موجود » واستمر اطلاق المدافع وتعددت مصادره ؛ وجعل سيد عارف — على اثر كل طلقة مدفع — يذكر اسم الناحية التى أطلق منها كأنه الخبير العليم فيقول : « مدفع العباسية .. الماظة .. بولاق .. وهذا مدفع القلعة الخ الخ » ولما انطلق مدفع بعنف فاق ما سبقه شدة قال الرجل : « هذا مدفع المانى ابتاعته الحكومة من المانيا قبل الحرب ! » . ولكن أخذ كثيرون يضيقون بالمتكلمين وينتهرونهم فاشتد اللغط . ثم جاءت لحظات أخرى عنف فيها اطلاق المدافع واتصل اتصالا مخيفا فارتجت الأعصاب ووجبت القلوب . تلك لحظات قصار ولكن يقاس زمانها الثقيل بتردد الأنفاس وخفقان القلوب فكان المرء يحمل الدهر على عاتقيه . ثم خف عنف الاطلاق رويدا ، ثم لم يعد يسمع الا فى ناحية واحدة ، ثم سكت آخر مدفع واخلف السكون . ولم يدر أحد هل يستأنف الاطلاق أو انتهت عقوبة الليلة ، الا أن الأنفس أخذت تسترد من

الراحة ما تبل به جوانح احترقت أو كادت . ومضت فترة وجيزة في سكون ثم انطلقت صفارات الأمان ، فنهض القوم متشهدين ، وارسل احمد عاكف ناظريه الى هدفه المنشود فالتقيا بنظرة جادت بها له . فسر بها سرورا مسح عن صدره الضيق آثار القلق والخوف . ورآها تسبق اسرتها نحو باب المخبأ حتى اذا بلغته عطفت رأسها نحوه ورمته بنظرة ذات معان ثم ارتقت السلم على عجل ، فشعر الرجل ــ بقلبه الجذلان ــ انها تدعوه الى اللحاق بها ، وللأعين كما للغرائز لغة سرية صامتة ، فتولاه التردد والحياء ، الا أن مروقها الى الخارج بث فيه شجاعة وقتية تغلب بها على تردده وحيائه فاتجه نحو الباب سابقا والديه والخادم ، وارتقى السلم متسائلا ترى هل يجدها أمام الباب ؟ وما عسى أن يقول او يفعل ؟ ولكنه رأى شبحها قد ابتعد عن مدخل المخبأ أذرعا فى طريق البيت ، ولم يكن فى الطريق غيرهما فهما أول اثنين غادرا المخبأ ، فاذا أوسع خطاه أدركها فى أقل من الثانية وأمكنه أن يسايرها شارع ابراهيم باشا ، وأن يرتقيا معا ــ منفردين ــ سلم العمارة . تخيل ذلك بسرعة ولكنه لم يكد يبدى حراكا ، أو تحرك بالأحرى خطوات معدودة ، فاتسع ما يفصل بينهما من مسافة حتى بانت قريبة من مدخل العمارة ، وغل الحياء والارتباك ارادته فجعل يتلفت خلفه كأنه يدعو والديه الى اللحاق به لينقذاه من ورطته ، وعبثا حاول أن يقاوم حياءه أو ارتباكه أو أن يجمع ارادته على اللحاق بها فادركه القادمون وما يزال موزع الفؤاد بين الخوف والرغبة ، ثم اختفت الفتاة داخل العمارة ، وانتهى الخوف والتردد والرغبة والأمل !. ثم سار مع والديه يعالج فى صمت حسرة أليمة منتزعة من صميم الضلوع ، وطفق ينظر الى السلم ــ وهم يرتقونه ــ بأسف ذاكرا انه لو قهر خوفه لانفرد بها فيه ــ على أنه سأل نفسه « ما ذا كنت أقول لها ؟ » . . هبه كان تشجع

وحياها وردت هى تحيته بابتسامة او كلمة أو ايماءة ــ بصرف النظر عن أن التحية فى ذاتها مشكلة فلم يكن يدرى ما الأوفق ان يقول : صباح الخير .. سعيدة .. السلام عليك الخ ؟! ــ هبه حياها وردت تحيته فماذا كان يقول بعد ذلك ؟!.. أيصمت حتى يفترقا عند شقته ؟. أم ماذا يقول العاشقون فى أمثال هــذا الموقف ؟. الا ما أكثر العاشقين ! . ولشد ما يتهامسون ويتناجون فى الطرق والمركبات فكيف فقد النطق بلغتهم المحبوبة ؟.. وعاد الى حجرته ممتلئا أسفا ، بيد انه كان على هذا فرحا مسرورا ، بل كان ثملا بنشوة سرور لم تعهد القلوب الذ منه ، فمهما يكن من امر نفسه فلا يمكن أن ينسى أنها رمته بنظرة نداء ــ وهى من معجزات السرور فى شريعة العاطفة ــ وهى خليقة بأن يسر لها سرورا خالصا لا شأن له بحيائه ولا بحسرته !. ولاحت منه نظرة الى النافذة ــ وقد غدا يدعوها نافذة نوال ــ فحن قلبه المنتشى الى أن يرسل بنظرة الى الشرفة ، ففتح النافذة ورفع رأسه فرأى لعجبه بابها مفتوحا ومصباح الحجرة مضاء والفتـــاة واقفة على عتبة الباب ! . ما الذى دعاها الى باب الشرفة فى تلك الساعة من الفجر ؟.. وكان يرى شبحها من غير أن يميز معــــارف وجهها لوجود المصباح وراءها ، وكذلك كان مصباح حجرته فأيقن أنها لا ترى سوى شبحه ــ وشجعه ذلك على الثبات والتحديق فيها ــ ولم يمتد به الوقوف طويلا حتى فجأته بأسعد مفاجأة جادت بها حياته : فأومأت له برأسها تحية !. وغمره الذهول ، ولكنه لم يغلب على أمره هذه المرة فحنى رأســـه ردا على تحيتها ! ..

وتراجعت الفتاة مسرعة حياء وأغلقت باب الشرفة ــ وهو ينظر ــ ثم أطفأ النور ، ولبث الكهل بموقفه مدة من الزمن لا يدريها ، ولا يدرى بنفسه ، ثم أغلق النافذة ، وجثا على ركبتيه واضعا راحتيه على صدره ، وهمس بصوت منخفض «اللهم حمدا وشكرا! » ...

١٥

واستيقظ فى صباح اليوم الثانى متعبا لأن السرور - كالحزن - عدو للنوم قديم . بيد أنه استهان بتعبه لنشوة صدره وفرحة قلبه . وهل ظفر بمثل ذاك الصباح السعيد منذ عشرين عاما ؟. فغادر البيت منشرح الصدر ، بسام الثغر ، خفاق القلب خفقان الشباب النضير ، بعد أن أصبح أخيرا من الزمرة التى طالما رمقها بعين الحسد والغيرة . زمرة المحبين المحبوبين !. وصفا فؤاده ذاك الصباح فلم تنهشه آفة من آفات البغضاء ، واستراح - ولو الى حين - من أطياف اخفاقه الجاثمة فى ظلمة ذكرياته كالخفافيش ، فلم يتوثب لجدال ولا تحفز لمعارضة ولا تشاجر مع أحـــد من الموظفين ، وغمرت مستنقع المرارة الآسن المستقر فى أعماقه موجة راقصة من الحبور .

وعند عودته ظهراً وجد خطابا فى انتظاره ، عـــرف خط صاحبه من أول نظرة ألقاها على الظرف - وهو خط صغير جميل يشبه خطه من جميع الوجـــوه ، فابتسمت أساريره ، وفض الخطاب ثم قراه حتى فرغ منه وقال :

- سيأتى رشدى أخى صباح نهار الوقفة .

فاستقبل الوالدان الخبر أجمل استقبال ، وان كانا يعلمان من قبل - بالبداهة - أن الشاب لابد أن يمضى اجازة العيد فى القاهرة . الا أن الخطاب حوى أنباء أجمـــل مما توقع الوالدان فاستدرك أحمد يقول :

- ويقول رشدى انه صدر أمر بنقله من أسيوط الى المركز الرئيسى بالقاهرة وسيتسلم عمله الجديد بعد عطلة العيد مباشرة !

وسر الوالدان سرورا كبيرا ، وقالت الست دولت :

ـــ سنستقبل عيدين سعيدين . لهفى على الغلام العزيز ، كيف قضى ذاك العام وحده فى أسيوط !

فابتسم أحمد قائلا :

ـــ ادعى الله أن يكون تعود حياة غير الحياة التى ادمن عليها فى القاهرة من قبل !

ثم أوى الكهل الى حجرته وخلع ملابســـه واستلقى على الفراش كعادته ليقيل حتى الأصيل ــ أو حتى ميعاد الحب ــ كما ينبغى أن يسمى منذ اليوم ـــ فشغله الخطاب ردحا من الزمن عن النوم وعن احساسات اليوم السعيدة ، وامتلأت نفسه بذكريات شقيقه الأصغر .

يندر أن يستثير انسان من العواطف المتباينة ما استثاره رشدى عاكف فى صدر اخيـــه الأكبر من علل السخط ودواعى الحب . فانه طالما استوجب سخطه فى الماضى منذ أجبره واجب كفالته على التضحية بمستقبله (وعبقريته !) ، ثم أسخطه فى فتوته بتكالبه على الشهوات واقامته على اللذات واعراضه عن النصح . ولكنه من ناحية أخرى أحبه أكثر من أى شىء فى الدنيا. أحبه لأن الشـــاب آثره بحب فاق ما يكنه لوالديه من الحب والاجلال ، وذكر له دائما رعايته وكفالته أجمل الذكر ، وأحبه لأنه صنعه بيديه . غذاه بروحه ورباه بماله فكان الشقيق الأكبر وكان الوالد الحنون ؛ تمتع بطفولته ، فحمله على يديه وعلمه النطق ودربه على المشى ، ورعى صباه ووجه تعليمه ــ ثم عد نجاحه بعد ذلك ـــ بعد تعب ولأى وعثرات ــ ثمرة كفاحه ، ومفخرة جهاده ، ومذكرا دائما بتضحياته . وفضلا عن هذا جميعه ، كان الشاب ذا شخصية خليقة بأن تحب ، كان لطيفا خفيفا مرحا ، ورث عن أمه تلك المقدرة التى تفتح له القلوب بغير جهد ولا تكلف ، لما طبع عليه ــ كلاهما ـــ من الجمال والصفاء والوفاء وحب العشرة

والألفة . ولكن والأسفاه أخطأه الاعتدال والرزانة والحكمة ، وجرت الحياة فى أعصابه زاخرة جائحة ، فاستأدته غرائزه الجهد الجهيد ، ودفعته قفزا ووثبا بغير رادع . وقد كان منذ البدء جسورا مقتحما متمرسا بالحياة . ذلك أن الذى وكل برعايته — أخاه — ظل دائما مصفدا بأغلال التدلل والخوف ، فمال الى الاعتماد على الطفل الذى يربيه — فيمن يعتمـــد عليه — فى قضاء حاجاته ، وابتياع لوازمه واستعارة كتبه ، فاكتسب الصبى خبرة بالدنيا واعتمادا على النفس وجسارة ورجولة ، وصارت حاجة راعيه اليه لا تقل عن حاجته هو الى راعيه . ولكنه عرف الدنيا وجال فيها بغير المبادىء الحقيقة بأن تعصمه من زلاتها ، فمنذ أن أحيل عاكف أفندى على المعاش انطوى على نفسه تاركا أمر الأسرة لابنه وزوجه ، ولم يجد رشدى فى هذين العزيزين الحزم الذى يرشده ويعصمه ، فضل السبيل وتخبط على غير هـــدى ، ولولا دماثة خلقه ، ورقة طبعه ، لربما جاوز مفاسد الشـــهوات الى مهالك الجرائم ...

ولكم بشرت حياته المدرسية — فى عهديها الأول والثانى — بالنجاح ، حتى قال أحمد عاكف أن أخاه ورث عنه بعض صفاته العقلية ! ولكن الحال تغير بعد أن صار طالبا بكلية التجارة . هنالك اعتوره الفساد ، فانجذب نحو زمرة من الشبان ولهجوا جميعا بمعاقرة الخمر ولعب القمار والتخبط فى بؤر التهتك ، واندفع مع التيار فى جنون . فاستدان مرات ، وأهمل حياته الدراســـية حتى أوشك أن يفسد ما بينه وبين شقيقه ، ثم بلغ ذروة جنونه حين فكر جديا أن يقطع حياته الجامعية ليتوفر على تعلم الموسيقى والاشتغال بالغناء — لا لشىء — الا ما بلغه من بوهيمية المغنين وحظهم من ولع النساء ، وما عهده فى نفسه من رخامة الصوت وحلاوته . ونفد صبر أحمد عاكف فأنذره بالكف عن الانفاق عليه اذا لم يمسك عما هو آخذ فيه من المجون والاستهتار ، وبلغ منه

الغضب أحيانا أن شعر بأنه يمقته مقتا ، بل حقـــد عليه أخذه بأسباب حياة يعجز هو عن الأخذ بأسبابها ، ويتلهف حسرة على ألوان منها !. ورغم ذلك كله لم تنقطع صلات المودة بين الشقيقين بفضل مواهب الأصغر ، فكان اذا شد أخوه أرخى ، واذا قطب ابتسم ، واذا سب ولعن تضاحك وقبل يده أو لثم كتفه ، واذا كور له قبضته مازحه فى أدب ولين . ثم انتهت تلك الحياة بمعجزة ، أجل انتهت بمعجزة والبكالوريوس ، مما دعا أحمد على أن يقول متهكما : « هكذا يحصل الطالب على الشهادة التى تفضل الحكومة حامليها على أمثالى ! ؟ » بيد انه تنفس الصعداء ، وأيقن أن مهمته قد انتهت ، ولم يعد يشغل نفسه ــ أكثر مما ينبغى ــ باستهتار الفتى بعد أن صار المسئول الأول عن حياة نفسه ، فصفا بينهما الجو ، وعاد الى الحب الذى لا تشوبه شائبة كما كانا من قبل ــ على عهد طفولة رشدى وصباه ــ بل رفعت الكلفة بينهما فربما قص الفتى على شـــقيقه المحبوب ما يلقى من تجارب الهوى والحب . وكانت له فى الهوى أهواء ، وفى العشق فنون فعرف الحب الآثم والحب الطاهر ! وتقلب فى مظان السوء كما جرى وراء الحسان فى السبل والميـــادين . وضم « ألبومه » صورا لفتيات حسان وقعن عليها بخطوطهن القلقة اللطيفة تلك العبارة الغريبة : « الى خطيبى العزيز رشدى ! » . ولم يكن يقصد العذارى بسوء ، ولا كان يسيغ الغدر بيسر وسهولة . وحقيقة الحال أنه كان يقع سريعا فريسة لعواطفـــه المشبوبة ، فليس أيسر من أن يصير عاشقا ، بل وعاشقا بصدق واخلاص ، ولكن فى الساعة التى هو فيها ، فلم يحلف كذبا قط ، ولكنه حنث بأيمانه مرات !

فحدث كثيرا ــ فى هيجان العاطفة ــ أن بذل وعده صادقا مخلصا فكانت خطوبة ! ، ثم لم يدم ذلك الا ريثما تهدأ العاطفة أو يجد النوى أو يحـــدث أمر ما : فلم تعرف حياته الهـــدوء ولا السكينة ولا الراحة ، وباتت مرعى خصيبا للشهوات والملاذ ،

فنالت منه حتى أعيته ونهكته ، فنحف وهزل وصار – على حد تعبير والدته – كالعود . وكان أحمـــد – الذى يحبه ويشفق عليه – يرمقه بعينين قلقتين ويقول له : « ارحم نفسك » فيجيبه بمرحه المألوف « يرحمنا الله واياكم ! » . ومن منذ عام انتدبه البنك للعمل فى فرع أسيوط فسر أهله – على أسفهم وحزنهم – وتعلقوا بأمل واحد أن يعتاد الفتى فى المقام الجديد – مقام غربته – حياة معتدلة غير حياته الأولى ترد عليه بعض صحته ، وتمسك عليه بعض نقوده ؛ ولذلك تلقوا خبر نقله الى القـــاهرة بسرور ورجاء ، ينطويان على اشفاق . . .

١٦

ولم يبق من رمضان الا ثلاثة أيام . وأسف أحمد على اقتراب نهاية الشهر الكرم ، وهل ينسى فضله ورحمته ؟.. وهل ينسى موعد الأصيل منه حيث ولى عثار حظه ووحشة قلبه مع شمسه الغاربة ؟ وبات يسائل نفسه ترى أين يكون الموعد غداً وماذا تخبىء الأيام ؟ . أما الست دولت فنشطت هى والخادم ليعدا حجرة الشاب القادم من أسيوط . وكانت الحجرة تلى حجرة الوالدين ، وتطل نافذتها الوحيدة على الطريق المؤدى الى خان الخليلى القديم – كاحدى نافذتى حجرة أحمد – فكنست الحجرة وغسلت ثم فرشت وباتت تنتظر القادم فى أجمل صورة . ثم أخذت المرأة أهبتها لخوض غمار معركة موسمية – لغزو ابنها أحمد كالمعتاد – لمناسبة حلول عيد الفطر أو عيد الكعك كما يحلو لها أن تسميه ، فانتهزت فرصـــة انفرادها بالرجل بعد الافطار وراحت تودع رمضان بكلام طيب مترحمة على عهده وختمت كلامها قائلة :

ــ لم يبق الا يومان ، وبات الانسان يشم رائحة الكعك الطيبة في الجو !

وكان يتوقع مثل ذاك الكلام ، ويعلم أن المعركة آتية لا ريب فيها ، وأنه مغلوب على أمره مهما قال أو تشبث ، ولكنه لم يتعود أن يضحي بقرش قبل أن يريح ضميره بالدفاع عنه فقال متهرباً :

ــ في مثل هذا الزمان لا يتشمم الناس رائحة الكعك ، ولكنهم يسألون الله الستر ، وأن ييسر لهم ضروريات الحياة ، أما أنت يا نينة فلن تزالي متلهفة على الكماليات التافهة بغير رحمة بجيبي . يا هوه ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء !

فحدجته بنظرة تأنيب واغراء ، ثم أرعشت حاجبيها المزججين في ابتسام وقالت :

ــ آه منك آه . لكم تغضب على أمك بغير سبب كأنها غير التي احبتك ودللتك . أتدعي الفقر وأنت الخير والبركة ؟ .. أتتناسى أنه جاءت نوبتك لتدلل أمك ؟ ولن أشق عليك يا زين الرجال فنحن نرضى بالقليل اكراما لك !

وعلم انها لن تيأس ابداً ، ولن تنى حتى تظفر بسؤالها فتاؤه قائلا :

ــ أف . . أف . .

فقالت مبتسمة :

ــ أف لعيد بغير كعك . أنستقبل العيد بلا كعك وأنت رجلنا ؟!

ــ الكعك فرحة الأطفال .

ــ والرجال والنساء ، والعيد عيد الناس جميعاً . ألم تر الى أبيك كيف جهز نفسه بعباءة جديدة يصلي بها العيد ؟ . . . وكيف ابتعت أنت بدلة وطربوشاً وحذاء مباركة عليك باسم الرحمن ؟ . . اما سروري أنا بالعيد ففي العجن والنقش ورش السكر والحشو بالعجمية .

***

وفى الصباح الباكر من يوم الوقفة اخذ سمته الى محطة مصر ليكون فى انتظار الشاب القادم . وكان الجو رطباً ولكنه محتمل البرودة فجلس على أريكة على « رصيف الصعيد » ولم يبق على قدوم القطار سوى دقائق . وتولاه ما يتولاه عادة من القلق اذا وجد بمحضر القطر المردة فرآها تنفث الدخان وتطلق الصفير الحاد . ولم يكن استقبل قطاراً قط ولا غادر حدود القاهرة، ولا هزته رغبة فى يوم ما الى الارتحال والسفر ، فتخيل السجن اخف على نفسه من الاقامة فى بلد نازح . ولاشك أن جفوله من ملاقاة العالم الخارجى هو الذى بث فى روحه كراهية الأسفار ، ولكنه كان يفسر تلك الكراهية — كعادته فى تفسير كل ما له شأن بسلوكه وطباعه — بأنها سجية المفكر الذى يحب المعنويات ويزهد فى المحسوسات ، ألم يعش ابو العلاء رهين المحبسين ؟ . وخفف من غلواء قلقه سروره بمقدم رشدى ، شقيقه وابنه ! وما ينتظر من معونته على النهوض بالتبعات الملقاة على عاتقــــه وحده ، ومايحدثه محضره من ألوان التسلية والبهجة . وما لبث أن رأى الروءس تتطلع نحو الجنوب ، والنشاط والحركة يشملان المكان فنظر مع الناظرين فرأى القطار قادماً متمهلا ، وما عتم ان ذاع ضجيجه فاهتزت له جوانح الأرض ، وملأ منظره الأعين . وأخذ يقترب رويداً رويداً وقد امتلأت نوافذ عرباته بالرءوس المتطلعة حتى وقف شاغلا الرصيف الطويل وهرع نحوه المنتظرون . وجرت عينا الكهل عى النوافذ وهو يزحم المتدافعين حوله حتى ظفر بضالته فى مقدمة عربة من عربات الدرجة الثانية ، وكان الشاب القادم يعطى حقيبته لأحد الحمالين ، فهتف أحمد باسمه ولوح له بيده وهو يدنو من العربة . فالتفت الشاب اليه ، ثم قفز الى الأرض فصار تلقاء شقيقه . وسلم الأخوان بحرارة ، وشد أحمد على ذراع الشاب قائلا :

— حمداً لله على السلامة . كيف حالك يا رجل ؟ !

فقال الشاب بسرور وقد تورد وجهه المتعب من وعثاء السفر:
ـ الحمد لله يا أخى . . كيف انت ؟ . . كيف الوالدان ؟
وسارا جنباً لجنب نحو الخارج يعلوهما البشر . كانا ذوى طول واحد ونحافة متشابهة ، ولا يخطىء الناظر اليهما انهما شقيقان على ذبول الأكبر ونضارة الأصغر ، فملامحهما متقاربة . الا انها بلغت فى وجه رشدى مداها من الحسن ، وحال بينهما وبين ذلك فى وجه الآخر اما انحراف أو تجهم أو اعياء . فلرشدى أيضا ذلك الوجه الطويل النحيل ولكن ليس له خدا أحمد الذابلان ، وسمرته ـ وان أعتورها شحوب ـ صافية يجرى فيها ماء الشباب ، وعيناه مستطيلتان متباعدتان الا أن حدقتاهما أوسع ، ونظراتهما انفذ ، والتماعهما خاطف يدل على حدة المزاج وروح الفكاهة والجسارة . سارا متكاتفين ، وسرعان ما شعرا بدبيب الرغبة فى الكلام يتحرك فى أعماقهما شأن المتقابلين بعد فراق طويل ، فلم يدريا ماذا يتركان وماذا يأخذان . ثم اهتدى الشاب الى حديث فسأل أخاه :
ـ قبل كل شىء كيف حال نينة ؟
ـ كما تحب أن تكون . وما زالت تجرى وراء رغبات الأطفال دون مبالاة بارهاقى ، فتقدم يابطل وخذ نصيبك !
ـ لم أنس نصيبى وأنا فى أسيوط فابتعت لها حلياً عاجية وطباقاً فاخرة وبخورا لطيفاً أرجو أن يوافق « أسيادها » (وضحك ضحكة عالية) . . . وأبى ؟ . . كيف حاله ؟
ـ كعهدك به .. عبـــادة فى البيت ، وزيارات لبيوت الله ؛ وها قد أدنتنا الظروف من سيدنا الحسين فطوبى له !
فقال رشدى مبتسما :
ـ لكم ادهشنى انتقالكم الى الحسين !
وهنا بلغا فناء المحطة فأمسكا ريثما اســـتقلا عربة ، ونقد الشاب الحمال أجرته ثم سارت العربة سيرتها الثملة المريحة تخترق ميدان المحطة المترامى الأطراف فأجال الشاب فيه عينيه العسليتين

الجميلتين ، فتخاطفت السيارات والعربات والترامات والمـــارة ناظريه ، فنقر بأصبعه على جبهته وقال :

ــ يكاد رأسي يدور ، وكأني أرى الترام والمترو لأول مرة . أتذكر نادرة الريفي الذي جاء مصر لأول مرة فلما اشرف على هذا الميدان ريع وفزع ، ثم تراجع الى القطار وهو يقول متأسفا : «جئت متأخرا فأهل البلد يرتحلون ! »

فضحك أحمد الذي تلذه فكاهة الشاب ونوادره وبساطته . ومن حسن الحظ أن رشدى لم يكن « جامعيا » بالمعنى العميق ــ فلا يطرق موضوعات العلم ولا يذكر اصطلاحاته ــ والا لوجد فيه نوعا من « أحمد راشد » ، وأجمل من هذا أن الشاب كان من المخدوعين فى ثقافة أخيه فظنه عالما متفقها وآمن بعقله كما يؤمن به الآخر . اما أحمد فسر بايمان شقيقه به ، ورأى فيه رمزاً حيا لايمان الجامعة المصرية بعبقريته العصامية ! . قال الشاب بحماس :

ــ القاهرة نعمة من نعم الله ، هى الدنيـــا والدين ، الليل والنهار ، الجحيم والجنة ، الغرب والشرق . كان النقل معجزة !

ــ لا بد أنك ضقت ذرعا بأسيوط !

ــ كما ينبغى أن أضيق ذرعا بأى مكان غير القاهرة !

فتفحصه بنظرة ثاقبة وقال :

ــ السجن مفيد لأمثالك ، ومع ذلك فانى لا ارى آى الراحة فى وجهك !

فابتسم الشاب عن أسنان بيضاء منتظمة وقال كالساخر :

ــ اذا اجتمع موظفان فى بلدة كانت مائدة القمار ثالثهما !

فتنهد أحمد قائلا :

ــ أقضى أن تحرم من نعمة النوم أبدا ؟!

ــ نعمة النوم ؟!.. النوم فى الحقيقة نقمة !.. انه اختلاس جزء طويل لا يقوم بمال من حياتنا القصيرة !

ــ أنت لا تدرى مما تقول شيئا !

ـ أنت يا أخى رجل حكيم ، وأنا شاب مجنون ، وهذه هى فلسفة المجانين .

ـ اذاً ستعود الى . . .

ـ باذنه تعالى !... قابلت فى أسيوط رجلا مولعا بالضحك كان يقول ان غذاء الصحة الحقيقى هو المـــرح ، فاذا صح ذلك فالعربدة من أنفس الفيتامينات !

ـ واذا لم يصح ؟!

ـ فلندع الله أن يكون صـــحيحا . ولكن قل لى متى كنت سمينا ؟!

ـ أنت تعلم أنى لا أكف عن التفكير والدراسة !

ـ هذا حق . وربما كانت النحافة ـ أيضـــا ـ طبيعة فى أسرتنا !

ـ ووالدتك ؟!

فضحك رشدى حتى بدت نواجذه ، وخلع طربوشه عن شعر أسود لامع ينشق وسطه عن مفرق ابيض جميل ، وقال وقد رقق الحنان نبراته :

ـ ولكنها صناعة العطار ! كم شاقتنى رؤيتها ! أما تزال تذكر الزار ؟

فقال أحمد بتأفف :

ـ كفت عن ذكره صراحـــة ، ولكنها ربما شكت ـ عرضا ـ قسوة من حالوا بينها وبينه !

ـ أمنا لطيفة كالملائكة لأنها لا تغضب ، ولا أكاد أذكرها الا راضية أو ضاحكة .

فابتسم أحمد ، واستطرد رشدى :

ـ والعفاريت عقيدة وان لم يتفق لى رؤية أحدها على طول عهدى بالطرقات المقفرة فى الهزيع الأخير من الليل .

ـ الانسان هو شر العفاريت . انظر الى الحرب !

فضحك رشدي ، وذكرته الحرب بأمر الانتقال من السكاكيني ، فقال :

ـ هكذا أجبرنا الانسان العفريت على هجر حينا القديم ، يا عجبا .. الا تعلم يا أخي بأنه لم يسبق لي أن رأيت خان الخليلي هذا !

فنبه ذكر « خان الخليلي » في قلب الكهل سرورا عميقا ، وهز نفسه حنانا فقال :

ـ ستراه صباح مساء !

ـ أكان الحال خطيرا لحد أوجب الهجرة ؟

ـ نعم كان . وحسب كثيرون أن الغارات ستستمر بوحشية تودى بالقاهرة ، كما أودت بلندن وروتردام ووارسو ، ولكن الله سلم . وكان الوالد في اعياء خطير فلذنا بالفرار !

فهز الشاب رأســـه أسفا ، ولاحت منه التفاتة الى الطريق فرأى ميدان الملكة فريدة والعربة تعبر جناحه الى شارع الأزهر ! فدعا منظره ذكريات مواعيد غرام لا تنسى ، هفت على قلبه ، كما تنسمت ريح على جمرات ناعمة ، فابتسمت أساريره وهزه الطرب . ثم استطرد متسائلا :

ـ وكيف وجدتم المقام الجديد ؟

لو طرح عليه هذا السؤال قبل لما وسعه الكلام ذما وقدحا ، اما الآن !!

ـ انتظر حتى تراه بنفسك يارشدى ، وستألفه ولو بعد حين .

ـ والجيران ؟ !

ـ أوه ... غالبيتهم من أهل البلد ولكن كثيرين من سكان العمارات الجديدة من طبقتنا !

ـ وهل وجدت فيه مكانا صالحا للتفكير والدراسة ؟

فسره الســـؤال ، كما ينبغي أن يسره كل ما يذكره بانه « مفكر » . وقال :

ـ يقول المثل « البس لكل حال لبوسـها » ولذلك تجدنى أفضل أن أمضى أول الليل فى القهوة مع بعض الصحاب الجدد حتى اذا كف الراديو أو سكتت الضوضاء غدت الى حجرة الدراسة !

فضحك رشدى قائلا :

ـ أعرفت أخيرا الطريق الى المقاهى ؟

فقال الأخ مبتسما :

ـ تلك مقتضيات المقام الجديد !

ووقفت العربة عند مدخل خان الخليلى ، فغادرها الرجلان وتبعهما الحوذى حاملا الحقيبة . ولما ولجا التيه قال أحمد :

ـ انتبه جيدا الى ما يحيط بك ، واحفظ المسارب عن ظهر قلب والا ضللت فى معارجها !

واقتربا من العمارة ، ورأى أحمد أمه تطل من نافذة حجرته فلكز شقيقه فى ذراعه مشيرا الى النافذة ، فرفع الشاب رأسه فوجد أمه وقد عصبت رأسها بمنديل بنى وأخذت زينتها كأنما هى عروس تتصدى لعريسها ، وما أن التقت عيناهما حتى فتحت له ذراعيها تدعوه الى حضنها . وقبـل فوات دقيقة كان بين ذراعيها البضتين فى عناق حار .

١٧

وجلسوا جميعا حول المائدة ـ وقد جاء أبوه أيضا ولثم الفتى ظاهر يده ـ وأخذوا بأسباب الحديث فى شوق ولذة ، فتكلم الشاب عن أسيوط وأهلها والغربة والحنين الى الأهل والوطن ، وتكلم الأب عن الغارة والمشاعل التى أسقطتها الطائرات ، وحدثته أمه عن جارتها والمعلم نونو وأزواجه الأربع ، ثم لاحظت المرأة أن

وزنه لم يزد رطلا واحدا ، وانتقلت الى الكعك فبشرته بأنه سيأكل كعكا لذيذا لن يذوق مثله أحد فى مصر جميعا ، ثم سارت أخيرا بين يديه الى حجرته . وعندما خلا الشاب الى نفسه لم يعد يحاول اخفاء استيائه فلاحت أماراته فى وجهه الجميل ، وقد انقبض صدره منذ رسم الخطوة الأولى على عتبة خان الخليلى ، فلما دخل الشقة هاله ضيقها ، وأيقن أنه لن يطمئن له جانب فى هذا المقام الجديد ، وضاعف من سخطه أن أصحابه جميعا فى السكاكينى وما حوله وأنه سيرغم — بعد قضاء سهرته بينهم — على قطع طريق طويل الى هذا الحى ثم على التخبط فى طرقاته الضيقة ليلا وهو ثمل ! ونفخ من الغيظ ، ووطن نفسه على حمل آله على العودة الى بيتهم القديم أو الى آخر قريب منه مهما كلفه ذلك . ثم فتح حقيبته واستخرج ما فيها ، ومضى يهيىء صوان ملابسه مترنما — كعادته — باحدى أغنيات عبد الوهاب ، وغير ملابسه ثم غادر الحجرة الى الحمام — وهو يواجه الحجرة على الناحية الأخرى من الردهة الطويلة الضيقة — فاستحم بالماء البارد ليزيل عن نفسه غبار السفر ونصبه ، وعاد الى حجرته أجمل منظرا وأطيب نفسا ، وأغلق الباب وراءه — ليعلو صوته بالغناء اذا أراد — وفتح النافذة ، ودهن شعره بالفزلين وسرحه بعناية فائقة ، وتعطر برائحة البنفسج الأثيرة لديه فصار فى أحسن حال . وانجذب نحو النافذة فدلف منها ليرى على أى منظر تطل . فرأى الممر الضيق فى أسفل يؤدى الى خان الخليلى القديم ، واعترض مدى بصره فيما يواجه جناح العمارة الثانى ، فضاق صدره وخال أنه رمى به الى أعماق سجن . أين من هذه النافذة نافذة حجرته بشارع قمر المشرفة على ميدان السكاكينى حيث لا تغيب عن عين الناظر أسراب ظباء اليهود ، وتنهد محزونا ، ثم أجال بصره فيما حوله ، فانجذب البصر نحو نافذة تقابل نافذته عن عل — على

جناح العمارة المواجهة له ــ انفتحت على مصراعيها ، وظهر فيها وجه فتاة ، وجه حسن تزينه عينان تقطران خفة وسذاجة ، فالتقت عيناهما ، فى نظرة انكار من ناحيتها ونظرة تفحص ــ تفحص الصائد لصيد اعترضه ــ من ناحيته ، ثم شق عليها تفحصه الثاقب فخفضت بصرها وتراجعت فى استحياء . فابتسم ابتسامة رقيقة وانبسطت أسارير وجهه متأثرا بملاحة محياها وتحير نظرتها العذبة ، ولم يزايل مكانه ولا حول عينيه عن النافذة منتظرا عودتها ، لأنه من الطبيعى ــ فى نظره ــ أن تحاول معاودة النظر الى جارها الجديد ذى النظر العارم بغير تردد ولا حياء . ولبث على حاله من النظر والانتظار تحدوه رغبة وصبر وعناد ، حتى ظهر رأس الفتاة مرة أخرى فى حذر ، فالتقت العينان خطفا ، ثم تراجعت الفتاة فيما يشبه الضجر ، فضحك ضحكة خافتة وتحول عن النافذة مبتسما راضيا ، ثم جلس على كرسى مكتبه الصغير مغمغما « هذا أول شىء حسن نصادفه فى حينا البائس ! » وتفكر قليلا وهو ينقر بأصبعه على مكتبه وقال لنفسه « هى جارتنا بغير شك ... وحجرتها جارة لحجرتى ! » واستدعى صورتها فأقر لها بالحسن والخفة ، وسر بها سرور انسان بشىء نفيس صارت ملكيته اليه . وكان فى الحب ذا ثقة بنفسه لا حد لها ، ثقة مرجعها السير من فوز الى فوز ، وبطانتها صبر طويل وارادة لا تلين ولباقة فى الطبع والصنعة ، فربما صبر ــ دون أن يكف عن الالحاح والسعى والمطاردة ــ يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما ــ ان شئت ــ بعد عام حتى يظفر ببغيته . ومن أقواله المأثورة فى الغزل « لا يجوز لمن يتصدى للحب أن يعرقل «جهاده» بالحياء او بالجزع أو بالخوف ، انس كرامتك اذا كنت فى أثر امرأة . لا تغضب اذا عنفتك ولا تحزن اذا سبتك ، فالتعنيف والسب من وقود الحب . واذا ضربتك امرأة على خدك الأيسر فأدر لها خدك الأيمن وأنت انت السيد فى النهاية ! » وقد حمله الهوى يوما على

مغازلة .فتاة شموس ذات صون واباء فلما أن طال به المطال دون لين من جانبها أو ميل قال لها بهدوء « أنا رذل سمج بارد لحوح ، هيهات أن تقصينى نظرات التأديب او كلمات التأنيب ، كلا ولا الضرب ولا الشرطة ، وسأرغمك على تكليمى اليوم أو غدا أو بعد غد أو بعد عام أو بعد قرن ، فاختصرى الطريق ما دامت النهاية محتومة ! » . هكذا كان . وقد جلس متفكرا يسائل نفسه : ترى اى نوع من الحسان هى ؟.. أجسورة مستهترة يشق على المغرم ترويضها ؟. ام محنكة مجربة يستحيل اللعب بها ؟.. أم ساذجة حيية تجشم الصبر محبها ؟ . وما من شك فى أن خان الخليلى يغدو محتملا لطيفا بفضل هـــذه الأنثى وشبيهاتها . ثم وضع راحتيه حول قذاله كمن ينوى الصلاة وتمتم قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، نويت الحب ، والله المستعان ! » .

واعتزم الحب حقا ، ولكنه لم يدر له بخلد أى طعنـــة وجهها ــ باعتزامه ــ الى سعادة شقيقه الأكبر الذى يحبه ويجله .

١٨

واسلم جسده للرقاد بعد ليلة شاقة ــ قضاها فى القطار ــ فلم يطرق النوم فيها جفنيه الا لماما . واستيقظ من نومه العميق عند منتصف الرابعة مساء ، فجلس فى الفراش متثائبا مفتحا عينيه ــ لأول مرة منذ عام ــ على نور القاهرة الضاحك . تذكر أمر نقله من أسيوط فطاب نفسا واستلذ الذكر . وكانت تغشى الحجرة سمرة قاتمة فنهض الى النافذة وفتحها ، وذكر لتوه الفتاة السمراء المليحة ، فصعد بصره الى نافذتها ، ولكنه وجدها مغلقة ، فغادر

الحجرة الى الخارج وكان أبوه نائما ، وامه تنظف السمك تهيئة لقليه ، فوقف على عتبة المطبخ يحادثها قليلا ، ثم مضى الى حجرة أخيه . وكان الكهل واقفاً وراء النافذة فلما شعر بمجيء أخيه تحول عنها بسرعة – ولم يدر الآخر كم كلفه ذلك – وتلقاه بابتسامة حلوة ، ثم جلسا معا ، احمد على الشلتة ورشدى على الكرسى .

وتحادثا حديث أخوين متحابين جمع بينهما اللقاء بعد أن كانا شتيتين . ذكر رشدى ما علم قديما من رغبة شقيقه فى التأليف فسأله :

– ألم تشرع فى التأليف يا أخى ؟

فوخزه السؤال ، ولكنه لم يعى بالجواب فقال :

– راس مترع بالمعارف ، فأيها أختار وأيها أدع ؟ . والحقيقة أننى لو أردت التأليف ففى وسعى أن أملأ مكتبة كاملة ! . ولكن ما الداعى لمثل هذا الجهد ؟ .. هل يستأهل هذا الشعب التأليف بمعناه الحق ؟.. هل يمكن أن يهضمه ؟ الا انهم رعاع يقرءون رعاعا !

فقال رشدى وكان يؤمن بما يقول أخوه دائما :

– خسارة أن تضيع أفكارك القيمة !

فقال احمد وكان يؤمن كذلك بما يقول ، كأنه نسى ما يدور بينه وبين أحمد راشد من نقاش :

– أنا من السابقين لزمنهم ، فلا يرجى لى أى تفـــاهم مع الناس ، فلكل شىء فى الدنيا عيوب حتى التعمق فى العلم !

– ولكن هل ترضى يا أخى ان يضيع هذا الجهد العظيم بلا أثر ينتفع به الناس ؟!..

فسر الكهل بكلامه سرورا عوضه عن ترك النافذة منذ حين ، وقال :

– من يعلم يا رشدى ؟ فعسى أن أعدل عن استهانتى يوما ما !

ولبثا يتحدثان حتى انطلق آخر مدفع افطار ، ثم جمعتهم مائدة رمضان الأخيرة .فقدمت صحاف السمك التقليدى وأكلوا مريئا وشربوا هنيئا . وبعد شرب القهوة مباشرة ارتدى رشدى بدلته وغادر البيت لا يلوى على شيء . وقد أراد أن يصل الى كازينو غمرة فى الوقت المناسب ، أو بمعنى آخر أن يبلغه قبل أن يتحلق أصحابه ــ وهم يجتمعون بالكازينو كل مساء للشراب ولعب الورق ــ المائدة الخضراء ، وفى التعجيل حكمة لاتخفى على من كان مثله ، فليس من شأنه أن يجد مكانا حول المائدة فحسب ، ولكن اللاعبين ــ كذلك ــ اذا انهمكوا فى اللعب لم يحفلوا باستقبال قادم ولو كان قدومه بعد فراق عام كامل ! ، وأجمل ما يجودون به تحية مقتضبة وعيونهم لا تفارق الورق ، فاذا اضطروا الى قطع اللعب لمجاملة قاسرة فويل للقادم من لعن ضـــمائرهم وسخط سرائرهم . وفضلا عن هذا فالداخل على لاعبين ــ أثناء لعبهم ــ يعد يمنا على الفائزين وشؤما على الخاسرين ، فلن يخلو الحال قط من أن يجد فريقا يرمقه شزرا . وقد أكتسب بعض اخوانه ــ بسوء المصادفات ــ سمعة سيئة ، منهم محام شاب يقول عنه الصحاب انه اذا وجد بمقربة من لاعبين خسروا جميعا ولم يربح أحد !! والمقامرون شديدو الحساسية ، كثيرو الوساوس ، يؤمنون بالطيرة ويعبدون الحظ . وقد استقل ترام الأزهر والذكرى ترجع به الى زمان تلقينه مبادىء المقامرة . كان ذلك وهو فى أولى سنى دراسته بكلية التجارة ، فدعى الى اللعب على أنه تسلية بريئة للفراغ . ثم رئى أن يراهنوا على ملاليم ــ لا لطمع فى ربح ــ لأن المليم عملة تافهة ــ ولكن لتأريث الحماس وبعث الاهتمام ، وسرعان ما صعدت الأرقام حتى أتت على ما فى جيوبهم جميعا ، واستبدت بهم شهوة اللعب استبدادا نساهم الوقت والواجب والمستقبل . فالقمار تسلية مخيفة ولذة أليمة وشهوة مجنونة . هو معابثة الغيب ،

ومراودة الحظ ، وطرق باب المجهـول ، ودغدغة غرائز الخوف والهجوم والتطلع والمجازفة والطمع . ثم انه بعد ذلك صدى لذلك الشعور ــ شعور كفاحنا اليومى ــ المستمد مما نبذله من قوة وتقدير فى معالجة الحياة ، وما نخاطب به الأقدار المسيطرة علينا ، وما نرجوه من الحظ والظروف الملابسـة لنا ، وما يتعاقبنا من الظفر والخسران . ولكم تمنى فى أحايين كثيرة لو لم يفارق المائدة طوال عمره !. ومن عجب أنه ما من مرة فصل عن المائدة ــ فى ختام ليلة متعبة مرهقة ــ الا وتمنى لو يتوب الله عليه ، فاذا ازف الميعاد فى اليوم الثانى هرع الى الكازينو لا يلوى على شىء . وهكذا تمكن الداء العضال منهم جميعا وانقلب القاتلون للوقت ضحايا ! وصار واحدا من المقامرين فى عبادة الحظ والخضوع للطيرة ، فربما قال لنفسه وهو يهم بفتح النافذة فى الصباح : « اذا لقيت عددا زوجيا من السابلة فالحظ معى أما اذا كان فرديا فاليوم خسارة !» أو ربما حادث نفسه وهو ماض الى مائدة الافطار : « أذا وجد فولا بسمن فاليوم رابح أو فولا بزيت فاليوم خاسر ! » . وانقطع تيار الذكريات عندما غادر الترام ، ثم استقل الترام رقم ١٠ ، فجرى به فى الطرق المؤدية الى حيه القديم ، فاستثار حنانه ، ولما شارف السكاكينى شعر بألم نبيل ووجد شريف يقرضـــان فى شغاف قلبه ، وغادر الترام واتجه الى الكازينو ، وفى المكان المعهود من الحديقة رأى الأصدقاء ــ أو رأى أشباحهم لأن الاظلام كان تاما ــ فأدرك انه وصل فى الوقت المناسب ــ قبل أن يذهبوا الى بهو اللعب ــ وأخذ يقترب منهم مبتسما حتى صار فى وسطهم ، فعرفوه وصاحوا معا :

ــ رشدى عاكف !... أهلا بقلب الأسد !

وسر بسماع لقبه العزيز ــ وقد عرف به بين اللاعبين لكثرة مجازفاته ــ وتعانقوا عناقا حارا . وكانوا جميعا ــ مثله ــ فى

منتصف العقد الثالث ، منهم من زامله فى المدرسة أو من نشأ معه فى السكاكينى ، وكانوا جميعا ــ فى المجون والاباحية والاستهتار والعربدة شخصا واحدا . قال أحدهم :

ــ أهكذا لا نراك الا مع العيد وقد كنا لا نفترق ليل نهار !

فقال رشدى ضاحكا وهو يتخذ مجلسه :

ــ ستراني منذ الليلة كل يوم ، او منذ اليوم كل ليلة على الأصح !

فسأله آخر :

ــ وكيف كان ذلك ؟

ــ صدر أمر بنقلى الى القاهرة !

ــ ولن ترجع الى اسيوط ؟

ــ لا .

ــ الله لا يرجعك !

وسأله ثالث :

ــ وكيف سلوت عن المائدة عاما طويلا ؟!... لكم أوحشتنا نقودك !

ــ لأسيوط موائدها ، اما عن الأخرى فالشوق متبادل ؟

ودار الحديث عن اسيوط ، حتى سألهم بلهفة :

ــ كيف تسهرون هذه الليلة ؟

ــ كالليالى التى سبقتها ، سننتقل عما قــريب الى البهو الداخلى ...

ــ هذا جميل ، ولكن ماذا تقولون فى كاسى كونياك او ثلاثة ؟

ــ أو اربعة او خمسة ؟

ــ أو ستة أو سبعة ؟

ولكن واحدا منهم قال مقترحا :

ــ العيد غدا فلنؤجل السكر الى غد !

ــ لا نؤجل عمل اليوم الى غد !

وسأله سائل :

ــ وكيف الفسق فى أسيوط ؟

فقال رشدى :

ــ أما عن هذا فلا ، هناك عفة بالاكراه !

ــ الحال هنا بات قريبا من الريف ، فجنود الحلفاء يلتهمون اللحوم والفاكهة والنساء !

وقال آخر :

ــ واليهوديات عرفن أخيرا مزايا اللغة الانجليزية !

ــ تراهن يرفلن فى الحرير فاذا اعترضت سبيل احداهن رمتك بنظرة شزراء وقالت لك بلهجة اسكتلندية صميمة :

« Behave like a gentleman, please. »

ــ الخادمات يا سيد رشدى ، سقيا لعهودهن ، هجرن المطابخ الى الكاباريهات !

ــ كانت الحرب فرصة طيبة لاكتشاف مواهبهن الفنية !

قال رشدى ــ كالمتحير ــ مبتسما :

ــ والعمل ؟! . . . هل نشرع فى الزواج ؟!

ــ اذا طالت الحرب ، وازدادت الحال سوءا على سوء ، فلن يبقى أعزب . غير أنا وانت !

ــ يا اخوانى لقد ظلمتم بعض اليهوديات وبعض الخوادم ، والحقيقة انهن هالهن ما رأين من عدم اشتراك الامة فى الحرب فساهمن فى قضية الحلفاء بأعراضهن !

ــ وبذلك صارت المرأة أغلى من السماد !

ــ بل أعز من الفحم !

ــ وغداً اذا وضعت الحرب أوزارها ، فماذا يفعلن ؟!

ــ تصير المرأة ارخص من اليابانية !

— ويصير العشق بالجملة فيطلب الشاب في ليلة واحدة ثلاث نساء — مثلا — واحدة للقبل وأخرى للنجوى وثالثة للمداعبة الخ . .

— الا اذا تدخلت الحكومة في سوقهن للمحافظة على الأسعار !

وضحك رشدى ضحكة [illegible] هذا المجلس عاما [illegible] يشربون ويتسامرون حتى وافت التاسعة فنهضوا الى بهو اللعب المحبوب . وفي تلك الليلة ربح رشدى مبلغا كبيرا — أو هكذا يعد بينهم — فبلغ ربحه قبيل المنتصف الثانية عشرة [illegible] وأضاف اليها ثلاثين قرشا حين [illegible] الثانية عشرة [illegible] موعد انتهاء السهر ثم انفضوا من حول المائدة [illegible] لأنه ممن تقرأ سرائرهم على صفحات وجوههم ، وجعل يترنم بصوت حنون كالمناجاة ، ولم يمسك عن الترنم حتى صاح به أحد الخاسرين : « اصمت يا اخى فصوتك يهيج أعصابى ! » . وعلى أثر انطلاقهم في الطريق اقترح أحدهم قائلا :

— ما رأيكم في أن نكمل اللعب في بيتنا ؟

فقالوا في صوت واحد :

— هو كذلك [illegible]

فسأل المقترح رشدى قائلا :

[illegible]

فقال الشاب ضاحكا :

— أوافق تحت شرط أن [illegible]

ومضوا الى بيت [illegible] المائدة ، واستأنفوا اللعب بنهم لا يعرف الشبع [illegible] المغلقة النوافذ [illegible] عرقا ، وعندما دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل قال بعضهم :

ــ حسبكم لعبا والا قضينا نهار العيد الأول نائمين !

فكفوا عن اللعب ، وقد خسر رشدى ربحه جميعا وثلاثين قرشا أخرى !.

وقال له أحدهم متهكما :

ــ كيف لم تتمتع بما منحناك من حرية الغناء ؟!

وضحكوا جميعا ، فدارى بكياسته غضبه وجاراهم فى ضحكهم . وودعهم عند ذاك ومضى الى العباسية ، وقد انقطعت المواصلات جميعا ، مدلجا من طريق الحسينية ، ووجد الطريق خاليا والسكون مطبقا والظلام جاثما . وكان جسده ساخنا مبتلا بالعرق وحلقه يابسا ، فاصطدم برطوبة كثيفة يزفرها الخريف بغزارة ــ خاصة ــ فى الهزيع الأخير من الليل . وما عتم أن سرت فى أطرافه قشعريرة باردة ، ولسعت البرودة صدره ، وزكم منخره . وكانت ليلة السرار وقد احلولك غبشها ، وضاعف من غلظه انتشار سحاب دثر النجوم الساهرة ، فلاحت المنازل القديمة على جانبى الطريق كأشباح جالسة القرفصاء ذاهبة فى سبات عميق . وجعل يحدث نفسه : أما كان الأجدر أن يعتذر عن عدم المضى معهم الى البيت ؟ ولكن هيهات أن يلهم الحكمة يوما ما ! بيد أن أسفه كان ضعيفا كارادته سواء بسواء ، فالمقامر المدمن يلقى الخسارة عادة بهدوء ولن يعدو الأمر فى نظره التسليم فى يومه وعقد الرجاء بغده . وتنبه الى طول الطريق وقذارته فتأوه مغيظا محنقا . ولما بلغ مدخل خان الخليلى ذكر وصف شقيقه للطريق « ثانى ممر على اليمين وثالث باب على اليسار » وتلمس سبيله فى الظلمة حتى انتهى الى العمارة ، ومضى الى حجرته بأقدام خفيفة وأضاء المصباح ، وما ان وقعت عيناه على النافذة المغلقة حتى تذكر النافذة التى تشرف عليها من عل ، وجاد ثغره بأول ابتسامة صادقة منذ منتصف الليل ، وطاف بمخيلته الوجه

الأسمر المليح ، فتأسى عن هموم الليلة جميعا ، وتمتم قائلا : « اذا كان سوء الحظ مؤلما فحسنه غير منكور » وغير ملابسه ، ودلف من مكتبه فاستخرج من أحد أدراجه كشكول مذكراته ، وجلس ليدون خاطرة ، قبل النوم . .

١٩

وكان الأب أول المستيقظين ، فتوضأ ، ثم غادر البيت حين الفجر ميمما المسجد لصلاة العيد . فاستقبل أول نسمة من نسمات اليوم الجديد ، ورأى الفجر الجميل يضج بجموع القاصدين ، يخوضون أمواجه البنفسجية الحالمة مسبحين بحمد الله العلى .

وكان أحمد ثانى المستيقظين ، فنهض نشيطا حبورا ، وحلق ذقنه بعناية ، وارتدى جلبابا جديدا وطاقية جديدة . ثم وافته أمه الى حجرته وقد مشطت شعرها وأخذت زينتها ، فقبل يدها ، وقبل خدها ، وقبلت خديه ، ودعت المرأة للأسرة بالعمر المديد والسعادة والرفاهية ، ومضيا معا الى الصالة وجلسا جنبا لجنب يتحدثان وينتظران بقية الأسرة ، من انطلق منها يبتغى مرضاة الله ، ومن يغط فى نومه غطيطا . وعاد الأب بعد مشرق الشمس بقليل ، فدخل عليهما يرفل فى عباءته الفضفاضة ، وما يزال يبسمل ويحوقل . فمثلا بين يديه ، ولثمت الزوجة يده ، وفعل أحمد مثلها . فهنأهما الرجل بالعيد ، وجلسوا جميعا وهو يقول :

— كل عام وأنتم بخير . وربنا يجعله عيدا سعيدا لنا وللمسلمين كافة .

ورمى ببصره الذابل الى آخر حجرة فى الشقة وقال كالمتهكم :

ــ هل استيقظ الغلام أو أنه لم ينم بعد ؟!

فبادرت المرأة للدفاع ــ كعادتها ــ قائلة :

ــ تأخر الغلام أمس لأنه لقى اخوانه بعد فراق عام ، ولأنه عاد بطبيعة الحال ماشيا على قدميه . .

على أنه لم يطل بهم الانتظار ، فانفتح باب الحجــرة الأخيرة ومرق منه الشاب الى الحمام الذى يقابله ، واقبل نحوهم ــ قبل مضى ربع ساعة ــ يخطر فى بيچامته وقد سرح شعره الأسود ، وتعطر بشذا البنفسج ، وبدا وجهه مائلا للشحوب الا انهُ يقطر منه حسن الشباب ورواؤه ، وتألق ثغره بابتسامة حلوة لا يضىء بمثلها فى الأسرة الا ثغر والدته الطروب . وتجاهل الشاب ما ينطوى عليه والده من الانتقاد فاقترب منه . وانحنى على يده ، وقبلها باحترام ، وانثنى الى والدته فقبل يدها وخدها ، ثم لثم جبين شقيقه . وبسطت الأم راحتها وقالت ضاحكة :

ــ عيديتى يا سادة وكل عام وأنتم بخير !

وقد تعود كل منهم أن يعطيها نصف جنيه عيدية . فكانت تفرح بعيديتها فرح الأطفــال ، بل تنفقها كما ينفقها الأطفال ، فتبتاع ما تشتهيه نفسها من الشيكولاتة والملبس .

ثم أحضرت فطار العيد ــ كعكا وحليبا ــ فأقبلوا عليه فى غبطة . والصائم يشعر عادة بغرابة وانكار وحذر وهو يتناول أول لقمة صباح العيد ، ثم يصيب من طعــامه جذلا مسرورا ، فليس أجمل وقعا فى النفس من لحظة سعيدة تفصل بين واجب قامت بحقه وتصبرت على ادائه وبين تمتعها بلذة الجزاء وراحة الضمير . وتناولوا الكعك بأناملهم ، وقضموه بلذة حتى رسم دوائر من السكر حول أفواههم ، ثم أســاغوه بالحليب ، وما زالوا حتى

شبعوا ، وقالت الأم بلهجة أسيفة ، تكلفتها لتستوهبهم الثناء والاطراء :

ـ يا حسرتاه على أيام السلم حين السمن سمن والدقيق دقيق والكعك كعك !

وأدرك رشدي ما ترمي اليه والدته فقال بلباقته المعهودة :

ـ كعكنا لذيذ فلا يدع لنا حاجة للتحسر على سواه ؟

وتفرقوا فى الحجرات . وعاد أحمد عاكف الى حجرته وكان قلب الكهل يخفق بروح الشباب النشوان ، بل كان كذلك منذ كاشفته بتحية الوداد ليلة القدر فلم تغب عن مخيلته قط صورة شبحها الرقيق وهى تجود بايماءة السلام ، ولأخمدت بعد ذلك العواطف التى بعثتها تلك الايماءة الساحرة . فرح الكهل ، واستخفه الطرب ، وهيأ له مرحه وطربه انه سيسترد شبابه الريان فيخضر غصنه الباهت ويجرى فيه ماء الحياة الدافق ، ويسود فوداه ، وتغشى صلعته لمة فينانة ، وتغزر اهداب عينيه فتكحل أشفارهما المشربة بالاحمرار بيد أنه لم تقع عليها عيناه منذ تلك اللحظة السعيدة ، وتغيبت عن موعدها المألوف المحبوب ، فلم يشك فى أنه الخجل الذى يتشجع بالظلمة ويفر من ضوء النهار ، فدرت أضلعه حنانا وعطفا ــ ومن أدرى به منه بأهوال الخجل ــ وسر سرورا كبيرا اذ وجد أخيرا من يستتر عنه ــ هو ــ حياء ! ولكن هذا صباح العيد وقلبه يحدثه بأنها لن تبخل عليه بنظرة تسر الروح وتحيى الأمل . وها هو يرفع رأسه فيرى الشرفة مفتوحة على مصراعيها والشمس تغمرها فيشى لألاؤها بالوجه الذى أطل منها ، ولبث ينتظر مجيلا بصره فى الحى الفرحان بالعيد . وقد بثت روح العيد فى كل شيء فتراها فى الألوان وتسمعها فى الجو وتشمها مع الهواء ، وغدا ذاك التيه ــ الذى تحده العمارات ــ يرقص فرحا ويغنى طربا ويبعث بحرارة اللذات . جرى الأطفال

هنا وهناك بثيابهم المزركشة ذوات الألوان الفاقعة ، وتطايرت وراءها الضفائر والشرائط ، وهتفت الزمارات ، وفرقعت قنابل السلام . ولاكت الأفواه الحلوى والنعناع ، وملأت الأناشيد والأغانى الأسماع ، واكتظت المقاهى بأهل المدن والريف ، فازدهمت الأرض عيدا والسماء . وتصفحت عيناه المناظر والوجوه بعقل غائب ، حتى جوزى على صبره أجمل الجزاء ، فرأى فتاته تبرز من باب الشرفة فى أبهى حلل ، فصعد الى وجهها الأسمر الجميل ناظريه . وتشجع على غير مألوفه فلم يطرق ، وابتسم وفؤاده يغلى من شدة الخفقان ، وأحنى رأسه احناءة خفيفة ، وكانت ترنو اليه بعينيها النجلاوين ، فابتسمت ابتسامة حلوة ردا على تحيته ، ولم تحول عينيها عن عينيه فتولاه الاضطراب والحياء وأوشك أن يفقد شجاعته ، ولكنها ابتسمت اليه مرة أخرى وتراجعت فى خفة حتى اختفت عن ناظريه ، فتنهد بارتياح وسرور . ومناه الأمل أن يراها مرة أخرى فيفوز بابتسامة ثالثة ولكن خادما جاء متعجلا وأغلق باب الشرفة ، فشعر بخيبة وأسف . ثم ابتعد عن النافذة ، وكانت الساعة تقترب من التاسعة فذكر أنه على موعد مع الصحاب فى الزهرة — صار أخيرا من أصحاب المواعيد فى القهوات — فارتدى ملابسه الجديدة — البدلة والطربوش والحذاء والقميص — ونظر الى صورته فى المرآة فأعجبته جدته وأناقته ، وذكر أيام شبابه الغابر — قبل أن يعبس له الزمان — حين عرف دهرا بالأناقة !. وغادر البيت جذلا طروبا ، فسار متمهلا ثملا بخمر الأمل والأحلام ، يسائل نفسه فى حيرة الفرحان : « وماذا بعد الابتسام ؟. . . ماذا بعد يا دهر ؟! »

٢٠

ورجع رشدى الى حجرته ، فأشعل سيجارة وراح يدخنها وراء النافذة مصوبا بصره نحو النافذة المرموقة ، متوقعاً بين آن وآخر أن يلمح جارته الحسناء . وصدقه الأمل فلاحت الفتاة فى النافذة بفستانها الجديد وعلى كتفيها معطف رمادى ، الا أنها تراجعت فى غير ابطاء كأنما تفر من نظرته الثاقبة . ولمح الشاب المعطف فخطر له أنها متهيئة للخروج ، فدلف من المشجب بغير تردد وأخذ فى ارتداء ملابسه . وغادر البيت بعد دقائق معدودات وساءل نفسه أين يحسن أن ينتظر ؟ .. وذكر لتوه الممر الضيق الموصل بالسكة الجديدة ، وسار نحوه مسرعاً ، ثم توقف ، عند موضع اتصاله بالطريق ، على الطوار . وكان الشارع يضطرب بتيارات السابلة وقد انحدرت من الدراسة العربيات الكارو غاصة بالغلمان والبنات يغنون ويرقصون ويطبلون ، فلبث فى مكانه عيناً على الشارع المائج تنظر فى ابتسام وعينا على الممر تترقب فى رجاء . وكان خبيراً بأمثال ذلك الموقف فلم يساوره الجزع ، بيد أن الحال لم يقتضه صبراً طويلا فما عتم أن رأى فتاته تبدو فى أول الممر يسير لصقها غلام عظيم الشبه بها . فتشاغل عن النظر اليها باشعال سيجارة وهو لا يشك فى أنها تراه ، ولكن هل أدركت يا ترى أنه ينتظرها ؟ . ثم تبعهما عن بعد قريب فى طريقها الى الأزهر فرآها جملة لأول مرة وبدت فى السادسة عشرة على أكبر تقدير ، متوسطة القوام رشيقة اللفتات ، بيد أن وجهها أجمل مافيها حقا ، وأجمل ما فى وجهها عيناها النجلاوان . ولم

يستطع ان ينعم فيها النظر لأنها بلغت المحطة مسرعة وصعدت الى حجرة السيدات ومعها أخوها ـ على الأرجح ـ فاستقل الترام وراء الحجرة مباشرة ليتمكن من رصد نزولها ، وتحرك الترام وهو لا يدرى أين تنتهى به المطاردة ! . وجعل يحدث نفسه شابة صغيرة ، وجهها ٥ر٧ على ١٠ وجسمها ٥ر٦ على ١٠ ، سنعلم بعد حين أيسيرة هى أم عسيرة ، وهل تلهو بالحب أم تحلم بخاتم الخطوبة ؟ سنعلم كل شيء فى حينه ، ولكنها اذا كانت من الحالمات بالخاتم فسيغدو الأمر شاقا وربما مضجرا أيضا ، على أنه ينبغى أن نركز اهتمامنا فى شيء واحد قبل أى شيء وهو ان نستدرجها الى الكلام ولنر ما يكون ! . ووصل الترام الى ميدان الملكة فريدة فغادروه جميعا ـ هى وأخوها أولا ثم هو ـ ولاحت منها التفاتة على الطوار فرأته على بعد أذرع منها يديم اليها نظرته الجسورة الثاقبة ، فحولت عنه وجهها ، وتظاهرت بالانهماك فى محادثة الغلام ، ولم يخالجه شك هذه المرة فى أنها أدركت أنه يتابعها عن عمد . ثم رآهما يستقلان اول ترام قادم ـ وكان ترام الجيزة ـ فصعد اليه بغير تردد متسائلا : « ترى هل يقصدان الى قريب فى الجيزة ليعيدا عليه ؟! » وقرر فى تلك اللحظة أن يهبها اليوم جميعا عن طيب خاطر ولكنهما غادرا المركبة عند محطة عماد الدين ، فغادرها مسرورا وقد أيقن أنهما ذاهبان الى سينما . وعبروا الطريق الى شارع عماد الدين ، الاثنان أولا وهو فى اثرهما متحفزا لما يشبه الابتسام أو لتضمين نظرته ما يريد من المعانى اذا هى التفتت وراءها ، ولكنها مضت لا تلوى على شيء ممسكة بيد الغلام الذى هرول ليسير فى حذائها ، وجعل لا يحول عينيه عن ظهرها وساقيها ، ويتبين حال مشيتها ومواقع قدميها ، فوجد من السرور برؤيتها من وراء مثلما وجد لرؤيتها من امام ، وأعطى صورتها الخلفية جملة ٨ على ١٠ ، وتنهد عند ذاك متذكرا وجوها

ابى الحسن أن تنسى وقال لنفسه : « حقا فشا الحسن فى مصر هذا الزمان الحـــديث » . ولما بلغوا ريتز التفتت وراءها فرأت عينيه محدقتين بها فاستردت عينيها بسرعة ــ وفوجىء فلم يسعه أن يضمن نظرته شيئا ــ وحثت خطاها فى اتجاه أستوديو مصر ، وأسف على ما فاته من حديث العيون ولكنه سر بالسينما التى اختارتها فتاته ــ لأنها كانت تعرض فيلم دنانير ــ وأدرك أن هذه المطاردة أتاحت له لذتين عزيزتين . وأراد أن يجلس جنبها فى الصالة فعمل على أن يقف وراءها مباشرة فى الصف الممتد أمام شباك التذاكر ليتمكن من اختيار مقعد لصق مقعدها ، بينا تنحى الغلام جانبا ينتظر متفرجا على الصـــور ، وصار منها على قيد خطوة . فخال أنفاسه تمس ضفيرتها . فاستثار قربها من صدره احساسا شبيها بما تستثيره رائحة زكية عميقة . وتتبع أنملتها وهى تختار مقعدين لها ولشقيقها على رسم الصالة ، فرأى الى يمين الكرسيين مقعدا شاغرا والى يسارهما ثلاثة ، وتساءل ترى الى أية ناحية تجلس الفتاة ؟.. واجرى فى سره على الناحيتين القرعة المعروفة : « حطة يا بطة يا ذقن القطة عمى حسن الخ » . قرست «حداه » على المقعد الأيمن فاختاره فيما يشبه الاطمئنان . وتحول عن الشباك وأجال بصره فيما حوله فلم يجد للفتاة ولا لشقيقها أثرا ، بيد أنه لم ينزعج فالتذكرة فى يده ، وهى خليقة بأن توصله اليها مهما ضلّ عنها ، ولا يدرى كيف ذكره هذا ــ قوة التذكرة ــ بعقد الزواج وقداسته وسحره فاهتز صدره الرقيق ، ودخل السينما منفعلا . ومضى به الدليل الى مقعده وهو يرجو أن تكون « حداه » قد صدقته الهداية ، ولكنه رأى الغلام يجلس بينه وبين أخته ؟ ورأته الفتـــاة قادما فطرفت عيناها ارتباكا وتجنبت أن تحولهما الى جهته ! وجلس الشاب فى ثقة وسرور ، واسترق اليها النظر مرة ومرة فوجدها فى المرتين شاخصة الى

ما أمامها ، واستشف من تورد خدها وارتباك هيئتها ما يخامرها من حياء واضطراب ، فأشفق عليها ، ورأى عن حكمة الا يشق عليها ، فجعل يتسلى باجالة بصره بين البناوير والألواج والمقاعد مزجيا تحيات المودة الى الصدور والنحور والثغور والمعاصم

ولم يطل به المطال فدق الجرس ثم أطفئت الأنوار ، وانحسرت الشاشة عن دنيا الأحلام . وطاب له المجلس فى الظلمة على كثب من الفتاة التى أضمر لها غزلا — وان لم يخفق لها فؤاده بعاطفة بعد — حتى غرد الصـــوت الالهى بأغنية النبع « طاب النسيم العليل » فغفل عن الوجود . وكان يحب الغناء حبا خيل اليه يوما انه خلق ليكون موســـيقيا ، فتسلسل الفلم وهو هائم فى نغمة روحية عالية . وانتهى العرض واضيئت الأنوار ونهض النظارة . والتفت رشدى نحو الفتاة فرآها واقفة مغمضة العينين تفاديا لتأثير النور الباهر بعد طول الاستسلام للظلمة ، فانتظر حتى فتحتهما على نظرته العارمة ! وعنى خارج السينما بملاحظة أصابع يديها فعلم أنها ليست مخطوبة ، وابتسم لذلك ابتســامة ارتياح . ثم تعقبها فى العودة بنفس العناد الذى تعقبها به فى الذهاب ، الا أنه تثاقل عن متابعتها فى الأزهر كيلا يشى بسره لأحـد من أهل حيه الجديد . وعاد الى البيت فوجد الأسرة فى انتظار للغداء . وما عتمت أن دعتهم أمه قائلة بلهجتها المرحة :

— هلوا الى طاجن العيد . .

٢١

وعادت نوال الى البيت وقد بلغ منها التأثر ، راحت تسائل نفسها : ما لهذا الفتى الجسور لا يكف عن مطاردتها مذ وقعت عليها عيناه غداة الوقفة ؟ !

جاوزت نوال فى ذلك الوقت السادسة عشرة بقليل . وكانت ذات حسن يستحق الاعجاب . وتحلى حسنها بميزتين لا يستهان بهما : السذاجة والخفة ولكن أية سذاجة ، وأية خفة ؟ السذاجة التى توحى بها بساطة الجمال ، والتى تطالعها فى الحدقة الصافية الواسعة ـ فى غير مبالغة ـ والنظرة المستقيمة ، بيد أنها ليست سذاجة الغفلة أو البلاهة . وخفة تنبثق من أناقة الملامح ولطف الروح ، فلا هى الى الطيش والرعونة تنتسب ، ولا من حدة الذكاء وبراعته تستمد . وهى سمراء ، وكثيرا ما تقول أمها ان السمرة روح الجمال ومصدر الخفة ، ولكنها كانت فى الحقيقة من عشاق اللون الأبيض . ولذلك أخذت تعالج نحافة ابنتها بعقاقير السمن لاعتقادها بأن السمن يكسب البشرة اشراقا . وقد تقدمت الفتاة فى دراستها الثانوية تقدما يبشر بالنجاح ، ولكنها انضمت فى الواقع الى قافلة العلم ، وليس العلم ما تنشد ، ولا المدرسة بالمأوى الذى يهفو اليه فؤادها ، فأحلامها لا تفارق البيت ، ولن تزال تعد أمها أستاذتها الأولى تتلقى عنها فنون الحياة المنزلية من طهى وحياكة وتطريز ، وما رأت فى العلم يوما الا زينة تحلى بها أنوثتها وحلية تغلى من مهرها . فتركزت حياتها فى هدف واحد : القلب أو البيت أو الزواج . أليس أول دعاء دعيت به « العروس » !.. وانه لأجمل دعاء ، وانها لتتلهف على أن تكونه ،

وترقب حظها فى صبر ورجاء . ولذلك قدست الزواج قبل اهليتها له بدهر طويل ، وأحبت « الرجـــل » وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة . فكانت ثمرة ناضجة دانية القطوف ترصد من يجنيها .
وكان الأستاذ أحمد راشد المحامى أول رجل — من غير محارمها — يتصل بها عن كثب لاعطائها الدروس . وتلقته منذ أول مقابلة باستحياء ، ورمقته بعين ملؤها التطلع والرجاء ، فلم يتمثل لعينيها «أستاذا » بقدر ما تمثل لهما رجلا ! ولان قلبها وأوشكت الحياة أن تنبض به . بيد أن الشاب المحامى كان صارما رزينـــا أكثر مما ينبغى ، وعجزت كل العجز عن أن تقرأ عواطفه الحقيقية وراء عويناته السوداء ، ولما تعقب تهاونها بالتأنيب بدا لعينيها مكفهرا مخيفا فجفلت منه وخاب رجاؤها فيه . وكثيرا ما كان يحدثها بكلام لا تفقه له معنى ولا تجد له طعما مثل قوله لها مرة : « يخيل الى أنك لا تحبين العلم كما يجب وان لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فأحبيه كما تحبين الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الانسان ، وينبغى أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذى جسمك بالطعام ويتمثله . أين الشوق الى أسرار الوجود ؟ ... أين اللهفة على المعرفة ؟ .. لا يجوز أن يتخلف قلب المرأة عن قلب الرجل فى طريق العرفان والمجهول .. » وفى مرة أخرى سألها : « علام نويت بعد البكالوريا ؟ .. أما عرفت بعد العلم الذى ترغبين فى دراسته فى الجامعة ؟ » وهالتها كلمة « الجامعة » . أيمتد بها عهد الدراسة حتى الجامعة ؟ ! وأجابته باقتضاب : « لا أدرى » . فقال لها الشاب ممتعضا : « أما زلت عند موقفك الســـلبى من العلم ؟ ! » ولم تفطن الى أنه يريد أن يصوغها على المثال الذى يحب فحسبت أنه يحتقرها ويزدريها فاشتدت منه جفولا .

ثم جاء أحمد عاكف الجـــديد . وقالت الأنباء انه أعزب . وشعرت بمزيد الغبطة والسرور أن عينيه تسترقان اليها النظر

فتحرك قلبها نحوه كما تتحرك الراحتان نحو مجمرة فى ليلة شديدة البرد والزمهــريرِ . وقالت لنفسها : انه رجــل جاوز حدود الشباب . ولكنه ما يزال فى عنفــوان الكهولة . ولابد أن يكون موظفا محترما لأنه غالبا ما يصير الموظف ــ فى مثل عمره ــ محترما وأيا كان فلن يسعها أن تغضى عن نظراته الحيية التىيرسلها اليها فى أدب وتردد ، ولا أن تجد لذلك منمعنى غير الوداد ، والا ففيم يثابر على الانتظار والنظر أصيلا بعد اصيل ؟! على أنها تساءلت فى حيرة لماذا لا يخطو خطوة جديدة ؟.. لماذا يقنع بالوقوف عند مخالسة النظر ؟. هلا أبتسم اليها ؟ .. هلا أومأ بتحية ؟ ! .. ترى هل يعقل الحياء الرجال كما يعقل النساء ؟!.. واذا كان هذا شأنه فلماذا لا يخاطب أباها فى الأمر ؟ أو لمــاذا لا يكلف أمه بمهمة خطبتها ؟ ! . وكانت نوال حيية وفى حاجة الى من يطاردها ، فأوقعها حظها على كهل فى أشد الحاجة الى من تطارده ! . الا أن شجاعتها لم تخنها ــ خاصة بعد أن يئست من شجاعته ــ فبدأته بالتحية من شرفتها وتلقت رده الجميل ، وحدثها قلبها بأن الأمل المرموق قد بات قريب المنال ..

ولدى الضحى من نهار الوقفة طالعها وجه جديد من نفس الشقة ، بل من الحجرة التى تواجه حجرة نومها . وادركت من النظرة الأولى أن الشاب الجديد أخو صاحبها الكهل ، ولكن اين كان قبل اليوم ؟.. وما باله يرميها بتلك النظرة القوية الجسورة التى دعت الدم من جميــع أطرافها الى خديها وحملتها على الفرار ؟ ! . ياله من شاب نضير جم المحاسن جذاب المنظر ؟ ويالها من نظرة ثاقبة ترعش القلب ، ولكن ياترى اهذا شأنه مع كل حسناء ؟.. أم جذبه الى وجهها شيء لا عهد له به ؟ .. وهل يقيم فى هذه الحجرة فيراها صباح مساء ام يختفى فجأة كما

ظهر فجأة ؟ . . وقال لها قلبها أن مثل هذا الشاب خير من ذاك الكهل بغير جدال ، ولكن الكهل لم يعد غريباً ، فبينها وبينه تحية متبادلة ، وهو المفضل اذا طلب يدها ، وما ينبغى أن تنسى أن بينهما عهدا صامتاً لا يلبث أن يصير - ان شاء الله - زمراً وطبلا وثريات لألاءة ورملا فاقعا يسر الناظرين . وفى صباح العيد ارتدت ملابسها الجديدة ، ودعاها قلبها الى الظهور بالشرفة ليراها الكهل فى أبهى حلل وأجمل منظر ، ووجدته فى النافذة فى احسن صورة ممكنة . فذكرها جلبابه وطاقيته بأبيها . وتبادلا التحية ، ثم عادت الى حجرتها . ونازعتها مشاعرها الى القاء نظرة على النافذة الأخرى ، فوجدت الشاب الجميل وكأنه ينتظرها ، فتراجعت أمام نظراته العارمة . وحسبت أنه لن يتخطى بجسارته نافذته ، فما راعها الا أن تجده بانتظارها فى السكة الجديدة ! وتساءلت فى الترام ترى هل تبعها أم انه وهم ما رات ؟ . . ولكنها علمت بعد حين أنه يتعقبها عامدا ، وأنه ممن لا ينثنون عن غاية ، ومن عجب أنه نسى وجودها فى السينما بترنيم أم كلثوم ، أما هى فلبثت تشعر بوجوده على كثب منها طوال الوقت ! وعادت الى البيت ثملة بسرور لا عهد لقلبها بمثله وقالت لنفسها ضاحكة : « لو أن جميع الشبان فى مثل عناده ما بقيت فتاة واحدة بغير زواج ! » ووجدت قلبها يؤنبها على تسرعها ببذل التحية للآخر . ولكن هل كانت تعلم الغيب ؟ وقلق ضميرها فلم تجد لطاجن العيد ولا لسمكه طعما !



وغادرت الشقة عصرا بقصد زيارة حرم سيد افندى عارف . وخطر لها أن تصعد الى السطح - قبل القيام بالزيارة - لتجول جولة فيه مسرحة الطرف بين المآذن والقباب ، وقد صار السطح

نزهتها بعد أن تعذر عليها مشاركة البنات لعبهن فى الطرقات . ودارت مع السور على مهل متصفحة المنـــاظر مقلبة وجهها فى الآفاق . وشعرت فجأة بداع يدعوها الى النظـــر نحو مدخل السطح ، فما راعها الا أن تراه هناك يملأ طوله فراغ الباب وينظر نحوها فى هدوء وفى عينيه الجميلتين شبه ابتسام ! . واضطرب قلبها لمرآه اضطرابة عنيفة زلزلت صـــدرها الصغير ، وشعرت بخوف وقلق ، ثم استعادت رباطة جأشـــها بسرعة موقنة بأن الموقف أحرج من أن تلقاه بالحياء فحسب ، ونطقت عيناها وهما تنظران اليه بالانكار والذهول .

٢٢

ثم حولت عنه عينيها ، وولته ظهـــرها ، والقت ببصرها الى الأفق البعيد دون أن ترى شيئا . وقال لها عقلها انه ينبغى أن تزايل المكان اذا أرادت ولكنها لم تحرك ساكنا ، وأهاب بها شعور باطنى بأن تتجاهل وجوده ، وبألا تعجل بذهابها ، فلبثت حيث هى لا تريم ، وتولاها احساس بالحياء والقلق . وتنهد رشـــدى ارتيـــاحا لما رآه من تفضيلها البقـــاء على الرحيـــل ، وقال لنفسه جذلا : « أصابت سن الشص مرماها ، ولكن ينبغى معالجة البلطية بحكمة ومهارة ! » . وكان علم بصعودها الى السطح اتفاقا ، اذ كان ينظر الى نافذة حجرتها المغلقة بأسف فلاحت منه التفاتة على سور السطح ، فصادف ذلك مرورها به وكان انتهى من ارتداء ملابسه استعدادا للخروج الى سهرته ، فحملته جسارته وحسن انتهازه للفرص الى الصعود الى السطح من فوره . ولمـــا اطمأن الى بقائها تفحص المكان بهدوء حتى أدرك خلوه ، ثم سار متمهلا

الى موقف قريب منها ، ولم تكن تخونه الجراة الجنونية ، ولكنه آثر معها الأناة لما عهده بها من حياء . ورأى على السور - فى موقع وسط بينه وبينها - عمودا خشبيا شد اليه حبل الغسيل ، ووقعت عليه يمامة ، فرفع رأسه الى اليمامة وقال بصوت خافت وهو يلحظ الفتاة بطرفه : « مساء الخير يا يمامتى ! » ورآها تلحظ اليمامة بطرف خفى فابتسم واستدرك : « ما اجمل سمرتك ! السمرة حلية الجمال وروح الخفة ، هلا سمعت بأغنية السمرة : « يا أسمر اللون حياتى الأسمرانى » ؟ وأنصتت الفتاة اليه - وان تظاهرت بعدم المبالاة - بأذنين مرهفتين ، وطاب لها صـــوته ، فابتسمت ابتسامة باطنية لم ترسمها شفتاها ، ثم غلبها الحياء فابتعدت خطوتين واشاحت عنه بوجهها . وجعل هو يقول محدثا اليمامة : « كيف لا تردين تحيتى ؟ .. كيف تعرضين عنى ؟! ... بل كيف اندست القسوة الى هذا الحسن الرقيق ؟ ! » . وتساءلت أما ينبغى أن تمضى الى حال سبيلها ؟ ألا تخاف أن يصعد البواب أو بعض السكان الى السطح فيريبه من موقفهما ما يريبه ؟ أبها مس يشد قدميها الى الأرض ؟ ! واستدرك رشدى قائلا : « ألا تعلمين يا يمامة أنى جارك ؟ .. وأن السماء الرحيمة لن تستطيع أن تغيبك بعد اليوم عنى ؟ وأنى ساكون دائما حيث تكونين ! » . وعطفت نوال راسها قليلا كأنما لترى اليمامة فوجدتها قد طارت ! وألفته ينظر نحوها بجسارته المعهودة . ولم تعد تجدى مخاطبة اليمامة ، فقال لها بهدوء :

- سعيدة .

فأشاحت عنه وجهها مرة أخرى ، وحـــركت قدميها ببطء شديد نحو الباب ، فدنا منها جزعا وقال :

- ألا تردين على ؟

فلم تنبس بكلمة وقد تورد خداها واختلج جفناها ، فاقترب منها اكثر من قبل وقال :

ــ أما تجودين بكلمة واحدة ؟.. كلمة واحدة ، لتكن عذلا ان شئت ، بل لتكن نهرا !

ولكنها حثت خطاها فهم باعتراض سبيلها ، فقالت له بحدة مصطنعة :

ــ اليك عن سبيلى !.. واخجلتاه لسلوك الجار !

ــ هل يعيب الجار أن يتودد الى جارته الحسناء !

ــ أجل ..

ــ واذا أجبره حسنها على ان يتودد اليها فمن الملوم ؟

ــ لا تستدرجنى الى الكلام ، واياك وأن تعترض سبيلى . .

ولكنه اعترض سبيلها غير مبال تحــذيرها ، فتملكها الخــوف واندفعت نحو الباب مارقة من تحت ذراعه ، فلم يسعه اللحاق بها . ونزلت على عجل خافقة الفؤاد ومضت نحو شقة سيد عارف . لم تكن غضبى ولا مستاءة ، بل كانت أبعد خلق الله عن الغضب أو الاستياء ، وجلست فى الشرفة تنتظر ربة البيت فلم تفارق مخيلتها صورة محياه الجميل ، ولا غاب عن سمعها رجع صوته الحنون . وجعلت تستذكر أحاديث أترابها فى المدرسة عن حيل الشبان ورسائل الغرام ونوادر الغزل ، ثم تساءلت ترى هل تدلى بدلوها منذ الغد فى حديث الحب الذى لا يمل ؟.. ولكن أى نوع من الشبان يكون ؟!.

ونزل رشدى بعد قليل مبتسما مسرورا . ولم يكن قلبه قد استشعر عاطفة صادقة بعد ، فكأنما كان يقوم بتمثيل دور محبوب ، بيد أنه كان كذلك من أولئك الممثلين الصادقين الذين يندمجون بتمثيل أدوارهم اندماجا يورى القلب ويقــدح شرره فاذا هم ضاحكون أو باكون . ثم انطلق الى الكازينو بشــهية متفتحة للسرور والشراب والطرب ...

٢٣

ومضت أيام العيد فلم تقع عينا أحمد عاكف عليها مرة أخرى ، وحسب أنها فى شغل بالعيد وملاهيه فدعا لها قلبه بالسرور . وكان كل مطمعه أن تراه فى البدلة الجديدة التى فصلها خاصة اكراما لها ، فقال لنفسه : ان البدلة لا تبلى فى أيام وسوف تراه يوما ما حتما وهو يرفل فيها . وشغل هو كذلك بعطلة العيد وان كان أنفقها جميعا فى قهوة الزهرة بين الصحاب ، ما عدا سليمان بك عتة الذى سافر ليعيد فى قريته ؛ ومن عجب حقا ألا يكون قد ظفر بصديق منهم على دوام العشرة والصحبة ، وذلك لأنه كان يتطلب فى الصديق سجيتين لا تجتمعان : أن يدين له — هو — بالتفوق والأستاذية ، وأن يكون مثقفا — ولو لحد ما — ليتمتع بصداقته . ولكنه غالبا ما يجد نفسه بين اثنين : واحد عامى — أو فى حكم العوام — يعجب بشخصه ويؤمن بعقليته . وآخر مثقف لا يذعن لمشيئته ويجادله جدل المعتد بنفسه المتحدى غيره . ولعله أن يحب الأول كما يمقت الثانى ، ولكن لا هذا ولا ذاك بالصديق المنشود . وقد أحب المعلم نونو ، وكمال خليل ، وسيد عارف ، ومقت أحمد راشد ، ولكنه ظل بغير صديق ، أو كان شقيقه رشدى الصديق الوحيد فى دنياه المحبوبة ...

مضت اذا أيام العيد دون أن تقع عليها عيناه . ولكنه لم يكف لحظة عن التفكير فيها ، ولا انقطع عن ادامة النظر فيما جد فى حياته من أمور . ألم تحدث عاطفة ، ويستيقظ قلب ، ويبتسم أمل ؟ ! ألم تحدث عاطفتان ، ويستيقظ قلبان ، ويبتسم أملان ؟ ! . لقد أحب بعد أن حرم من الحب زهاء ثلاثين عاما . وأحب بقلب آذن شبابه بوداع ، فهو يستمسك بالحب كآخر أمل

مرجى فى سعادة الدنيا . وجاء الحب عفوا بعد أن اشفى منه على اليأس ، ورجع فؤاده النغم القديم فتياً ندياً عذبا كأنه بعث من جديد . فوجب أن يفكر فى أمره . ويقبـــل على تدبير شأنه . ومضت أيام العيد وهو مشغول بالتفكير والتدبير . فهذى الحياة تمسح عن جبينها ما ألف من تقطيبها . وتجود له بفرصة سعيدة ليعاود تجريب حظه ، فلن يحجم ولن يتردد . وأراد أن يكون أعظم صراحة مع نفسه فغمغم فى وحدته : « الزواج ! » اجل ، ولكنه فى الأربعين وهى دون العشرين ، فهو فى سن أبيها ، ولكن ما وجه الانكار فى ذلك ؟ .. ألم تعلن له بميلها اليه ــ وقد خفق فؤاده للذكرى ــ ألم يختره قلبها ؟.. وأما صديقه كمال خليل فيرجح أن يرحب بيده ، وان لم يخل فى بادىء الأمر من دهشة . وتخيل أن القوم راحوا يتحرون عنه فعلموا أنه (فى الأربعين ، كاتب بمحفوظات الأشغال ، درجة ثامنة ــ فهو من المنسيين فى الحكومة كما أنه من المنسيين فى الدنيـــا ــ مرتب خمسة عشر جنيها !) ألا ينزعج كمال خليـــل الذى يحسب أنه من رؤساء الأقلام ؟ ... ألا تقول الست توحيدة ــ ام نوال ــ أن عمره كبير ومرتبه صغير ؟!.. وعض عند ذلك على شفته ، وعاوده شعور الأسى واليأس : وأوشك أن يثور به الغضب ، وأن يقول كما قال مرة فى مثل هذه المناسبة : « ان الدنيا جميعا لا تساوى زنتها قذارة اذا سولت نفس لصاحبها أن يستهين بى ! » ، ولكن توثبه لتجربة حظه لم يدعه يستسلم لجنون الغضب ، فطرد عن فكره خواطر اليأس ، واستعاد سروره ودواعى الأمل والسعادة من حياته الجديدة .

وانقضت أيام العيد الثلاثة وهو يفكر التفكير الذى يسبق العمل مباشرة ، وجاء يوم الجمعة الأول بعد العيد ولما يحقق شيئا من أفكاره ، بيد أنه رآها صباح ذلك اليوم لأول مرة ــ بعد مرة

أول أيام العيد ــ وسر فؤاده المشوق . كان اليوم من أيام نوفمبر الأولى . والجو رقيق منعش تسرى فى تضاعيفه من آن لآن هبات نسيم بارد ، والسماء تغشاها غلالة من سحاب ناصــع البياض ينضح بنور الشمس المتوهج ، ففتح النافذة ــ نافذة نوال ــ ورفع رأسه ، وما يدرى الا وفتاتهتطل عليه كالأمل النضــير والحلم السعيد ، وحياها بابتسامة وايماءة ، فردت تحيته مبتسمة . ولكم عشق ابتسامتها ، ولبث يملأ عينيه من سمرتها الصافية . وخطر له وقتذاك أن يحاول تفهيمها بالاشارة ــ وعلى قدر المستطاع ــ انه يوشك أن يحدث والدها بشأنهما ، ولكنها ســبقته فأنامت رأسها على راحتها كأنما تقول له انها ترغب أن تنام ، وأشارت على رأسها وقطبت ثم لوت شفتيها تعنى أن رأسها موجع ، ثم حنت له رأسها وتراجعت مولية . وأسف على فوات الفرصة ، ولكن تصميمه تضاعف . وأراد أن يدخن سيجارة فوجد علبة السجائر فارغة ، فمضى الى حجرة رشدى ليأخــذ منه سيجارة ، وكان الباب مواربا فدفعه بهدوء ودخل ، ورأى شقيقه مرتفقا النافذة شاخصا الى أعلى ، مستغرقا حتى انه بلغ نصف الحجرة قبل أن يتنبه الشاب لمجيئه ، فاستطاع أن يرى من موقفه النافذة الأخرى التى يتطلع اليها أخوه ، وأن يلمح حال توسطه الحجرة رأس نوال ــ دون غيرها ــ وهو يرتد بسرعة البرق ! وانتبه رشــدى الى مجىء شقيقه ــ باختفاء الفتاة الذى هو بالفرار أشبه ــ فالتفت وراءه ، ثم ابتسم للقادم بترحاب وبوغت أحمــد مباغتة عنيفة منكرة كانت أعنف وقعا عليه من انفجار القنــابل ليلة الغارة ، فزلزلت صدره ــ الذى جاء به مثلجا مطمئنا ــ قلقلة جنونية صدعته كما ينصدع السحاب بشرارة البرق القوية الخاطفة . ولكن لم يغب عنه تحول الشاب اليه ، فأغضى بصره ــ ببداهة الغريزة وسرعتها ــ ليخفى عينيه ، وأهاب بقوته الكامنة ليحافظ على

هدوء مظهره ، وتكلف ابتسامة ، ثم نظر الى الشاب الذى أقبل نحوه مبتسما ابتسامته الحلوة البريئة وقال بهدوء :

ـ سيجارة من فضلك .

واستخرج رشدى علبة سجائره من جيب بيجامته وفتحها وقدمها لأخيه ، فتناول الرجل سيجارة شاكرا ، وحياه برفع يده الى جبينه ، ثم قفل راجعا ..

٢٤

ورد باب حجرته وهو لا يكاد يرى شيئا من الذهول ، ورمى بالسيجارة الى فراشه ، ثم اقترب من النافذة ورفع رأسه فرأى الشرفة كما تركتها مفتوحة وخالية ، ثم أطرق مقطبا واغلق النافذة بشدة طقطق لها الزجاج ، وعاد الى الفراش وجلس على حافته مغمغما : « غاب عنى أن هناك نافذة تطل على نافذته مثل هذه الشرفة ؛ حقا غاب عنى ذلك » وكأن دمه استحال نفطا يمد قلبه بألسنة من لهيب . ألم يرها وهى ترتد فزعة لدى ظهوره ؟ ، فهل غير الشعور بالاثم افزعها ؟ أو ما الذى دعاها الى النافذة بعد أن أوهمته أنها ذاهبة لتنام ؟ فليس وراء ذلك كله سوى معنى خبيث يتخايل خلفه البشع خلف خداع الآمال الباطلة . ومن عجب أنه لم يمض على حضور شقيقه الا عشرة أيام ، ففى أيام معدودات تغير كل شيء ـ وشعر عند ذاك بصفعة ـ فكفر قلبه بهواه ، وصارت ابتسامة الترحاب خدعة رياء ، ترى كيف تحدث هذه الانقلابات ؟ أتقع فى يسر وهوادة كأنها لا تعرك ضحايا ؟ أم أنها تلقى ما هو خليق بها من التردد والألم ؟ ، أكانت تلعب بهما ؟ أيمكن أن تتكشف تلك النظرة الساذجة عن مكر سيىء وخبث

وعر ؟! ، ولماذا اذا بادلته التحية منذ دقائق ؟ أهو الحياء والحرج أو أنه المكر والحيطة ؟ »

أما الشاب فلا يدرى من الأمر شيئا ، انه بریء من دمه ، ولعل أنه رآها فراقته فغازلها كعادته فاستمالها فهويته ، بنظرة واشارة نسيته ــ وهل خطـــره أكبر من ذلك ؟ ! نسيت الكهل الأصلع الفانى . فلا يلومن الا نفسه ، ألم يكن له فيما اكتسب من معرفة بحظه وسوء ظنه بدنياه ، وبالمرأة خاصــــة ، ما يحرز به نفسه من غوائل الأمل وومضات السـعادة الكواذب ؟ . ونهض قائما وقد اشتد شحوب وجهه ولاحت فى عينيه نظرة حزن عميق ويأس سحيق ، وجعل يذرع الحجرة جيئة وذهابا ما بين الفراش والمكتبة حتى عراه دوار فعاد الى مجلسه من الفراش ، وراح يتساءل : أيرضى أن يستبقا ــ هو وأخوه ــ فى مضمار منافسة واحد ؟ . وثار كبرياؤه وشمخ بأنفه ، محال أن يتنـازل لمنافسة انسان ، فالمنافسـة الحقة لا تثور الا بين أكفاء !. ومحال كذلك أن يطلع شقيقه على سره فكبرياؤه تأبى عليه أن يستجدى السعادة أو يستوهب الحب . وخليق بمن كان مثـــله أن يترفع عن هذه الصغائر ــ الحب والفتاة والظافر بهما ــ فهو أكبر من هذا جميعه . ولكن ما بال الألم لا يرحم كبيرا ؟ ! ، لماذا لا يعـرف هـذا الألم القتال قدره فيتوارى ؟ ! ، كيف تلسع الغيرة قلبه بمثل شوكة العقرب ؟ ، والام يئن كبده ويتوجع ! . الحقيقة أنه مد يده ليجلو عروسه فتكشف له قناعها الموشى عن جمجمة ميت ! . ورأى بعين خياله صورتهما المزدوجة ، هو بشـــبابه الريان وهى بعينيها النجلاوين . فوجد ألماً وإباء وعجرفة قاسية . ترى لماذا يحول رشدى دائما بينه وبين سعادته وما أحب انسانا مثله قط ؟ فهو الذى أجبره ــ قبل عشرين عاما ــ على التضحية بمستقبله ليقف حياته على تربيته ، وها هو الآن يجنى ثمرة سعادته ويدوس أمله

المنشود بقدم غليظة ! . واستولى عليه الغضب وتقيحت نفسه بالسخط والحنق ، وثار بركانه فى عنف ودوى . ولكن الكراهية لم تجد سبيلا الى نفسه ، لم يكره أخاه لحظة واحدة — حتى وهو فريسة الثورة فى عنفوانها — بيد أن حبه له أصيب بنوبة وقتية أفقدته وعيه ، فأغمى عليه ولكنه لم يمت ، بل لم يشعر نحوها — وهى الخليقة بالاتهام — بكراهية أو مقت ، وان بدا سخطه كأن لا نهاية له . ثم خمدت ثورته بسرعة عجيبة تدعو للدهشة حقا ، فولت أحاسيس الغضب والسخط والعجرفة ، مخلفة وراءها حزنا عميقا لا يتزحزح ويأسا خانقا لا يريم وخيبة متغلغلة لا تؤذن برحيل ، وحين عاودته ذكريات الأمس السعيدة — لم يتحسر عليها ولم يأسف — ولكنه شعر بهوان وخجل !. وانشأ يقول بصوت خافت حزين وكأنه يحدث غير نفسه : « برح الخفاء ، ولا مفر من الحقيقة ، أنت رجل سيىء الحظ ، بل هذا قول دون الواقع بكثير ، فالحق أن الدهر نصبك هدفا لسهام الخيبة والاخفاق ، ووكل بك قوة شيطانية فظيعة تلقف من سبيلك كل فرصة سانحة أومصادفة سعيدة اذ أنت تحسب أنه لم يعد بينك وبين الرجاء الا كلمة تقال أو راحة تبسط ، وما تكاد أن تمد حجرك لتلقى ثمرة دانية حتى ينقض عليها طائر الشؤم الكاسر فيلتقطها بمنقاره ويطير بها ، وتوشك أن تصعد قمة هرم من المحاولات فيندك عاليه سافله ويلقى بك الى غور سحيق . آفاقك تلتمع ببروق الآمال الكاذبة وموضعك من الأرض مظلم عابس . هل يوجد فى الدنيا انسان مبتلى بمثل عناد حظك العاثر !! الناس يحثون الخطى باسمى الثغور ما بين ممتع بصحته ، وهانىء بأسرته ، وراض بمكانته ، وسعيد بماله ، فأين أنت من هؤلاء جميعا ؟! . لا صحة ولا أسرة ولا مكانة ولا مال ! . فى البدء قصم ظهرك عثار أبيك ، وبدد آمالك حدبك على شقيقك ثم أعقم مواهبك العقلية بيئتك الجاهلة ؟ . ماذا يتبقى لك من احلام دنياك ؟ ذهب الشباب فلم ينجب حتى ذكرى

جميلة تتفيأ ظلها فى هجيرة العمر ، وها هى الكهولة تطعن بك فيما وراء مشارف الشيخوخة ، فكيف تحتمل هذه الحياة العقيمة ؟ ان الرجل ليطلق الزوجة الوفية اذا عقمت ، ففيم احتمالك دنيا — لم تعقم فحسب — ولكن تورث الألم والضنى ؟ ! . . . لماذا وجدت فى هذه الدنيا ؟ أما من نهاية لهذا الألم الممض وذاك الملل المسقم ؟ . . ثم ماذا أجدى عليك هذا العقل ؟ وماذا أفدت من المعرفة ؟ حلفتك بهذه الآلام جميعا الا ما أغلقت الكتاب الى الأبد وحرقت هــذه المكتبة العاتية ، ولخير لك أن تدمن على مخدر يذهل العقل عن الوجود حتى يتداركك الذهــــول الأكبر . الحياة مأساة والدنيا مسرح ممل ، ومن عجب أن الرواية مفجعة ولكن الممثلين مهرجون ، من عجب أن المغزى محزن — لا لأنه محزن فى ذاته — ولكن لأنه أريد به الجد كل الجد فأحدث الهزل كل الهزل ، ولما كنا لا نستطيع فى الغالب أن نضحك من اخفاق آمالنا فاننا نبكى عليها فتخدعنا الدموع عن الحقيقة ، ونتوهم أن الرواية مأســـاة والحقيقة أنها مهزلة كبرى ! » وصمت قليلا متفكراً ، متجهم الوجه ، منقبض الصدر ، ثم نهض قائما فى وثبة عنيفة وقال بشىء من الحدة : « الى الكهف المظلم ، كهف الوحدة والوحشة . الى القبر البارد ، قبر اليأس والقنوط . لقد ركلتنى الدنيا وهى الدنية ولأركلنها وأنا المتعالى . ان الخصى أزهد حيوان فى المرأة فاذا استأصلت من نفسى كواذب الآمال سدت باليأس الدنيـــا جميعا . فالى كهف الوحشة نتزود من ظلمته غشاوة تحجب عن أعيننا خدع الحياة ! »

والتفت بعنف نحو النافذة — نافذة نوال — التى اغلقها منذ حين وقال بغضب :

— غلقاً الى الأبد . . غلقاً الى الأبد ؟

٢٥

ورأى أن يذهب ـ كعادته صباح الجمعة ـ الى الزهـرة ، ووجد حزنه حافزا يدعوه للذهاب الى هناك ابتغاء الوسيلة الى التسلى عن حظه . وأخذ يرتدى بذلته الجديدة وقد ذكر كيف فصلها ولماذا تكلف ثمنها فنفخ من الغيظ والحنق . وغادر الشقة . ولدى نزوله السلم تذكر الصباح الأول له فى العمارة وكيف التفت وراءه فرأى عينى نوال لأول مرة ، فكيف يمكن اتقاء الشقاء المقدر ما دام يبدو فى حلل آمال مشرقة وألوان ناضرة ؟ على أنه لم يغب عنه أن ما يعانيه من أحاسيس الألم والاضطهاد والظلم لا يخلو من لذة ، لذة دفينة غامضة لا تكاد تفصح عن ذاتها . وسار فى الطريق بقدمين متثاقلين متفكرا فيما يجلبه اعراض بنت قاصر على كهل عاقل حكيم من الحزن واليأس فهاله الأمر وكبر عليه ، وجعل يقول لنفسه كالساخر : « واخزياه ، كيف أمكن هذا ؟ ! . . بنت مقمطة تفعل بى كل هذا ؟! . كيف سمت بى الى نضرة النعيم ثم ردتنى الى أسفل الجحيم ! وما جدوى الحكمة اذا عبثت بها جراثيم الشهوة هذا العبث المزرى ؟ ! ألم يكن من الأفضل ـ غفرانك اللهم ـ أن نخلق خيرا من هذا ؟ . واذا كانت الدنيا جميعا تمسى ظلاما ويبابا لمحض أن جرثومة ـ تنقض الوضوء ـ استاءت أو اخفق لها أمل ، أفليس من الحكمة أن نبول على الدنيا وما فيها ؟! » . ثم انقطع عن حديث نفسه لدى وصوله الى القهوة ، ووجد الصحاب جميعا قد سبقوه الى هناك ـ الا سليمان بك عتة الذى لم يعد بعد من بلدته ـ ووجد معهم المعلم نونو وكان من عادته أن يغلق دكانه يوم الجمعة من الساعة العاشرة الى ما بعد صلاة الجمعة . أما عباس

شفة فأخذ مجلسه المعهود جنب المعلم زفتة غير بعيدين عن حلقة الصحاب وكان الراديو يذيع بعض الأسطوانات بينا أخذ الرجال فى الحديث . وأراد كمال خليل أن يشرك القادم فى حديثهم فقال له متسائلا :

ـ وما رأى الأستاذ أحمد عاكف فى الغناء ، أيفضل القديم أم الحديث ؟!

ويل الشجى من الخلى ! ولكن ألم يجئهم ملتمسا العزاء فى لغوهم ؟! بلى . واذا فليدل بدلوه وليكونن من الشاكرين ، وكان مغرما بالغناء ـ وهل تلد أمه الا مغرما بالغناء ؟ ـ الا أنه يفضل القديم وما يتبع طريقته من الحديث بحكم العادة وبوحى النشأة الأولى . فقد سمع أول ما سمع أغنيات القيان وأسطوانات منيرة وعبد الحى والمنيلاوى فاختلس نظرة من خصمه أحمد راشد المخبأة معارفه وراء نظارته السوداء ، ثم قال :

ـ الغناء القديم هو الطرب الذى يأسر نفوسنا بغير عناء !

فصاح المعلم زفتة بسرور « الله أكبر » وصفق المعلم نونو ثلاثا ، أما سيد عارف فتساءل :

ـ وأم كلثوم وعبد الوهاب ؟

فقال أحمد عاكف وقد اختلس من خصمه نظرة أخرى :

ـ عظيمان فيما يرددان من وحى القديم تافهان فيما عداه !

فقال سيد عارف :

ـ أم كلثوم عظيمة ولو نادت ريان يا فجل !

فقال أحمد عاكف :

ـ أما صوتها فلا خلاف عليه ولكن حديثنا عن الغناء من الناحية الفنية !

فقال أحمد خليل :

ـ الأستاذ أحمد راشد يعجب بالغناء الحديث بل وأشاد بالموسيقى الافرنجية !

والظاهر أن الشاب المحامى كان راغبا عن الجدل فقال بغير اكتراث :

ــ رأيى فى الغناء رأى غير خبير ، والحق انى قليل الاهتمام بالغناء !

وأبى المعلم نونو الا ان يناقش رايه ، فقال بصوته العريض الأجش :

ــ يا اخواننا ، أمة محمد ما تزال بخير . هل سمعتم ولو مرة انجليزيا ــ وهم بين ظهرانينا منذ أكثر من نصف قرن ــ يغنى يا ليل يا عين ؟!.. والحقيقة ان من يفضل اغنية أفرنجية كمن يشتهى لحم لخنزير مثلا ؟!

وكان المعلم زفتة قليل الكلام لانشغاله فى الغالب بعمله ، ولكن الموضوع استفز اهتمامه فقال بصوت دلت مخارجه على أن صاحبه قد فقد ثنيتيه على الأقل :

ــ اسمعوا القول الفصل : أجمل ما تسمع الأذن سى عبده اذا غنى يا ليل ، وعلى محمود اذا أذن الفجر ، وأم كلثوم فى امتى الهوى . وما عدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب !

وأشفق أحمد عاكف من أن يتغير موضوع الحديث من غير أن يتفلسف فقال :

ــ ان الاعجاب بالحديث من الغناء أو بالموسقى الافرنجية وحى من تقليد المحكومين للحاكمين كما يقول ابن خلدون !

ولم يخرج أحمد راشد عن صمته ، ولم يستثره هجوم أحمد عاكف ، فوقف الحديث عن الغناء عند ذاك الحد . ثم تحول مجراه الى سليمان بك عتة بغير رابطة تداع بعد أن لاحظ كمال خليل أن الرجل تأخر بالبلد أكثر من المعتاد ، فقال سيد عارف متضاحكا :

ــ اراحنا الله أسبوعين من وقاحة خلقه .

فقال عباس شفة بانكار :

ـ عما قريب يصير عروسا يا هوه !

فاستدرك سيد عارف قائلا بأسف :

ـ أما العروس كريمة يوسف بهلة فوالله ما رأت عينى اجمل منها قط !

فتساءل أحمد عاكف :

ـ اما يدرك صاحبكم أنه لولا الطمع فى ماله مارضى به أحد زوجا !

فقال عباس شفة :

ـ بغير شك . فلا شباب ولا جمال ولا اخلاق !

وامتعض أحمد من هذا الوصف ، وشعر بأنه ينطبق عليه من أكثر من وجه . لاشباب ولا جمال ولا أخلاق ، وأضاف اليها من عنده « ولا مال ! » . ثم أطرق هنيهة غارقا فى الكآبة التى كان انتشله منها لغو الحديث . وخاف أن يستأثر به الحزن فخاض الحديث مرة أخرى متسائلا :

ـ وما الذى يحمله على الاستسلام لطمع الطامعين ؟

وهنا التفت أحمد راشد نحوه وقال بلهجة ساخرة قل أن يصطنعها فى حديثه :

ـ وما الداعى الى العجب فى ذلك ؟ أليس المـــال كالشباب والجمال من المزايا التى تحبب الرجل الى المرأة ؟ بل لعل المال أن يكون أبقى على الدهر من الآخرين !

وسرعان ما اقلع الشاب عن السخرية وقال بلهجته الجدية :

ـ ان شيخا فى سن عتة بك لا يطمع فى الحب الذى يستأثر به الشباب . لكنه اذا ضم اليه عروسا نفيسة أرضى بها غريزة الحب المضمحلة ، وغريزة الملكية المسيطرة .

فقال عباس شفة :

ـ الشباب ينتقل بالعدوى ، فالشيخ خليق بأن يكتسب من عروسه روحا من نضارة الشباب ، فلا يبعـــد والحال كذلك أن يتحول البيك فى القريب العاجل من قرد الى حمار مثلا :

فتساءل المعلم زفتة :

ـ هل نفهم من هذا أن أصلك قرد !

ولم يوافق المعلم نونو على التهكم بالشيخوخة بطبيعة الحال فقال :

ـ العبرة فى السن بالصحة لا بالسنين ؛ فأبى تزوج فى الستين وخلف . وهاكم سيد عارف أفندى على سبيل المثال (وضحك ضحكته المجلجلة) فماذا صنع له شبابه ؟

وضحك الجميـــع ـ وعاكف معهم ـ ممـــا جعل سيد عارف يقول :

ـ لا تضحك يا معلم نونو فعما قريب يتغـــير الحال ، وقد علمت بأقراص جيدة تجرب ، وسترى !

ولم يستطع أحمد عاكف أن يوليهم انتباهه أكثر من ذلك ، فكان كالسابح الذى تخور قواه وتوهى مقاومته فيغوص تحت سطح الماء . فلم يدر كيف انتقل بهم الحديث الى أخبار الحرب . ولا كيف راح سيد عارف يعدد انتصارات الألمان فى روســـيا ، ويذكر بالفخار ســـــقوط فيازما وبريانســـــك وأوريل وأوديسا وخركوف ، واقتحام شبه جزيرة القـــرم . ثم نهض المعلم نونو للذهاب الى المسجد لصلاة الجمعة ، فاستأذن الكهل وانصرف معه راجعا الى البيت . ووقف فى الصالة هنيهة متسائلا ترى أما يزال رشدى ملازما حجرته ؟ . وسار فى الدهليز متمهلا حتى دنا من باب الحجرة فشم رائحة التدخين النافذة من خصاصة الباب ، ثم قفل راجعا الى حجرته . لأول مرة يمضى رشدى يوم عطلة فى البيت ! بل الأوفق أن يقول يوم عطلتهما ، والمرجح أنه لم يفارق

حجرته وانها لم تزايل النافذة ، والله يعلم كم تحيات تبودلت ، وكم من بسمات ومضت ، وكم من آمال أشرقت . وخلع ملابسه وارتدى الجلباب والطاقية ، وجلس على الشلتة القـــريبة من المكتبة . كان مترعا بالكآبة ، ولكن خلا قلبه من الغيرة ــ أو الغيرة السافرة على الأقل ــ وقال لنفسه ان ما يحـــدث فى الناحية الأخرى من الشقة لهو أطفال غير حقيق باهتمامه ، أهذا شعور وقتى ؟ لا يدرى ، ولكن خيـل اليه أنه شفى . وتساءل كيف حدث هذا بمثل هذه السرعة ؟ أكانت عاطفته سطحية توهم أنها الحب ؟ . واستراح الى شعوره ، ومد يده الى المكتبة واستخرج كتاب مقاصد الفلاسفة للامام الغزالى ، فهذا أحق بتفكيره ، وهو من الكنوز التى لا يدرى أحمد راشد عنها شيئا ، وفتح الكتاب عن فصل الالهيات ، وحاول مطالعة مقدمة تقسيم العلوم . ولكنه أدرك بعد برهة قصيرة أنه يبذل من الجهد فى تركيز انتباهه ما لا يدع له بعد ذلك لذة فى متابعة القراءة ، فأغلق الكتاب وأعاده الى مكانه . وقال انه لا بأس من أن يعفى عقله اليوم مكافأة له على الجهد ــ أيا ما كان هذا الجهد ــ الذى بذله فى سبيل النسيان . كانت عاطفة تافهة . بل كيف كان يمكن أن تسـعده تلك الفتاة وهو على ما هو عليه من عقل ومعرفة ، وهى على ما هى عليه من بساطة وسذاجة ؟ ! حقا أنقذه شقيقه من ورطة كادت تودى به . ومنذ الآن ينبغى أن يفتح عينيه ، وأن يقلع بصفة نهائية عن التفكير فى الزواج ، وهيهات أن يجد امرأة كفاء له ! ! بيد أن الخيانة ذميمة شوهاء . ألم تغازله ؟ ألم ترض به حبيبا ؟ فكيف تغيرت بمثل هذه السرعة التى لا تصدق ؟ ! . حقا ما يهمه أن يعرف شيئا ولا يعبأ شيئا ، ولكن هل خلق الله أقبح منظرا من فتاة ذات وجهين ؟ ! شفى والله ونسى ، ولكن ما أتفه الدنيا اذا كانت القلوب تتقلب فى غمضـة عين !! . وقطع عليه أفكاره المحمومة

صوت دوى يصيح : « ملعون ابو الدنيا » ، فأدرك أن المعلم قد عاد من صلاة الجمعة الى دكانه ، ونهض مسرورا بالتخلص من أفكاره الى النافذة المطلة على الحى الجديد ففتحها ، ووقف وراءها يسرح الطـــرف فى مناظر الحى التى ألفهـــا وملها ، ليتهم ما غادروا السكاكينى ؛ بل وجد نفسه يتمنى فى أعماقه لو أن أخاه لم ينقل من أسيوط ! . فلو لم يحضر لمــا عكر صفوه معكر . وما لبث أن تألم لتمنيه هذا غاية الألم . انه يحبه ما فى ذلك من شك . ولا يمكن أن يفتر حبه لأخيه وابنه وربيبه .. ولكن الغريب المنكر أنه يحبه ويكره وجـــوده معا ! . لو لم ينقل الى القاهرة لكان ــ احمد ــ الآن فى عداد الخاطبين . وما يدرى الا ونفسه تسكب تحنانا للحياة الزوجية غافلة عن هواجسها السالفة ؟ فبدا له أن العدد اثنين هو العدد المقدس . ليس العدد الواحد بالمقدس كما يقول الفيثاغوريون ولكنه الاثنان ! الانسان يفقد نفسه فى الجماعة ، ويغرق فى الكآبة فى الوحدة ، ولكنه يجدها عند أليفه . فالتكاشف الصريح ، والحب العمــــيق ، والألفة المتزجـــة ، وفرحة القلب بالقلب ، والطمأنينة اللانهائية لذات عميقة لا تحدث الا بين اثنين . وكم مل الكآبة ، وضجر من الوحشة ، وكره الفراغ . وهذه نفسه تنازعه مشوقة متلهفة الى الحب والحنان والألفة والمودة . اين ثغر يبسم اليه مشرقا بالعطف ؟ أين قلب يرجع خفقان قلبه خفقة خفقة ؟ أين صدر يرضـــع منه قطرات الطمأنينة ويعهد اليه بطويته ؟ وبلغ منه القهر منتهاه فتراجع الى الفراش محسورا وهو يحرك رأسه بعنف ، كأنما ليصد عنه أحاسيس الحزن والخور ، وليسترد حقـــده وصرامته وغضـــبه وايمانه الوحشى بالوحدة والعجرفة والتعالى عن العواطف البشرية . وقد تبرد الغيرة ، وتخمد العـــاطفة ، أما ما يمس كبرياءه فيحـــدث حتما قرحة

لا تندمل ، وكيف تندمل وكلما التأمت قشرها غروره الأعمى ؟ ! ولذلك جعل يقول قارضا أسنانه : « ينبغى أن تدرك ــ الفتاة ــ أننى تنازلت عنها بغير مبالاة البتة ! »

٢٦

واستيقظ غداة السبت متعبا بعد ليلة مسهدة . فهو يؤدى ثمن اليقظة التى فرح بها قلبه ، وان كانت يقظة قصيرة ، وأيا ما كان فما دام النسيان يكمن وراء الأحزان فالعزاء مرجى ، أين اليهودية الحسناء وحبها المثالى ؟ ! فالزمان يسحب ذيول النسيان على الماضى ويبلع الذكريات . ولكن لا ريب أنه مما تطيب به نفسه الا يعبأ شيئا ، أو أن يتظاهر بذلك على الأقل ، وأن يريها أنه لم يكد يشعر بأن فتاة هجرته . ومضى الى الحمام فوجد باب حجرة شقيقه مواربا ، ولمحه يستكمل ارتداء ملابسه ــ وقد عجب لذلك لأن الشاب كان يستيقظ عادة متأخرا عنه ــ بل رآه رافعا رأسه الى النافذة الأخرى ، فتقبض قلبه كأنما أصابته شكة ابرة ، . وأسلم رأسه للماء البارد طويلا لينعش أعصابه المحطمة . ثم عاد الى حجرته وارتدى بذلته . وخرج الى السفرة ليحسو قهوته ويدخن سيجارته ويتناول لقمته البسيطة . وكان وطن النفس على لقاء الشاب بما يعهده منه من الانس به مستعينا بما طبع عليه من مداراة ما يعتلج بنفسه . وأقبل رشدى مرتديا البدلة والطربوش وابتسم اليه ابتسامته المحبوبة فقال:

ــ صباح الخير .

ــ صباح النور .

وعجب أحمد من لبسه الطربوش اذ كان يفطر عادة عارى الرأس فسأله :

ـ لماذا عجلت بلبس الطربوش ؟

فقال رشدى والابتسامة لا تفارق شفتيه :

ـ سأتناول فطورى فى الخارج لأن لدى أعمالا مستعجلة .

ـ وما الذى دعا الى هذه العجلة ؟

ـ انجاز بعض الأعمال المتعلقة بوظيفتى !

وحياه الشاب ـ كما حيا والدته التى كانت تعد الطعام ـ ومضى بقوامه الرشيق وابتسامته المشرقة . ولم يصدق أحمد أسطورة « بعض الأعمال » فارتاب فيها لأول وهلة . وبدا له كاليقين أن رشدى بكر فى الاستيقاظ على غير عادته وعجل بالخروج من البيت ليلتقى بنوال فى مكان ما من طريق المدرسة . هذا ما حدسه قلبه المحزون ، فهل اتفقا على ذلك حقا ؟ .. وذكر ممتعضا كيف لبث مرتبكا جامدا ـ مدة علاقته بها ـ لا يدرى ماذا يفعل ، أما هذا الشاب الجسور فليس فى مذهبه بين التحية واللقاء سوى غمضة عين . وأعجب بجسارته حقا كما أعجب به يخطر أمام عينيه بشبابه الريان وقده المشسوق منذ دقيقتين . الا أنه اعجاب انطوى على احتقار النفس والتمرد فلم يخل من حنق وغضب . فكان كمن يسبح بخلود الخالق وهو يرثى فناء المخلوق . وبعد قليل لبس طربوشه وغادر الشقة . ومال الى قطع شارع الأزهر مشيا على الأقدام تخفيفا عن أعصابه المتوترة ، فالتزم الطوار الأيسر وحث خطاه ، وقال لنفسه بصوت كالهمس ليوحى اليها بالحكمة : « دع بواعث هذا الحزن العميق لاتستحضرها الى وعيك ، اقذف بها الى هاوية النسيان ، واذا كانت القراءة لم ترشدك الى الحكمة بعد فخذها من شخص سعيد كالمعلم نونو ! » . وتمثل نونو لعينيه بصحته ومرحه فتأوه من الأعماق : لماذا يحمل

نفسه ما لا طاقة لها به من الكآبة كأنه الثور الذى يقولون انه يحمل الكرة على قرنه ؟! كيف جهل فن السعادة هذا الجهل المزرى ؟ ولماذا لا يقصد الضاحكين ويسترشد بهم الى طريق الضحك والسرور ؟ ينبغى أن يفوز فؤاده الكسير بحظه من السعادة لأنه من العبث أن تمضى الحياة هكذا فى كآبة وحزن . وردد هذه الخواطر حتى بلغ ميدان الملكة فريدة واستقل الترام وكان الترام مكتظا فاضطر أن يقف بين الواقفين مضغوطا وكان يمقت الزحمة بطبعه فثارت نفسه بعد هدوء قليل ، وخطر له خاطر غريب مخيف ، فتمنى لو كان من الممكن ان تخلو الدنيا من بنى آدم ! ولم يدر أن كانت وقفته هى التى أوحت اليه بذلك الخاطر المخيف أم أن هنالك بواعث أخرى . فقد تمنى من قبل أو تخيل انه يتمنى لو تقفر القاهرة أثر غارة ! فخجل من خواطره الجهنمية التى تحلم أحيانا بالتدمير المخيف لغاية تافهة كأن يستأثر بفتاة دون شريك ولا منافس ! . على أنه عاد يقول لنفسه متأففا : أليس الغدر ذميما كالدمار !

٢٧

خرج رشدى عاكف مبكرا على غير عادته ، ودون أن يتناول فطوره ، يدفعه ما هو خليق بتغيير العادات وتأخير الفطور . ولما انتهى الى السكة الجديدة رأى الفتاة على بعد قريب صاعدة طريق الدراسة الى الطريق الصحراوى المؤدى الى العباسية ، فتباطأ قليلا حتى اتسعت المسافة بينهما ثم تبعها عن بعد . وكانت على علم سابق باتباعه لها — كما أنذرها به بالاشـــارة فى النافذة — وكانت أيضا على رضى بذلك أخفى أكثره الدلال والحياء ، وفضح أقله — وكان به الكفاية — الابتسام أو مغالبة الابتسام . وكان

الزمن المتاح لرشدى قصيرا حقا ، ولكن زمنه من ذهب وماس ، فلم يكف منــذ مقابلة السطح ــ بل منذ رآها أول مرة ــ عن رصدها وموالاتها بالمطاردة والغزل حاشدا لتصيدها هباته جميعا من أفانين الشباب والحسن والدعابة والصبر ، حتى ظنته قطعة من النافذة . ولم يشك الفتى فى ظفره من باديء الأمر ، ولا شكت هى فيه ! ، أو فما معنى مجيئها الى النافذة كأنهما على موعد ، واستسلامها لنظراته ، وتصديها لبسماته واشاراته ! ! فان كان هناك ظل من الشك فقــد مسحته ابتسامتها الأخيرة وقضى الأمر ! . على أنها لم تستسلم بغير تردد ، بل كانت خائفة مما تنزع بها النفس اليه . وكانت تلوح لها صــورة الآخر ــ أحمــد ــ فيتولاها الخجل ويساورها القلق . الا أنها رأت عيوبه واضحة على ضوء الوجه الجديد المشرق ، فتساءلت لماذا يلوح الخوف فى عينيه دائما ! ، لماذا يبدو كالفأر ما ان يسمع حسا حتى يفر الى جحره !! ، الام يظل جامدا لا يتحرك ولا يفعل شيئا ! . وانها لعلى مثل حيائه فتحتاج بطبيعة الحال الى جسور يقتحم حياءها ، فلم تجد فيه طلبتها أو أنها أدركت ذلك حين وجدت طلبتها الحقيقية . هذا الى بون شاسع بين شباب نضير وكهولة ذابلة ، وجمال صبيح وخلقة قلقة غامضة ، ومرح باسم وكآبة موحشة . والحق أنها مالت الى أحمد لأنه كان الرجل الموجود . أما رشدى فحرك قلبها المشبوب وأهاج عاطفتها . هكذا جازت صبره بابتسامة . وهكذا كتبت بهذه الابتسامة أول كلمة فى القصة الجديدة .

صعدا طريق الدراسة ، وانعطفا الى الطريق الصحراوى ــ هى سابقة وهو لاحق ــ كان الصباح نديا رطيبا مائلا الى البرودة ، يعابثه نسيم رقيق يهب بأنفاس نوفمبر التى تنعى الازاهر الى المحبين ، أما السماء فسمتها محمل سحابا ناصعا ، يتصل حينا ، ثم يتفرق فى المشرق فيحدث بحيرات ثلجيــة تنضح شطآنها

بالشعاع الصاعد من الافق فتتوهج أهدابها وتخطف الأبصار . منظر تطمئن النفوس اليه . الا نفسين تفانتا معا ! وقد أوسع خطاه بعد المنحنى فأدركها ، وشعرت الفتاة بوقع خطاه تقترب منها فلم تعطف رأسها اليه ، ولكن أثر اقترابه بلغ خديها فتوردا ، وعينيها الكبيرتين الصافيتين فابتسمتا وهى لا تدرى . ثم حاذاها حتى أوشك أن يلامسها ، وقال برقة :

ــ صباح الخير ..

فمال رأسها اليه قليلا ولحظته بطرف متردد وقالت بصوت خافت :

ــ صباح الخير .

وكانت متأبطة حقيبتها كعادتها فقال مبتسما :

ــ أتأذنين لى أن أحمل عنك هذه الحقيبة ؟

فابتسمت بدورها وقالت :

ــ كلا ، لا داعى لذلك ، فهى خفيفة على كبرها . ولا ضير من حملها البتة .

ــ لا بد أن تثقل على يدين رقيقتين كيديك !

ــ بل يداى تثقلان عليها . لا تعودنى الترف من فضلك !

فضحك بسرور صادق وقال :

ــ أليس مما يخجل حقا أن أسير طليق اليدين وأنت تحملين هذه الحقيبة الكبيرة !

وأخذ الارتبـــاك يزايلها ويحل محله الأنس به . فسألته معترضة :

ــ ولماذا تخجل ؟ انى أحملها كل يوم بكرة وعشيا .

ــ الظاهر أنك تخافين أن أخطفها .

ــ ليتك تقدر على هذا حقا ، فانها تحوى واجبات ثقيلة أخفها الحساب !

فضحك مرة أخرى وقال :

ـ لعن الله علماً يثقل عليك !

فابتسمت متشجعة وقالت :

ـ أتلعن العلم اكراماً لى حقا . أم لعداوة قديمة ؟ !

ـ بل اكراماً لك وان لم يخل الحال من عداوات قديمة . ترى ما أحب العلوم اليك ؟

ـ التاريخ واللغات !

وكان على عكسها يحب العلوم والرياضة ، ولكنه أبدى سروراً طافحاً وصاح بعزم :

ـ اتفقنا والحمد لله !

فعجبت لسروره وسألته :

ـ وما عبرة السرور لذلك ؟ !

فقال بلباقته المعهودة :

ـ كيف غاب عنك هذا ياعزيزتى ؟ ! . الم يكن ذلك الاتفاق فى الميول العقلية أصلا وبشيراً باتفاقنا « الروحى » الذى نلتقى عنده الآن !

فتوردُ وجهها وطرفت عيناها ـ وهى عادتها اذا تولاها الحياء ـ ولم تنبس بكلمة . فسألها باغراء :

ـ الا توافقيننى على رأيى ؟

فلازمت الصمت ، أو لازمها الصمت على الأرجح . وعاد يقول برفق :

ـ هل أجد فى صمتك جوابى المرجى ؟

ولحظها ، فخالها تبتسم ، فخامره الحماس وقال بصوت خافت :

ـ عرفت ذلك من أول نظرة !

فلم تتمالك أن قالت وفى عينيها ابتسامة صريحة :

ـ أول نظرة !

ـ أجــل .

ـ شي لا يصــدق !

ـ الا تؤمنين بالنظرة الأولى ؟

ـ الا تغالى ؟.. أحقا ما يقال عن النظرة الأولى ؟

فقال بحماس تألقت له عيناه العسليتان الجميلتان :

ـ هو الحق الذى لا مراء فيه !

فقالت وقد غيرت لهجتها :

ـ نحن لم نتعارف بعد !!

فأدرك أنهــا تحاول الافلات من الطوق الذهبى الذى طوق جيدها به ، ولكنه لم يمكنها من مأربها وقال :

ـ لا تغيبى عن الحديث ، سنتعارف حتما بعد حين ، أو سنتم تعارفنا فلم يبق منه الا اسمى . ولكنى أريد أن أقول انه اذا لم يكن حب (وتعمد أن يذكر هذا اللفظ كأنما جاء عفــوآ) من أول نظرة فلا حب على الاطلاق !

وتعوذت بالصــمت مرة أخرى وهو يلحظهــا مبتسما . ثم استدرك :

ـ لا اعنى أن الحب يحدث حتما من اول نظرة ، ولكن النظرة الأولى تكفى لاكتشاف من تربطهم بنا صلة روحية عسية أن تصير الحب نفسه ! أليس يقولون ان الأرواح تتخاطب بغير احســاس البتة ؟ ! فنظرة واحدة تبلغ بالروح فوق ما تريد ... أما الحب الذى تلده الأيام وتنبهه المعاشرة فمرجعه على الغــالب العادة أو المنفعة ، أو غيرهما من القيم التى لا تدرك الا بالروية والامهال . فماذا ترين ؟

فترددت هنيهة ثم سألته كالمتحيرة :

ـ أتقول انه لا يوجد ... (ولم تنطق بكلمة الحب) الا من أول نظرة ؟ ! فأدرك انه ثرثر أكثر مما ينبغى ، وخاف مغبة تفسير كلامه فقال باهتمام :

ــ كلا ليس هذا ما أعنيه . وانما أعنى أن النظرة الأولى خليقة بالدلالة على الغاية التى عسى أن تهدف اليها العاطفة .

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

ــ فلسفتك عسيرة ، فلا هى من التاريخ ولا هى من اللغات !

واستغرق الشاب ضاحكا بسرور أخذ بمجامع قلبه ، وود فى تلك اللحظة لو يستطيع تقبيل الفم الصغير الذى تسيل جوانبه بهذه الحلاوة المشتهاة ، وقال :

ــ بل هى أسهل من التاريخ أو اللغات لأنهـا فلسفة الفطرة الصادقة . وأصدق دليل على ما أقول أننا التقينـا بوحيها ولن نفترق الى الأبد ان شاء الله .

وكانا قد بلغا عند ذاك منتصف الطريق ، فلاحت على يسارهما طلائع مدينة القبور خاشعة تحت كآبتها الأبدية ، ينبعث من قوائمها هدوء شامل عميق ، وصمت مخيم ثقيل . فرمقتهـا بعينيهـا النجلاوين . ثم قالت لتدارى الخجل الذى سعره حديثه المطرب :

ــ قضى على أن أستصبح كل يوم برؤية هذه القبور ، فيا له من منظر لا يسر !

وتساءل الشاب عما يضطرها الى قطع هذا الطريق الطويل مشياً على الأقدام فى الذهاب الى العباسية وفى الاياب منها ، ولماذا لا تستقل الترام عن طريق الخليج ، ثم ابتده الحقيقة فأدرك أنها ترضى بهذا التعب ــ أو رضى لها به أبوها ــ توفيراً لنفقاتهـا ، فكمال خليل افندى يعتبر من صغار الموظفين ، وممن يكافحون بعزيمة صادقة ــ فى ظروف دقيقة ــ للنهوض بأسرهم ، وذكر أن أسرته اجتازت يوماً مثل هذه الشدة وعلى رأسها شقيقه المحبوب يذود عنها البأساء بصبر وجلد. فتندى قلبه عطفاً ومحبة وتقديراً ، ثم قال لها مبتسما :

ــ لن تريها بعد اليوم !

فرمته بنظرة انكار وتساءلت :

ــ كيف ! هل أسير معصوبة العينين ؟

ــ بل سيشغلنا الحديث عن النظر اليها !

فضحكت ضحكة رقيقة وقد أدركت ما يعنيه . وقالت :

ــ ولكنه سفر شاق لن تحتمله طويلا . خصوصا والشتاء قريب !

ــ سنرى !

وأوغلا فى السير فلم يعودا يريان الا صحراء على اليمين وقبوراً على الشمال . ومرا بطريق يشق القبور ويمتد غربا ، فأشار رشدى الى مقبرة خشبية ذات فناء صغير ، تقع على جانب الطريق الأيمن ثالثة المقابر وقال :

ــ مقبرتنا !

فنظرت الفتاة الى حيث يشير فرأت المقبرة الصغيرة وقالت باسمة :

ــ فلنقرأ اذاً الفاتحة .

فقرءا الفاتحة معا . ثم قال رشدى :

ــ هنا يرقد الأجداد ، وآخرهم جداى لوالدى ، وأخى الصغير .

ــ ومتى توفى أخوك هذا ؟

ــ من زمن بعيد ونحن بعد أطفال .

وطرحا القبور وحديثها وراء ظهريهما ، واستعادا الصفاء والسرور ، دون التفات الى وجه التناقض الساخر ما بين حديث الحب وحديث القبر ، ولا كدرا صفوهما بأن يتساءلا مثلا عما يتبقى لهما من عمر يقضيانه فى الدنيا . أو عما ينتظر حياتهما من أحداث قبل أن يرقدا فى تلك المقبرة أو فى أخت لها . لم يلتفتا لشىء من هذا ولكنها قالت مستوصية بشىء من الشجاعة :

ـ ولكننا لم نتعارف بعد !
ـ ألسنا جيرانا ؟ !
ـ بلى ولكننى لا أعرف اسمك .
ـ سامحك الله . اسمى رشدى . رشدى عاكف !
ـ كيف يسيئك هذا وانت تجهل اسمى أيضا !
ـ معاذ الله !
ـ أعرفته من أول نظرة أيضا ؟
فضحك رشدى بسرور ، وحنى رأسه أن نعم ، فسألته :
ـ فما اسمى ؟
ـ احسان !
فضحكت بصوت مسموع وقالت بانكار :
ـ أهكذا تختلق الأسماء !
ـ بل هو اسمك !
ـ اخطأت يا سيدى ولعلك رمت غيرى فارجع بسلام !
ـ ولكنى سمعت والدتى تتحدث عن والدتك مرة فتدعوها « ست أم احسان » .
ـ فحسبت أن احسان هى أنا ! !
ـ نعم ..
فضحكت مرة أخرى حتى تورد وجهها الأسمر وقالت :
ـ هذا اسم أختى الكبرى ، وقد تزوجت منذ عامين !
فابتسم رشدى كالخجل وقال :
ـ لا تؤاخذينى ، فما اسمك اذاً ؟
ـ نوال ..
ـ عاشت الأسماء !
فترددت لحظة ثم رمقته بنظرة ماكرة وتساءلت :
ـ أأنت تلميذ ؟

ـ نعم بمدرسة العباسية للبنات .
ـ موظف اذاً ؟
ـ ببنك مصر !
فابتسمت قائلة :
ـ أما أنا فموظفة بوزارة المعارف !
وضحكا معا . ثم رأيا انهما يشارفان العباسية ، فأدرك رشدى أن أول لقاء لحبه الجديد يؤذن بالانتهاء ، أما هى فقالت :
ـ حسبك هذا فينبغى أن نفترق هاهنا .
فتوقفا عن السير ، وأخذ راحتها فى يده ، وضغط عليها بحنو وهو يقول :
ـ مع السلامة والى اللقاء غدا صباحا .
فحيته باحناءة من رأسها وغمغمت :
ـ الى اللقاء . .
وحثت الخطى . ولبث هو بمكانه يتبعها مقلتيه فى سرور ونشوة محدثا نفسه : « كانت فى البدء متعثرة بحيائها ، ثم أنست بى فصارت الطف من نسمة عبقة . طاهرة خفيفة والله ، وقاها الله شر الشياطين جميعا بما فيهم شيطانى أنا » .
وكان شأنه المعهود أن يغازل ثم يتعارف ثم يحب . وقد عاد ذاك الصباح وهو ينصت فى صمت الطريق الى أول خفقة لقلبه ترجع مطلع لحن الهوى . أما نوال فانحدرت فى طريق المدرسة وهى تقول لنفسها : « ما ألطفه ، ما أجمله ، ما أعذب حديثه ، فآه لو تصدق الأحلام ! » .

٢٨

ولاحظ أحمد عاكف ما طرأ على شقيقه الأصفر من تغير بعين متيقظة . رآه بعـــد ظهر ذاك اليوم ـ يوم السبت ـ نشوان بالسرور ، فكأنما بات من سروره فى سكرة ذاهلة . ورآه يغـير عادته من النـوم ما بين الظهر والمغـرب ـ موعد انطـلاقه الى السكاكينى ـ فيقيل ساعة واحدة ثم يسـتيقظ مثقل الجفنين فيمشط شعره ويتعطر ويتصـــدى للنافذة المحبوبة ! . ولبث الكهل فى حجرته يطالع أو يحاول المطالعة ريثما يأزف موعد ذهابه الى القهوة ـ تلك العـادة الجديدة على حيـاته ـ وقد ركز آماله جميعا فى النسيان المرتقب ، ينتظره صـابرا كما ينتظر المريض اليائس النهاية ، وما برحت تتقاذف قلبه احاسيس الحب والخيبة ، والانفة والغيرة ، وحبه رشدى ونفوره منه ، فتحير بينها لا يقر له قرار حتى أوشك أن ينفجر رأسه الصغير . وبعد العصر بقليل اقتحم رشدى عليه وحدته ! ولم يكن فى ذلك غرابة فرفع اليه رأسه مبتسما باذلا جهده الا يلوح فى وجهه وجوم أو سهوم . فحياه الشاب بابتسامته الحلوة وقدم له سيجارة وقال بسرور وبلهجة المعتذر معا :

ـ لا تؤاخذنى على ازعاجك ولكننى أزف اليك خبرا سارا .

فخفق فؤاد أحمد وقال :

ـ خير ان شاء الله !

ـ اخبرنى صديق من الموظفين ان الحكومة تفكر فى انصاف الموظفين المنسيين .

فقال أحمد بارتياح لم يدر الآخر بواعثه الحقيقية :

ـ بشرك الله بالخير !

ـ ان بقاء رجل مثلك عشرين عاما فى الدرجة الثامنة ظلم قبيح وسيئة ذميمة .

فهز أحمد منكبيه بغير مبالاة وقال :

ـ أنت تعلم أنى لا أعبأ الدرجة ولا الوظيفة شيئا .

وتحادثا مليا . ثم أنصرف رشدى كيلا يضيع وقت أخيه الثمين .. وتفكر الرجل بعد انصرافه فيما يساوره نحوه من نفور فامتعض ، وتألم فؤاده غاية الألم ، وهل ينسى أنه أحبه مذ كان فى المهد ؟ وهل يجهل أن الشاب يحبه حبا لا يحبه والديه ؟ ! .

وهرع الى الزهرة قبيل المغرب مرتاحا الى مغادرة البيت . وجالس الصحاب ساعتين ملقيا بنفسه فى تيار الحـــديث لائذا بشجونه من نفسه وأفكاره . ثم رجع الى البيت وكان رشدى ما يزال فى الخارج ـ طبعا ـ يسهر ليلته فى الكازينو ، فكأن فتاته استأثرت بالوقت القصير ـ من الظهر للمغرب ـ الذى كان يخلد فيه الى الراحـــة وجعلت من يومه وحدة متصـــلة من اليقظة والتعب . وألقى الرجل على النافذة ـ التى عاهد نفسه ألا تفتح أثناء وجوده بالبيت ـ نظرة غاضبة ، وتساءل وهو يخلع ملابسه ترى ألم تلاحظ تغيبه عن النافذة ؟ . ألم يربها من الأمر ما ينبغى أن يريبها ؟ لكم يود لو تعلم باحتقاره غدرها . فكبرياؤه ما تزال جريحة تنزف ، ونفسه مكتوية بنار حامية .

ونام قبل موعده لصدود نفسه عن القراءة . ثم استيقظ على صفارة الانذار ، فنهض مسرعا وارتدى معطفـــه وغادر الحجرة فالتقى بوالديه فى الصالة . وكانت أمه قلقة لأن رشدى لم يكن عاد من ســـهرته وجعلت تتساءل عن المكان المحتمل وجوده فيه وتدعو الله أن يقيه السوء . وفى الطريق وجدوا الجو باردا رطبا فقال والده : « ما ينتظرنا فى الشتاء أدهى وأمر » ومضوا الى

المخبأ واتخذوا أماكنهم المعهودة . ونظر الأب فى ساعته فوجدها الثانية بعد منتصف الليل ، فقال باستياء وتهكم :

ــ أليس الأرحم برشدى أن يبيت فى الخارج حتى لا يكلف نفسه مشقة الرجوع الى البيت فى مثل هذه الساعة !

وحدثت أحمد نفسه باستراق النظر ! ولكنه رأى رشدى يهبط أدراج المخبأ متعجلا ويدور بعينيه فى المكان باحثا عنهم . ولما عثر بهم اتجه نحوهم مبتسما متشجعا ببقية حميا الشراب على مواجهتهم ــ ومواجهة أبيه خاصة ــ وحياهم ثم قال لأحمد :

ــ اطلقت صفارة الانذار ونحن فى الجمالية فعدوت فى الظلام كالشياطين ! فانتهره أبوه قائلا :

ــ انت كالشياطين بغير جدال . ألا تريد أن تخفف من غلوائك فى هذا الوقت العصيب !

ولم يتجاسر أحمد على استراق النظر فى حضرة الشاب ! ولكن رشدى ضاق بالجلوس ذرعا فقام يتمشى فى المخبأ ، واطلق الكهل لعينيه العنان فانطلقت نظرتهما القلقة الى الركن البعيد حيث تجلس أسرة كمال خليل . ورآها . كانت جالسة جنب أمها مطرقة ، فرأى جانب وجهها الأيمن . هل رأته ياترى ؟ . . ألا تزال تحسب أنه يجهل أمرها ؟ . أما تعانى شيئا من القلق والعذاب ؟ . أم انه المقضى عليه بالقلق والعذاب وحده ؟ ! . . وطافت برأسه فى تلك اللحظة تمنياته الجهنمية عن الغارة المدمرة فارتجف قلبه ورفع رأسه الى سقف المخبأ داعيا فى سره : « اللهم رحمتك يا أرحم الراحمين » ثم وقع بصره على كمال خليل وسيد عارف واقفين على كثب من مجلس أسرة أولهما يحادثان شقيقه !! فتولته الدهشة ؛ كيف تعرف الشاب بهما ؟ ومتى حدث ذلك ؟ وهل يرمى الشاب من وراء ذلك الى غرض معين ؟ ! . . حقا انه شاب جسور يعجز خياله ــ هو ــ عن مجاراة افعاله ! وخامره نحوه شعور بالاعجاب ممتزجا بالحنق ، بيد أنه انقطع عن

التمادى فى مشـــاعره لدوى انفجار انتشر فجأة فملأ الأسماع ، وانطلقت وراءه طلقـــات المدافع المضادة بسرعة فائقــــة ، فحلق الخوف فوق القلوب الواجفـــة كحدأة منهومة تنقض على أفراخ مذعورة . ولم يتكرر الانفجـــار ولكن استمرت طلقات المدافع المضادة فترة وجيزة . ثم عاد السكون الى نصابه ، فأخذ القوم أنفاسهم ، ومضت ربع ساعة أخرى ثم انطلقت صفارة الأمان .

وفتش أحمد على أخيه فلم يجده ، وكان الناس يخرجون أفواجا ، فخطر له خاطر أعاد له ذكريات قديمة ، فبحثت عيناه عن أسرة كمال خليل فرآها قريبة من مجلسها تنتظر أن يخف التزاحم على باب المخبأ الا أنه لم ير نوال ! وذكر ليلة دعته الى اللحاق بها وكيف تردد وجبن ! أما رشدى فلا يمكن أن يتردد أو يجبن !

٢٩

واطرد مجرى الحياة ، فتوطدت أسباب الصداقة بين رشدى وكمال خليل على حداثة عهدهما بالتعـــارف ، وتفاوت ما بين عمريهما ، بفضل لباقة الشاب وكياسته . ودعاه الرجل الى قهوة الزهرة فلبى دعوته وجالس صحاب شقيقه ــ والكهل بينهم ــ ونال اعجابهم بما طبع عليه من دماثة الخلق واشراق الوجه .

وطاب له المجلس فنوى أن يعاوده بين الحين والحين . ثم دعاه الرجل الى زيارة بيته فمضى اليه فرحا مسرورا ، وتوثقت عرى المودة بينهما ، واكتسب الشاب ثقـــة الرجل لحد أن قدمه الى زوجته وكريمته ، ورفع الحجاب بينه وبين أسرته ، وهى خطوة لم يتوقعها رشدى قط ، ولا دار له بخلد أن تتخذها أسرة بحى الحسين خاصة حيث تســـود روح المحافظة ، بل ان أسرته هو

لتعتبر من هذه الناحية أشد محافظة على خلوها من الفتيات ، فما يجرؤ هو ولا أخوه ـ فضلا عن أبيه ـ على أن يقدما رجلا غريبا الى أمهما . على أنه سر بذلك سرورا لا يدانيـــه سرور ، وسعد بتلك الثقة الغالية ، واصطبغ تفكيره بلون الجد فاستشعر الرزانة والتبعة . وتبع ذلك أن حل رشدى محل الأستاذ أحمد راشد المحامى فى التدريس لنوال ومحمد . ولما اتصل نبأ ذلك بالأخ الأكبر عقدت الدهشة لسانه ، ولم يدر كيف حدث ولا كيف أمكن أن يحدث ، فأخوه صار كأنه عضو فى أسرة الجيران ، ولو أنه وطن النفس يوما على أن يبلغ هذه المنزلة التى بلغها رشدى فى أيام لما كفته عشرون عاما ! ، ولكم رمقـــه بعين الاعجـاب المقرون بالحسد ، ولكنه نجح فى التظاهر بالجهل المطبق ، فأسبل جفنيه على القذى كما أغلق النافذة على آلامه ، واستسلم للصبر الذى استمرأه لطول ما عاناه . أما الأم فلم يغب عنها شىء من بادىء الأمر ، فلم يكن رشدى من الذين يعنون باخفاء أسرارهم . كان يلازم نافذته اذا وجد بالبيت ، ويهرع الى بيت الجيران فى ساعات الدروس ، وكان يغشى روحـــه هيمان بدت آثاره فى عنـــايته المتضاعفة بأناقته ، وفى الحنان الذى اكتسبه صوته وهو يغنى ، وفى خروجه الباكر كل صباح الذى لم تعد تخفى حقيقته على أحد . بل ما من شك أن أسرة الجيران نفسها باتت تعلم من أمره ما تعلم ، وتعقد عليه من الأمل ما يثلج صدرها بالسعادة . لم يغب شىء من هذا عن الست دولت ، وشاورت قلبها فيه فلم تجد منه اباء ولا نفـــورا ، وكان من عادتها أن تقول أحيـــانا كالمتحسرة : « متى يا رب أفرح بالعرائس كالأمهات السعيدات ؟ ! » . ولكن هل نوال جديرة بابنها ؟ ! . لم لا ؟ ! . هى عروس حسناء متعلمة ، من أسرة طيبة ، ووالدها موظف ، فكل شىء مناسب ، اللهم الا خاطرا واحدا أحزنها وأكربها ، أيجوز أن يتزوج رشـــدى قبل

أحمد ؟ ! ولكن ما حيلتها ؟ ! فلتنتظر ما تلد الأيام من احداث تقضى بها مشيئة الله الحكيمة !

وفات رشدى طور اللعب . فهو يبدأ بمعابثة الغزل ولكنه ينتهى دائما بالحب الحقيقى ! فأحب نوال واستعرت لها فى قلبه عاطفة صادقة . أليست بجارة النافذة المحبوبة ، ورفيقة طريق الجبل المكللة هامته بالسحاب الرقيق ، وتلميذته المغرمة يطارحها الهوى على مائدة الحساب والجبر والهندسة ، وجليسته فى السينما صباح الجمع ؟ ... علق الهوى على قلبين طريين ، ولصق نفسين تواقتين للحب والسعادة . وصارت حياته نشاطا متصلا يشق على الجسد والأعصاب ، فهو اما مكب على عمله فى المصرف أو هائم فى غرامياته ، أو ساهر فى كازينو غمرة ، فلم يخلد الى الراحة الا فى الهزيع الأخير من الليل . فلم ينتشله حبه من داء المقامرة أو معاقرة الشراب ولا حتى من الحب الفاجر ! وعالج هاتيك اللذات فى يسر ، وانسته العادة أنها خطايا فأنس بها بلا تردد ، ولم يتخيل أن الحياة حياة بغيرها ، فعبد الورق والكأس والحب . وعسى أن يهوله ما تستوجبه هذه الحياة من مال ومشقة فيقول متأسيا : « غدا أودع حتما كل شيء اذا تزوجت ! » .

وكان حريا أن يفكر فى نسيان ذاك العبث ليأخذ أهبته للزواج ان كان من الصادقين ، ولكن هون عليه الأمر أنه أودع المصرف يوما مبلغ خمسين جنيها ربحها من السباق ، ففى بحر عام واحد يستطيع ان يقتصد من مرتبه ما لو أضافه الى ذاك المبلغ لقام بنفقات الزواج ، ولكن متى يبدأ هذا العام ؟ هذا ما كان يؤجل التفكير فيه ، مستسلما لتيار الشهوات العارم ، فلم يتعود قط أن يروض من جماح شهوته ، او أن يحد من رغباته ، أو أن يشد من ارادته ، الا انه تردد أخيرا متحيرا ، عينا على الحياة التى يلبى نداءها ، وعينا على الفتاة التى يهواها ...

٣٠

وانصرم شهر نوفمبر ، فاشـــــتد البرد اشتداداً لم تعهده القاهرة الا فى النادر ، وأصيب رشدى عاكف بالانفلونزا ، ولعلها أصابته أثناء عودته الى خان الخليلى فى الهزيع الأخير من الليل . ولم يكن يعبأ بوعكات البرد مكتفيا ببلع أقراص الأسبرين اذا اشتد عليه وجع الرأس ، فزاول نشاطه المعهود لا يعبأ شيئا ، الا أن حالة المرض اشتدت عليه فى اليوم الثانى فى المصرف ، فتناويته قشعريرة ، ثم شملته رعشة حتى اصطكت أسنانه ، وعراه خور أظلمت منه عيناه فغادر المصرف واستقل تاكس الى البيت . ورقد فى اعياء شديد . ومنحه طبيب المصرف أسبوعا ، واشتدت الحالة ، وتدهورت صـــــحته بسرعة مخيفة ، وغيره هزال فبدا كانسان لازمه المرض شهرا طويلا : وأدرك أحمد أن أخاه فقد مناعته الأولى التى طالما قاوم بها التوعكات فلم يملك أن قال له :

ـ صرت كالخيال ، لأن جسمك لم يعد يقاوم لما تكلفه به مما ليس فى وسعه .

وكان الفتى معتادا أمثال هذه الملاحظة من أخيه ، فابتسم ابتسامة شاحبة وقال :

ـ هذا عارض من أعراض البرد وسوف يزول !

فقال أحمد باستياء :

ـ ولكنه ما كان يتمكن منك لولا تفريطك فى صحتك !

ولم يكن شىء يعدل به عن الدفاع عن سيرته المحبوبة فقال :

ـ الا ترى أنى لا أسهر وحدى ! وأن صحبى جميعا كالبغال صحة وعافية ! . ولكنها أعراض البرد وسوف تزول باذن الله .

وكان يعلم أنه يستميت فى الدفاع عن حياته لحـــــد اللجاج

بالمكابرة فانكسر عن لومه . وكان يعـــوده كثيرا ، ويواســـيه ويشجعه ، وبالغ فى ذلك مبالغة مردها الى ما بات يساوره نحوه من امتعاض ونفور . فكأنه كان يغطى المشاعر التى تخجله وتحزنه بالمبالغة فى اظهار العطف والمحـافظة على مظاهر الحب . وكثيرا ما كان يحدث نفسه بصوت مسموع قائلا : « انى احبه كعهدى دائما ، وما يستحق منى غير هـــذا الحب ، ولو أنه علم بطويتى ما أقدم على ما أقدم عليه ، فهو برىء ، وهو يحبنى وأنا أحبه » . ولكن كيف يغفل عما يثور بنفسه أحيانا من الغضب والثورة ؟ .. وكيف ينسى أنه تمنى لو أن الشاب لم ينقل الى القاهرة ؟ .. بل كيف ينسى أنه تمنى لحظة لو تخلو الدنيا من الناس والشاب فيها طبعا ؟ ! فهذه الخواطر وغيرها كانت ترهقـــه بالحزن وترديه فى الوساوس . وفى آخر ليلة من ليالى اشتداد الحمى على الشاب ، حلم أحمد حلما غريبا . وكان نام بعد جهـــد ناصب من عذاب الفكر ، فرأى فيما يرى النائم أنه جالس على فراشــــه مرسلا الطرف من نافذته الى شرفة نوال فى اشفاق ورجاء ، فما يدرى الا ورشدى يقعد على كرسى بينه وبين النافذة مبتسما ابتسامته اللطيفة ، فشعر باستحياء وحول ناظريه عن الشرفة الى وجه أخيه . وأراد رشدى أن يسرى عنه بتظاهره بأنه لم يفطن لشىء فلم يفلح ، ثم رآه ينتفخ رويدا رويدا حتى صار ككرة ضخمة فأنسته الدهشة ما كان فيه من استحياء ، ثم أخذ منه العجب كل مأخذ حتى لم يتمالك نفسه من الصراخ اذ رأى شقيقه ــ وهو كالكرة الضخمة ــ يرتفع ببطء طائرا كأنما يلتمس سبيلا الى الفضاء خلل النافذة ، ولكن النافذة ضاقت عنه فانحشر بين جانبيها وحجب عن عينيه النور ، وزايلته الدهشة وحل محلها الرعب ، ولكن الفتى ، جعل يضحك منه كالساخر بصوت مزعج أثار أعصابه فتولاه الغضب ، وظن الشاب يسخـر منه بخدعة

فنهره ولكنه لم يعبأ به واستمر فى ضحكه الساخر ، ففزع أحمد الى مكتبه وأتى بريشته وغرسها فى بطنه فانقصفت فيها ، واندفع من البطن بخار ملأ الحجرة بالغبار فأخذ جسم الفتى يتقلص بسرعة حتى عاد الى حجمه الطبيعى ثم سقط عند قدميه ، وجعل يتلوى كالسليم ، ويعض من الألم قوائم الكرسى ويصرخ صراخا موجعا ويسعل حتى تجحظ عيناه ويسيل من محجريهما الدم ، وهلع فؤاد أحمد وأطبق عليه رعب يضنى ويميت ، ثم . . . ثم استيقظ عند ذاك ، وأدرك أنه كان يحلم ، رباه ، تبأ للأحلام ، وما كاد يفيق من هول الرؤيا حتى بلغ مسمعيه صوت كالأنين يأتيه من عقب بابه المغلق ، فأرهف السمع فتبين له أنه صوت أخيه ! وأنه حقا يتأوه ويتوجع ، فقفز من فراشه وانتعل شبشبه ومضى على عجل الى حجرته . وهناك وجد الشاب راقدا يتأوه وأمه الى جانبه تدلك ظهره بينا يجلس الأب على كرسى قريبا من الفراش . فتساءل أحمد مروعا :

ــ ماذا به ؟

فقالت أمه :

ــ لا تنزعج يا بنى . انه ألم الحمى وهى تفارق البدن .

وتنبه رشدى الى مجىء أحمد فكظم ألمه قليلا وقال متأسفا :

ــ واخجلتاه . أزعجت منامكم جميعا . .

ولكنهم شجعوه ودعوا له . وجلس احمد جنب أمه . واخذ راحة شقيقه بين راحتيه وراح يدلكها بحنو ، وكأنه يكفر بذلك عن اساءته اليه فى الحلم ، ومضت ساعة مؤلمة لم يكن عناء الأسرة فيها دون عناء المريض . فلبثوا الى جانب فراشه حتى مطلع الفجر . .

٣١

وبرأ رشدى مما ألم به ، وغادر فراش المرض ، ولم يكن هينا عليه أن يلزم الفراش أسبوعا كاملا وهو الذى لا تطيب له الحياة الا فى تجـــارب اللهو واللعب واللذات . ولذلك هاله أن ينصحه أخوه بالبقاء فى البيت والاخلاد الى الراحة ريثما يسترد قوته ، فضحك كعادته وقال كالآسف :

ـ حسبى أن ضاع من العمر أسبوع هدرا !

فاحتد الذى ضاع عمره كله وقال :

ـ أحذرك الاندفاع فيما أنت آخذ فيه ، فانك تستحل شبابك للعدم كأنه معين لا ينفد ، ولا تعبأ أبدا أن تنال حقك من الراحة ، فأى جنون هذا الذى تطيع ؟ !

ولمس رشدى فى لهجة اخيه غيرته على صحته ، فابتسم ممتنا وقال :

ـ دمت من أخ كريم ، متعنى الله بقلبه الكبير .

ـ انى أرشدك لما فيه صلاحك !

فقال الشاب الشكور المحب :

ـ وهل داخلنى فى ذاك شك ؟ !

ولكنه لم يعن باتباع الارشاد الذى لا يداخله فيه شك . وفى صباح اليوم التالى رآه أحمد يستجمع لخروجه الباكر ، فتولتــه الدهشــة وسأله بانكار :

ـ ماذا أنت فاعل !

فقال بشىء من الارتباك :

ـ الى المصرف !

ـ وما الموجب للعجلة ؟

فعدل الفتى عن المداراة وقال بصراحة محزنة :

ـ أخى ، لا أكتمك أن البيت يسقمنى !

وعلم أحمد بما يغريه حتما بالاستهانة بصحته ، فانقبض صدره وأخفى بصره فى فنجان القهوة ، ومضى الآخر الى سبيله . وأرادت الأم ـ وكانت جالسة الى السفرة ـ أن تخفف من وقع مخالفة الشاب لنصح أخيه فقالت تعتذر عن سلوكه :

ـ شفاء أخيك فى الدنيا الواسعة لا فى البيت ، فلا تؤاخذه !

ولما لم ينبس بكلمة ظنته غاضباً فقالت تستوهبه ابتسامة :

ـ أليس هو ابن أمه ؟ ومن شابه أمه فما ظلم . الا ترى الى كيف يركبنى الهم اذ لزمت البيت وحيل بينى وبين زيارات الأحباب ! . فكلانا عدو البيت ..

وضحكت ضحكتها الرنانة فابتسم الكهل ابتسامة لالون لها . وما كان شىء بمثنى الشاب عن حياته المحبوبة ، فارتمى مرة أخرى بين أحضان الحب والقمار والشراب والتدخين والنساء ؟. استرد نشاطه المعهود ولكنه لم يسترد صحته . فلم يزايله الهزال ، واشتد لون وجهه شحوباً وبدا وكأنه بقى من مرضه شىء لا يفارقه . واذ كان أحمد منشغلا بنصحه كان الشاب منشغلا بالتفكير فى أمور أخرى ، فدخل على أخيه عصر يوم ـ قبل موعد خروج الرجل الى القهوة بقليل ـ وحياه بابتسامته اللطيفة وقال :

ـ هل تأذن لى بالتحدث اليك قليلا ؟

فرفع أحمد راسه اليه وقال :

ـ تفضل يا رشدى .

وقرأ فى وجهه الجميل الشاحب أمارات الرزانة والاهتمام على غير عادته ، فعجب لأمره ، وتساءل عما دعا السادر اللاهى الى الجد والاهتمام . وذكر أنه لم يره فى مثل تلك الحالة الا السويعات

الحرجة التى تلقى فيها أنباء سقوطه فى بعض الامتحانات على عهد دراسته . وساوره القلق ورفع حاجبيه الخفيفين متسائلا ، فقعد رشدى على الكرسى وقال :

ــ أريد أن أجد فى الأمر فليست الحياة كلها لعباً !

ولو أنه سمع كلامه هــذا فى غير الظروف النفسـية التى يعانيها لما تمالك أن يضحك ويقهقه ، ولكن صدره انقبض ، وحدس قلقا ما الشاب ماض الى خوضه . فقال بهدوء :

ــ الحياة ليست كلها لعبا . هذا حق .

فقال الشاب :

ــ انت مرجعى عند المشورة ، وقد جئتك سائلا هل توافق على زواجى ؟ .

فاضطرب صدره كما لو كان بوغت بالقول مباغتة لم تدر له بخلد . ولكنه لم يسمح لوجهه بالافصاح عن كآبته ، وتظاهر بالدهشة البريئة ، بل وبالسرور ، وقال :

ــ اجئت تتحدث أخيرا عن الزواج ! مرحى مرحى !

فضحك رشدى بسرور وقال :

ــ هى الحقيقة يا اخى ، فهل يسرك ذلك ؟

ــ يسرنى طبعا ، لعلنا سررنا بشىء معا لأول مرة !

وتبع ذلك صمت ، وأدرك أحمد أنه من الطبيعى أن يسأل عن العروس ، وكان يرجو أن يفتح الآخر الحديث بغير حاجة الى سؤاله ، ولكنه لازم الصمت ، فلم يجد مناصا من أن يزدرد ريقه ويقول متسائلا :

ــ وهل اهتديت الى بنت الحلال ؟

فاعتدل الشاب فى جلسته وقال :

ــ اجل يا أخى . كريمة جارنا الطيب كمال خليل افندى صديقى وصديقك !

ولم يفلح ما سلف من تأهب فى تحمل الطعنة الا قليلا ، فيأس المتهم من النجاة لا يهون على نفسه وقع النطق بالحكم عليه . ولكنه لاذ بكبريائه وقال بهدوئه :

ــ وفقك الله لما فيه سعادتك .

ــ شكرا لك يا أخى .

ــ بيد أنى أريد أن أسألك سؤالا على سبيل الاحتياط ، فهل زودت بالمعلومات الضرورية عن الأسرة التى ستصبح واحدا منها ؟

ــ خبرت الأسرة عن كثب ، وعرفت الفتاة معرفة شخصية !

ونكأ تصريحه جرحه فضاعف مجهوده ليحافظ على هدوئه الظاهرى . وقال :

ــ أذكرك بأنه اذا أعلن الخبر فالنكوص عنه يكون فضيحة !

فضحك رشدى قائلا بثقة :

ــ انتهى التقلب واستقر الرأى !

ــ هل فاتحت أحدا بهذا الشأن ؟

ــ كلا فيما عداها هى !

فخفق فؤاده خفقة عنيفة ، وشرع خياله فى استحضار صورة انفرادهما معا ، وتهامسهما بهذا الشأن الخطير الجميل ، ثم قطع تخيله بقوة ، وقال بنبرات تنطق بالرضى :

ــ على بركة الله . .

ــ اذاً أكل اليك تبليغ والدى بالأمر ، ومن ثم نأخذ فى الخطوات المتبعة .

فتريث أحمد قليلا ثم قال :

ــ سأخبر أبى ، أما الخطوات الأخرى فتحت شرط !

ــ سمعا وطاعة . .

ــ ألا نشرع فيها قبل أن تسترد صحتك ، وتستعيد وزنك السابق للمرض على الأقل !

فقال رشدى ضاحكا :

ـ هذا على هين . ولن يطول انتظارنا .

ثم نهض قائما وهو يقول :

ـ أشكر لك والعقبى لك (ثم غير لهجتـــه كمن تذكر شيئا جديدا) ... على فكرة ! لماذا لا تفكر أنت أيضا فى الزواج ، أما كان ينبغى أن أبارك لك قبل أن تبارك لى ؟ !

أيصارحه بما حال بينه وبين التفكير فى الزواج ؟!.. الفتى لا يدرى مما يقول شيئا ، ولذلك فهو يرميه بسهام مسمومة فى غفلة وصفاء ! وقد امتعض لتساؤله ، وخاله لسان القدر يتهكم من شقائه بعد أن قضى به عليه . وقال كالمتهكم :

ـ مضى زمن الزواج !

ـ مضى ؟ !

ـ دع هذا يا رشدى ، فأنت تعلم أنى أمرؤ مشغول ! والله لم يجعل لامرىء قلبين فى جوفه !

ومضى الشاب يهز رأسه أسفا . وأطرق الرجل ، ولاحت فى عينيه نظرة حزن عميق ، واستسلام للقدر واليأس . سيتولى ـ هو ـ أمر زواج الشاب ، فلا مناص من أن يحيك كفته بيديه . وفى ذلك ما فيه من ضروب الألم وفيه كذلك ما فيه من ألوان اللذة والعزاء . لن يخلو على الأقل من تلك اللذة الغامضة التى تؤلف بينه وبين الألم كما تؤلف بين الفراشة والنور . وفيه لذة الاستسلام الى القضاء القهار ، وفيه لذة التكفير عن مشاعره الباطنية التى لم يرتح اليها ، وفيه أخيرا لذة لكبريائه الجريح ...

٣٢

وارتدى على أثر ذلك ملابسه ، ومضى الى الزهرة وقد فارقه ذلك الشعور بالأسف الذى كان يخامره كلما هم بالخروج عن عادة وحدته ، واشترك فى أحاديث الصحاب أكثر من ذى قبل ـ اذ كان جل حواره مع أحمد راشد وحده ـ واستسلم للضحك طويلا على غير عادته . وخطر له فجأة أن يشاركهم سهرتهم الأخرى التى سمع عنها دون أن يشهدها . وبدا له الخاطر مغريا فمال اليه بكل قلبه ، بيد أنه تردد كالخائف ولم يدر كيف يقدم نفسه . ولم يغادره هذا الخاطر حتى نهض القوم للذهاب الى حال سبيلهم . وكان من عادة المعلم نونو أن يمضى الى بيته أولا ومن ثم يلحق بالصحاب فى ندوتهم . فاتخذ منه رفيقا ، وآتته شجاعته فى الطريق فقال باستحياء :

ـ يا معلم . هلا اصطحبتنى الى الاخوان ؟

فصفق الرجل بسرور وصاح به :

ـ هداك الله أخيرا !

فقال بصوت خافت :

ـ ولكنى فى هذا الأمر أجهل من دابة !

فقال المعلم بزهو وخيلاء :

ـ اجعلنى دليلك . وأيا ما كان فهذا الأمر اسهل من كتبك وأجل فائدة !

وعادا معا يخبطان فى الممرات الملتوية يشملهما ظلام دامس ، ودخلا عمارة وارتقيا السلم الى الطابق الثالث ، وضغط الرجل زر الجرس الكهربائى وهو يقول :

ـ اذا جئت بمفردك وأردت أن يفتحوا لك فآيتك أن تضغط الزر خمس دفعات متتابعات ثم تذكر كلمة السر التى سأقولها الآن .

وسمعا صوت عباس شفة يسأل عن القادم فقال المعلم :

ـ ملعون ابو الدنيا !

وفتح الباب ودخل أحمد بقلب هياب وتبعه المعلم . وعبرا صالة الى حجرة واسعة مزدحمة بالجالسين مضاءة بنور أزرق هادىء كنور الفجر العليل ، ينبعث من مصباح ملفوف بغلالة زرقاء . فاتجهت الأنظار نحو القادمين ، واستقرت علي الجديد منهما حتى تعثر بالارتباك والحياء . وقد تربعوا على شلت تراصت على صورة دائرة ، ووضع فى وسطها « العدد » كالمجمرة والجوزة والطباق . فتبادلا التحية مع الحاضرين وجلسا جنبا الى جنب . واستطاع احمد أن يلقى نظرة عامة على المكان ، ويرى اخوان قهوة الزهرة ـ فيما عدا أحمد راشد ـ بين الموجودين . ثم استرعى صدر المكان انتبـــاهه حيث جلست امرأة « هائلة » على شلتة ضخمة . وانها لهائلة حقا ، ففى جلستها كانت تطاول شخصا قائما ، عريضة المنكبين ، طويلة الجيد ، مستديرة الوجه فى امتلاء وضخامة ، واضحة القسمات ، يراوح لونها بين المصرى والحبشى ، أما شعرها فكستنائى مجعد شد الى ضـــفيرة غليظة قصيرة ، وأعجب ما فى وجهها عينان كبيرتان بارزتان بروزا لا يبلغ القبح ، لنظرتهما حدة ولحورهما التماع . ويوحى منظرها بالهيبة لضخامتها وقوتها ، وبالشهوة لأمارات الحيوانية البادية فى ملامحها ، والاغراء المنعكس عن خـــلاعتها . وقد وضعت على كتفيها شالا مجملا منمنما وجعلت تتفرس فى وجهه بعينيها القادحتين .

وأدرك أحمد عاكف انها عليات الفائزة التى يدعونها بمعشوقة الأزواج ، وقد جلس زوجها عباس شفة الى يمينها بينا جلس الى

يسارها المعلم زفتة القهوجى . وسفر المعلم نونو بين الرجل وبينها بالتعارف فمدت له راحتها المخضبة بالحناء ورحبت به . وحدجه المعلم زفتة بنظرة تأنيب وقال له متضاحكا :

ـ وأخيرا عرفت ان الله حق ! لكم أنفقت من عمر فى حجرتك وعلام ذلك التعذيب ؟! .. لا أنت متزوج ولا أنت رجل عجوز ، ولكنه ظلم الانسان لنفسه !

فقال المعلم نونو يزكى صاحبه ويعتذر عن « غفلته » :

ـ يا اخوانى ، ان نظرى لا يخيب وفراستى تصدقنى دائما ، وقد اقتنعت من أول نظرة بأن صاحبنا أحمد أفندى « ابن حظ » ولكن أضلته الظروف عن منهله العذب حينا وانا لهادوه باذن الله !

وخاف كمال أفندى خليل أن يضيق صاحبه ـ الذى جدت دواع جديدة تحمله على ارضائه ـ بكثرة المداعبات فقال :

ـ الأستاذ أحمد عاكف يا سادة رجل مطلع ، ولكن لا ضير من أن يأخذ حظا من السرور ، فالحياة لا يمكن أن تكون عناء متصلا ...

فلوح المعلم زفتة بيده كالساخط وقال :

ـ ولماذا نقضى على أنفسنا ، وبمحض اختيارنا ، بعناء متصل أو منفصل ؟! . الأستاذ موظف ذو مقام ، فماذا يوجب عليه أن يقرأ كالتلاميذ من غير مؤاخذة ؟! عاهدنا على الا تغيب عنا ليلة بعد اليوم !

فابتسم أحمد كالمرتبك ، وزاد من ارتباكه أن قالت عليات الفائزة تخاطب زفتة وهى تلحظ الكهل :

ـ رويدك يا معلم . كيف يعاهدك على ذلك وقد لا يطيب بنا نفسا ! ؟

فتورد وجه أحمد وقال مسرعا :

ـ العفو يا هانم !

وكانوا يدعونها عادة بست عليات فوقعت ... « هانم » من آذانهم موقعا غريبا . أما الست فقالت :

ـ أهلا بك فى كل وقت .

وكان عباس شفة مكبا على تعبئة «الكراسى» ثم رص الجمرات على كرسى منها وركبها على الجوزة وقدمها الى الست . واستقرت عينا أحمد على الجوزة فى اهتمام مشوب بقلق واشفاق ، ثم مال نحو نونو ، وهمس فى أذنه :

ـ ألا يحق لى أن أخاف هذه الجوزة ؟

فعاتبه المعلم قائلا بصوت منخفض :

ـ اذا خفتها أنت فماذا يفعل أبناؤنا !

وتوسط عباس شفة الدائرة ، وجعل يدير الجوزة من رجل الى رجل ، مقتربا منه ، حتى بلغت المعلم نونو ، فوضع الغاب فى فيه وأخذ نفسا طويلا اتصلت قرقرته حتى ملأت الأسماع ، وزفره من خيشوميه قطعاً من سحاب داكن !. واخيرا رأى الغاب يدنو من شفتيه والأنظار تتحول اليه ، فأطبقهما عليه وأخذ نفساً قصيرا كالخائف ونونو يهتف به : « شد . . شد » ثم قال له بلهجة الآمر : « ازدرد الدخان ! » فازدرده ثم زفره بسرعة وقد شعر كأن يدا تكتم أنفاسه ، ثم سعل سعله اضطرب لها جسمه النحيل ودمعت عيناه ، وكان نونو يرقبه بقلق فسأله لما أفاق :

ـ كيف الحال ؟

فقال وهو يتنهد :

ـ أولى بى ان أبدأ بأخذ أنفاس خفيفة . ألا ترى انك مدرس قاس يا معلم ؟

فقهقه المعلم قائلا :

ـ كما تشاء ففى التأنى السلامة !

ودار عباس شفة بالجوزة خمس مرات متعاقبة ، وتصاعد الدخان من كل جانب وانعقد سحبا ، وشم أحمد رائحة غريبة أثارت ذكرى قديمة ، ذكرى رائحة تشابه هذه الرائحة ، بل هى

نفسها دون غيرها ، فأين شمها ومتى ؟ ! . ولم يطل به عذاب التذكر ، فذكر أول لياليه بخان الخليلى ، ليلة التسهيد اذ تسربت هذه الرائحة الغريبة العميقة الى حجرته فحيرته ، فلم تكن الا رائحة هذا المخدر العجيب المخيف ، ولعلها انطلقت ليلتئذ من هذه الحجرة نفسها او من اخرى تماثلها فى ذاك الحى العجيب الذى لا يبعد أن تكون جميع الأنفاس المترددة فى جوه من هذه الأنفاس . وسر للذكرى وارتاح اليها أيما ارتياح لأن التخدير كان قد اخذ يسرى فى أعصابه المتوترة فيلينها ، فابتسمت أساريره . وعاد عباس شفة الى مجلسه يستريح قليلا ، بينا مضى المعلم زفتة فى تعبئة الكراسى من جديد استعدادا للدورة الثانية وقالت الست عليات الفائزة فجأة :

ـ أما هنأتم سيد عارف افندى ؟

فالتفت اليها القوم ، وقال نونو :

ـ خير ان شاء الله !

فقالت المرأة الهائلة مبتسمة :

ـ أرشده طبيب ماهر الى أقراص جديدة وأكد له أنها مضمونة النجاح !

فعلا ضحك الجميع ـ أصحاب قهوة الزهرة والآخرون ـ وقال المعلم نونو موجهاً خطابه لسيد افندى:

ـ أمنية قلبى أن أراك يوماً مثلنا !

فقال سيد عارف كالمحتد :

ـ هذا يدل على سوء نيتك !

وسألوه عن الأقراص الجديدة ، ولكنه ابى ان يذكر عنها شيئاً خشية أن تصيبها نفس .

فقال المعلم زفتة :

ـ انما الأعمال بالنيات !

وكان كثيراً ما يستشهد فى أحاديثه بالحكم والأمثال أو الأحاديث الشريفة كيفما أتفق دون مبالاة بمطابقتها لمقتضى الحال ، ودون أن يفطن الى شذوذ الاستشهاد عن معنى كلامه ، على أنه لم يكن يتنبه الى غفلته تلك الا قلة من الحاضرين !. وضاق سليمان بك عتة بالضجيج ذرعا واشتد وجهه القبيح كآبة فقال بحنق وعنف كعادته اذا استاء أو غضب :

ـ الهدوء .. يا هوه . للغرزة آدابها !

ولاحت الدهشة فى وجه كمال خليل فسأله باهتمام :

ـ وما آداب الغرز ؟ !

فقال القرد باستياء :

ـ هذه الضجة خليقة بالحانات حيث يفقد السكارى عقولهم . الغرز على عكس ذلك جديرة بالهدوء والصمت . فالحشيش سلطان يوجب على مواليه الخشوع والسكون . بالهدوء والصمت يبلغ التخدير مداه فيصفو المزاج وتنثال على الخيال الأحلام فيظفر الانسان بمشكلات يومه ومتاعبه ويحسن التفكير فيها وحلها واحدة بعد أخرى !

ـ ولكننا نجىء هنا لننسى المشكلات والمتاعب لا لنفكر فيها !

ـ بئس الرأى . ان الهروب من المتاعب لا يذهبها ولكنه ينسى عذابها الى حين كى تعود أفظع مما كانت . حكمة الحشيش تهبنا ثقة نواجه بها المتاعب بقلب قادر على الاستهانة وتهوين خطبها فتذوب فى بالوعة النسيان وتمحى من الوجود .

فقال سيد عارف ضاحكا :

ـ فليس هذا بكرسى حشيش ، ولكنه كرسى الاعتراف !

وقال المعلم زفتة :

ـ صدقت ، هذا حشيش القسيس ! وصدق من قال يا جحا عد غنمك !

ثم قال المعلم نونو مستنكراً وموجها خطابه لسليمان بك :

ــ وكيف يلزم الصمت من خلا من المتاعب ؟

ــ وهل يخلو من المتاعب الا حيوان !

ــ فكيف شعرت بها ؟ !

فأجابه سيد عارف : لعله مالك الحزين !

ونهض عباس شفة بشعره المنتفش كالشيطان فدارت الجوزة دورتها الثانية . ومحت القرقرة لغط الحديث . واخذ أحمد أنفاسا أشد من المرة الأولى مستوصيا بشجاعة لا عهد له بها ، وبرغبة قوية فى الذهول ، وقد أعجبته فلسفة سليمان عتة على مقته له ، فحاول أن يعالج حزنه العميق الذى أورده هذا المكان الخانق على طريقته لعله أن يبرأ . لكنه تسلط عليه التخدير فثقلت جفونه واحمارت عيناه ومال عنقه قليلا . ثم ساوره خوف مفاجىء فأدنى راسه من أذن المعلم نونو وسأله :

ــ ألا يخشى علينا من الشرطة ؟ .. هب شرطيا تسلل الى الباب وقال ملعون أبو الدنيا ؟!

فضحك نونو وقال :

ــ نقول له ملعون ابوك ؟

وبعد انتهاء الدورة جلس عباس شفة جنب زوجه الهائلة مرة أخرى وتحركت الألسن من جديد .

فقال المعلم زفتة القهوجى وهو لا يمسك عن العمل :

ــ أبشركم يا اخوان بأن هتلر ــ حين يفتح الله له مصر ــ سيلغى أمر منع الحشيش ويمنع شرب الويسكى الانجليزى !

فقال المعلم نونو :

ــ هتلر رجل حكيم ولا يداخلنى شك أن الفضل الأول فى مهارة خططه راجع للحشيش !

فسأله كمال خليل افندى :

ـ وكيف أوصله اليه عباس شفة ؟

فقال نونو بلهجة جدية :

ـ لا حاجة به الى عباس فون شفة ، فالمخزن رقم ١٣ ملآن بالحشيش النقى !

ثم هز المعلم رأسه كالآسف وقال بحسرة ظاهرة :

ـ ألم تسمعوا بما يقال من أن اليابانيين ينشرون المخدرات بين الأمم التى يغزونها !

فقال المعلم زفتة بنفس اللهجة :

ـ ليت الانجليز كانوا حشاشين !

ـ ضاعت خمسون عاما من الاحتلال هدرا !

وهنا نهض سيد عارف بغتة وقد ارتسم على وجهه آى الاهتمام الشديد ، ولبس طربوشه كأنما يتأهب لمغادرة المكان ، فعجب القوم له وسألته الست عليات :

ـ الى أين يا أخانا ؟

فتخطى محيط دائرة الجلوس وهرول نحو الباب متعجلا وهو يقول :

ـ الأقراص نجحت . . .

وغاب عن الأنظار فى لمح البصر ، فانفجر القوم ضاحكين ، وتساءل كمال خليل وهو يسعل :

ـ هل حقا ما يقول !؟

فقال سليمان عتة بسخرية :

ـ دعاية كاذبة كدعاية أصحاب الألمان . .

فقال نونو :

ـ سنعلم الحقيقة بعد تسعة أشهر !

فقالت عليات الفائزة :

ـ علم هذا على هين . .

وواصلوا الهزل حتى قام عباس شفة ممسكا بالجوزة فكان نذير الصمت . وفى هذه الدورة أخلد أحمد لتخدير غريب — وكان طول الوقت صامتا راغبا عن الكلام أو عاجزا عنه — وشعر بأن ارادته فقدت سلطانها على أعضائه ، وقد أراد أن يحرك ذراعيه ليطمئن الى أنه ما يزال متمالكا زمامه ، ولكن شعورا عميقا قويا أغراه بالعدول عن التجربة ، وهيأ له أنه لا يوجد فى الدنيا جميعا ما يستحق التعب أو الحركة ، وأن الرقاد والاستسلام والرضا خير ما تجود به الدنيا . ورأى القوم خلل نفثات الدخان فخالهم اشباح دنيا غريبة أو سكان كوكب آخر ، ولا يدرى كيف ملأه ذاك الاحساس بالغرابة ، فلذ له أن يضحك ، فضحك ضحكة طويلة واهنة شابه مطلعها التأوه وحاكى ختامها قرقرة الجوزة ، فما تمالك الجالسون أن ضجوا ضاحكين ! وانتبه لضحكهم رغم ذهوله ، فاعتدل فى جلسته ليستعيد — ما أمكن — شيئا من يقظته . وحدث عند ذاك شيء عجيب . حدث أن نهضت عليات الفائزة قائمة ، استطال ذاك الجسم الهائل فى الفضاء ، وامتد طولا وعرضا فملأ الأعين ، وكانت مرتدية روبا شــد الى جسمها ليبرز محاسن مقاطعه ، ثم تحرك موكبها العظيم فسارت قابضة براحتها على طرف شالها فلاح ساعدها مختفيا وراء الأساور الذهبية ، ولما مرت أمامه ارتاع الكهل على ذهــوله ، رأى الروب يتسع بعد خاصرتيها ليكتنف عجيزة لم ير مثلها فى حياته ، زيانة ناهضة مترجرجة تبرز فوق الفخذين كالمشربية ، فما صدق عينيه ! ولاحظ المعلم نونو دهشته فقال له هامسا :

— انتبه فالست تطلعك على السر الذى أشقى أزواج الحى . ما هذه بعجيزة ولكنها كنز !

فقال أحمد بصوت لا يكاد يسمع :

— هذا شيء فوق ما يتصوره العقل !

ـ واكثر من هذا أنها تحوى فضيلتين لا تجتمعان ، فهى من ناحية كالكرة المنفوخة صلابة ، ومن ناحية أخـرى تسوخ فيها الأصابع لينا !

ـ هذه لغز !

ـ نسأل الله السلامة .

فقال الكهل وهو لا يدرى :

ـ آمين . .

وكان عباس شفة يسترق اليهما النظر فسأل نونو متكلفا لهجة الوعيد :

ـ فيم تتحدثان ؟

فضحك المعلم ضحكته المجلجلة وقال :

ـ نتآمر على انفس اثاث البيت !

وكفوا عن الكلام فسمع صوت المعلم زفتة وهو يتحدث فى الجانب الآخر من الحلقة ويقول لبعض المستمعين الأغراب بلهجة الناصح :

ـ ثلاثة أشياء أشـــير عليكم بالاكثار من اقتنائها : الذهب والنحاس والسجاد الفارسى فقيمتها ثابتة ، تبيعونها وقت الشدة أو تنتفعون بها فى تجهيز البنات . .

فقال رجل معمم يدعى المعلم شمبكى :

ـ تبأ للبنات وللأزواج وللأمهات !

فأومأ عباس شفة الى المتحدث وقال :

ـ أما علمتم بأن حرم المعلم شمبكى هجرت بيته غاضبة ؟!

فتأسف الحاضرون ، وهنا عادت الست عليات الى جلستها فسمعت العبارة الأخير وقالت :

ـ لماذا يا معلم ؟ أرجو الا أكون السبب . . !

ـ كلا يا ست زواج ابنى سنقر هو السبب . أردت أن يتم

فى هدوء مراعاة للظروف ، وتأبى الا أن تزفه القيان ، فقالت لى بوقاحة : مالك على وعلى أبنائى حرام ، أما هناك فحلال !

فقالت الست عليات ضاحكة :

ــ هناك هذه هى أنا !

فاستدرك الرجل يقول مغيظا متأسفا :

ــ وقالت لى وهى تشد أطراف بقجة ثيابها : « سأذكرك دائما بأنك الرجل الذى لم يسعدنى يوما واحدا من حياتى ! » . . اسمعوا يا هوه . . أهذا كلام تقوله عشيرة ثلاثين عاما ؟!

فقالت عليات بلهجة الانتقاد المر :

ــ تباً لها ، وارحمتا لشبابك الذى أنفقته عليها . اصغ الى يا معلم ؛ كد لها وتزوج من غيرها !

فهز الرجل رأسه وقد ارتسمت شبه ابتسامة على شفتيه ثم قال مغمغما :

ــ وهل تبقت فى العمر ذخيرة ؟

ــ استغفر الله يا معلم ، أنت قد الدنيا .

فقال المعلم نونو متحمسا للفكرة :

ــ نعم الرأى انه لا يؤدب المرأة الا الزواج بغيرها . وربنا أمر بالزواج من أربع !

ــ أستغفر الله العظيم . لم يأمر الله بذلك ولكنه أباحه على أن نعدل !

ــ ومن قال لك اظلم ؟!

ــ صلوا على النبى ، أنا رجل عجوز وما من فائدة ترجى !

ــ تزوج على بركة الأقراص الجديدة التى اكتشفها سيد عارف أخيرا !

وهنا قال المعلم زفتة متمما الحديث الذى قاطعه المعلم شمبكى بشكواه العائلية :

ـ واقتنوا خاصة السجاجيد الفارسية . فالذهب ربما انخفض سعره . وكذلك النحاس . أما السجاجيد الفارسية فتزيد نفاسة مع الزمن . المرأة القديمة لا تساوى مليما أما السجادة ...

وعاجلته الست بلطمة على صدره فصاح :

ـ الضرس الباقى وقع ..

فقالت له :

ـ يا حشاش يا مجنون نحن نتكلم فى الزواج ، فما دخل السجاد ؟ !

ـ لا تغضبى يا ست فالصبر مفتاح الفرج ، وما دمت ترغبين فى حمل المعلم شمبكى على الزواج مرة أخرى فسأقص عليه نادرة تغريه بالزواج (والتفت الى شمبكى واستمر يقول) : عاد شيخ الى بيته بعد سهرة طويلة فرأى زوجته نائمة على فراشها ، وكانت تتيه عليه ادلالا بحسنها حتى كفرت عن سيئاته ، فمر بها الى فراشه وهو يقول بصوت منخفض : « الفتنة نائمة ! » فما كان منها الا أن أمسكت بطرف الجبة وهى تقول « لعن الله من ايقظها ! » .

وشعر احمد عند ذاك باختناق ولم يعد يحتمل جو الحجرة ، ونفد صبره ، فنهض قائما كالمترنح ، وجذبت حركته الأنظار ، فسأله المعلم نونو :

ـ الى أين ؟!

فقال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ حسبى هذا !

ـ هذه نهاية البداية !. وما يزال أمامنا القافية والغناء والذهول الحقيقى .

ولكن الرجل أصر على الاعتذار ، وتحرك فى بطء وتثاقل ، فقال المعلم زفتة :

ـ أأقراصك نجحت أيضا !

وغادر الشقة : وأمسك بالدرابزين ونزل متثاقلا وما زال يهبط ثم يهبط حتى خال السلم مفضيا الى مركز الأرض . ولكنه انتهى الى الطريق وخبط راجعا الى حجرته بعد ان قام بأخطر رحلة فى حياته ، وكانت الساعة تقترب من الثانية فخلع ملابسه فى اعياء ، وأطفأ النور واستلقى على الفراش . ولم يسارع اليه النوم كما توقع ، وتبين له أن تحت جفنيه يقظة قلقة حائرة . وشعر بقلبه يطلق خفقات سريعــة قوية مضطربة خالها تشيل الغطاء وتحطه ، وتزاحمت الصور بمخيلته فالتبست وغرقت فى غموض ، الا صورة واحدة غلبت ما عداها ، تلك المرأة الهائلة ، فهل يلتمس وصالها كالآخرين ؟ ولكن مهلا ، ماذا يفعل بها ، انها اذا احتضنته صغر وضؤل وصار كالبرغوث فى ابط الفيل ، كلا ما تلك بامرأة ، أن هى الا رمز لدنيا الشهوة الساخنة التى انغرست قدماه فى شاطئها وحملقت عيناه فى عبابها ، وتضـــاعفت ضربات قلبه فجف ريقه . وتهيأ له أنه يهوى من عل فى فضاء لا نهائى ففزع جالسا فى فراشه ، وداخله شعور بالخوف واليأس . . ولبث حتى مطلع الفجر يعانى آلاما فظيعة ، جسمية ونفسية . .

٣٣

ولم يفكر بعد ذلك فى معاودة المغامرة . ولم يجد فيه دفاع المعلم نونو وتأكيده أن ما حدث له انما كان مرجعه الى أنه لم يطعم حلواً بعد التدخين مباشرة ، فأعرض عن أغراء الرجل وقال لنفسه يتأسى كعادته : « الظاهر أن الطبائع العقلية ليست بذات استعداد للتمتع بهذه الشهوات » . على أنه لن يمسى بحاجة الى هذا المخدر الخطير كى ينسى شجونه ، فغداً اذا تم زواج شقيقه من الفتاة برأ هو ونسى . بيد أن رشدى ما يزال يخبط فى سبيله على غير هدى ، ولم يخفف من غلواء عبثه واستهتاره ، فلم يسترد عافيته بل وساءت حالته ، ولم يعد يخفى على عين انسان هزاله ، واستحال شحوب وجهه صفرة ، وجعل يتناوبه سعال شديد ثم فترت شهوته للطعام . فهال أحمد أمره ، وقال له بلهجة حازمة :

ــ كأنك لاهمالك صحتك قد عدلت عن آمالك ! لماذا لم تأخذ نفسك بالاستقامة حتى تسترد صحتك ؟ لذلك استعصى شفاؤك من مرضك الأول وأصابك هذا السعال الشديد . وما ينبغى لك بعد اليوم أن تعاود السهر أو الشراب ، فماذا أنت فاعل ؟ !

ولم يكابر رشدى كعادته ، لأن وطأة السعال كانت شديدة عليه ، فقال بتسليم ليس من دأبه :

ــ سمعاً وطاعة !

فقال المغرم بتعذيب نفسه :

ــ تعجل الشفاء يا رشدى قبل أن يستنجزك وعدك أهل الفتاة !

وأبدى الشاب المريض عزيمة صادقة ، فانقطع عن كازينو غمرة ، ولم يغادر البيت مساء الا لاعطاء تلميذيه الدرس الخصوصي — وهو واجب يستعذبه قلبه ولا يعدل به لذة — ولأول مرة مذ فارق صباه حاول أن يأوى الى فراشه فى الساعة العاشرة ، مما دعا أحمد الى الاعجاب المطلق بصنع الحب الساحر . الا أن الشاب لم يضح برحلة الصباح عن طريق الجبل على ما يقاسيه فيها من شدة البرد القارص ؟ لأنها كانت متعة قلبه وزاد أحلامه . وصبر على تلك الحياة المستقيمة أياما دون أن يطرأ على حالته ما يبشر بالشفاء . بل نال السعال من حنجرته فاخشوشنت وبح اخيراً صوته ، فتعذر عليه ترديد أغانيه المحبوبة . وكان عيد الأضحى قد اصبح على الأبواب . وأخذت له الأسرة أهبتها ككل عام . فجيء بكبش التضحية وشد من عنقه الى نافذة المطبخ حيث لم يجدوا له مكانا سواه فى الشقة . ومضت الست دولت تصنع الرقاق . وقد تشكى أحمد — كعادته — ارتفاع ثمن الخراف ، وقال انه ربما تعذر عليهم ابتياع كبش فى العام القادم ، فهال أمه القول وقالت له ضاحكة :

— ابصق هذه النية وطهر فاك الشريف ؟

وجاء العيد فى الايام الأوائل من يناير سنة ١٩٤٢ ، واستقبلته الأسرة — والحى جميعاً — بالبشر والفرح ، وحفلت المائدة باللحوم أشكالا وألواناً . ومن عجب أن رشدى لم يخرج عن نظامه الجديد فى العيد ، والحق أن اعياءه لم يمكنه من اشباع رغباته . أما أحمد فأمضى عطلة العيد فى قهوة الزهرة . ولكنه لم يذعن لاغراء المعلم نونو فخاب سعى الرجل لاستدراجه مرة أخرى الى بيت عليات الفائزة ، وهل يمكن أن ينسى ختام تلك الليلة الجهنمية ؟ ثم كان صباح اليوم الرابع من أيام العيد . وفى ذاك الصباح حدث ما جعل أحمد يذكره على الدوام . وقد استيقظ فى منتصف التاسعة

ومضى الى الحمام كعادته ، فوجد رشدى مكبا على الحوض يسعل سعالا شديداً يضطرب له جسمه الهزيل ، فاقترب منه حتى صار لصقه ، ومد يده ليربت على منكبه فلاحت منه التفاتة الى الحوض فرأى بقعة حمراء ! . فتصلبت يده وخفق فؤاده خفقة انخلع لها صدره وهتف بصوت متهدج :

ــ رباه . . .

ثم نظر نحو شقيقه فى ارتياع ، وكان كف عن السعال ولكنه لم يزل فى غيبوبة منه ، يعلو صدره وينخفض ، ويتنفس بصعوبة ، وقد احمرت عيناه ، فتريث الرجل حتى استعاد الفتى أنفاسه . وقال بلهفة منزعجاً وهو يشير الى البقعة الحمراء :

ــ ما هذا يا رشدى ؟

فرفع اليه الفتى عينين كئيبتين وقال بصوته المبحوح :

ــ هذا دم !

ــ رباه !

فتجلى الحزن فى عينى الشاب ، ثم أفلت منه زمام نفسه فاغرورقت عيناه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

ــ أصبت وانتهيت !

فقال احمد وكأنه يتوسل اليه :

ــ لا تقل هذا .

فقال الشاب بقنوط :

ــ هى الحقيقة يا اخى !

وفتح أحمد الصنبور ليغسل الحوض . وتأبط ذراع الشاب ، وسار به الى حجرته ــ حجرة الشاب ــ ومضى الى النافذة فأغلقها . وجلس رشدى على الفراش فأتى الآخر بكرسى وجلس أمامه ، ثم سأله بعد أن ازدرد ريقه :

ــ ماذا تقول يا رشدى ؟ ! صارحنى بكل شىء .

فقال الشاب بهدوء :

ـ ذهبت أخيراً الى طبيب فقال لى ان بالرئة اليسرى مبادىء سـل !

٣٤

والحقيقة أنه ظل يعانى آلاماً بارحة منذ منتصف ديسمبر . وحدث أن اشتدت عليه نوبة السعال فى المصرف مرة فاستخرج منديله ليبصق فيه فما روعه الا أن بصق فيه دما ! ورمق البصقة الدامية بنظرة ذعر وارتياع ، ثم دس المنديل فى جيبه خشية افتضاح أمره . وغادر المصرف الى عيادة طبيب اخصائى فى الأمراض الصدرية ، وجلس بين المنتظرين يقلب بصره الزائغ فى الوجوه الشاحبة والأجسام الهزيلة ويسعل مع الساعلين ، واستولى عليه القلق والانزعاج ، وتساءل هل يقع فريسة لذلك المرض الخطير الذى تقشعر لذكره الأبدان ؟ . وكان سمع مرة صاحبا يقول ان السل داء لا برء منه ، فذكر قوله خافق الفؤاد . ولم يكن سبق أن أصيب بمرض عضال ، فأشفق من أن يكون ذلك الداء الوبيل أولى تجاربه القاسية . واشتد به القلق فى جلسته حتى تهيأ له أن يقتحم حجرة الكشف ، ولكنه تصبر حتى جاء دوره فدخلها يقاوم جاهدا اضطرابه وانزعاجه . وألقى على أركان الحجرة نظرة عجلى خطفت العدد والآلات وأخيرا الطبيب العاكف على حوض صغير يغسل يديه ، ثم انتظر واقفا ، وجفف الدكتور يديه والتفت نحوه . كان قصيراً نحيفا دقيق الأعضاء ، الا انه كبير الرأس أصلعه ، واسع العينين جاحظ الحدقتين ، حاد النظرة . فحياه الشاب برفع يده الى رأسه ، فقال له الرجل بصوت رفيع :

ـ أهلا وسهلا ، تفضل بالجلوس .

فجلس رشــدى على مقعد كبير ، ودلف الدكتور من مكتب أنيق وجلس أيضا وراءه واستخرج كراسة ضخمة وفتحها وسأل الشاب عن اسمه وصناعته وعمره ورشدى يجيب . ثم حدجه بنظرة الاستفهام التقليدية فأشار رشدى الى صدره قائلا :

ـ أريد أن أكشف على صدرى .

وما كاد يتم قوله حتى انتابه سعال عنيف ، فانتظر الدكتور حتى أمسك واسترد أنفاسه وسأله :

ـ هل أصابك برد ؟ . . متى ؟

ـ أصبت بالأنفلونزا منذ أكثر من اسبوعين ، وكانت حادة ، والظاهر انى استأنفت عملى قبل أن أبرأ تماما ، فلم يفارقنى الاعياء ، ثم كان هذا السعال العنيف فتدهورت صحتى . . .

واسهب الشاب فى وصف السعال وآلامه وعما فقد من وزنه ، فقاطعه الدكتور متسائلا :

ـ ومتى بح صوتك ؟

فأجاب الشاب :

ـ منذ أسبوع على الأقل .

فأمره أن يعرى نصفه الأعلى ، فقام الشاب ، وأخذ فى فك رباط رقبته ثم خلع السترة والقميص والفانلة ، وتصدى للطبيب نضوا مهزولا ، ووضع الرجل السماعة على أذنه وجعل يتلقى بها آثار نقر سبابته على الصدر والظهر . ولاحظ رشدى أنه كرر ذلك كثيرا على موضع فى أعلى النصف الأيسر من الصدر ، وطلب اليه أن يرتدى ملابسه ، ثم سأله :

ـ هل بصقت دما ؟

فانخلع قلب الشاب ، وتريث قليلا ، ثم قال بصوت منخفض :

ـ نعم . . لاحظت ذلك مرتين أو ثلاثا .

فجاء الطبيب بقنينة زرقاء وأمره أن يتنحنح بشدة ويبصق فيها ، ثم مضت فترة وجيزة ورشدى منتصب القامة ، ثقيل الأنفاس ، كمتهم ينتظر النطق بالحكم ، وقال الدكتور :

ــ انى أشك فى وجود حالة ما فى الرئة اليسرى . وليس من الحكمة الجزم بشيء الآن ، ولكن اذهب توا الى الدكتور (...) ليصور صدرك بالأشعة وعد الى بالنتيجة .

وحذره من أن يشق على نفسه بأى مجهود ! . ولكن رشدى لم يبرح موقفه وقد تجهم وجهه وغشيته كآبة ثقيلة . فاستطرد الدكتور قائلا :

ــ عسى أن أكون مخطئا ! ولكن حتى لو صح ظنى فالاصابة بسيطة .

ومضى الى الدكتور الآخر لتصويره بالأشعة . وانتظر أياما يعانى آلاما نفسية مروعة الى جانب آلام السعال . ولم يكن فى الحقيقة مطبوعا على الخوف أو الوساوس والأوهام ، ولكنه وجد نفسه فجأة تحت رحمة أفتك الأمراض ، واثر فيه اسم المرض تأثيراً بالغاً . ثم رجع الى الدكتور الأول ومعه صورة الأشعة ، وفحصها الرجل بعناية ثم تحول اليه قائلا :

ــ كظنى تماما ! .. سمه خدشا خفيفا أو قذارة سطحية ان شئت .

وغاض الأمل ، ولاح القنوط فى العينين العسليتين وهما ترمقان صورة الأشعة بنظرة ساهمة لا تفقه شيئا . خدش خفيف أو قذارة سطحية ! .. هل تضحى الحياة رهينة بهاتيك التوافه ؟ !

وقال للدكتور بصوت حزين :

ــ فلنسمه بما تشاء ، فهل يعنى هذا الا أنه سل لا يرجى له شفاء ؟ !

فحدجه الدكتور بنظرة استنكار وقال بصوته الرفيع :

ـ لا يهولنك هذا الاسم ، واطرح جانبا المخاوف التى لا أساس لها من الحق أو العلم ، واعلم أن حالتك مضمونة الشفاء اذا اتبعت ما أنا موصيك به ..

وامسك قليلا كالمتفكر ، فقال الشاب باشفاق :

ـ يقولون ان هذا الداء لا شفاء منه !

فهز الرجل منكبيه باستهانة وقال :

ـ انبذ هذه الآراء ، واعلم أنى كنت يوما من ضحاياه ، بيد أنه يلزمك الغذاء الجيد جداً والراحة التامة والهواء الجاف النقى ، وكل اولئك متوفر فى المصحة ، فالى حلوان دون تردد .

ـ وكم يستغرق العلاج من الزمن ؟

ـ ستة اشهر على أكثر تقدير !

فانقبض صدر الشاب ، وايقن أن هذه المدة تقضى عليه حتما بفقد وظيفته ، وغدا اذا ذاعت الحقيقة وعلم بها « الجيران » فقد فتاته كذلك ! فنفر من اقتراح المصحة ، وقال للدكتور :

ـ واذا كانت هذه الشروط متوفرة فى البيت ؟

ـ أين تقطن ؟

ـ فى خان الخليلى ...

ـ هذا مكان رطب فيما أعلم ، والمصحة خير مأوى لك ، ولا تنس العناية الطبية هنالك !

وقوى أمله فى أن يستشفى فى البيت دون أن يعلم بسره انسان فيطمئن على وظيفته وفتاته ، فقال :

ـ واذا تعذر على الانتقال الى المصحة ؟

فهز منكبيه تارة أخرى وقال :

ـ هنالك ينبغى لك مضاعفة العناية فى البيت ، خصوصاً الراحة والغذاء ، فاياك أن تفارق فراشك . وسأصف لك العلاج الطبى ..

وفى أثناء انشغال الدكتور بكتابة « الروشتة » خطر له ـ أى الشاب ـ خاطر هام ، فتردد لحظة ثم قال متسائلا :

ـ ثمة سؤال آخر : هل يمكن .. أعنى متى يمكن أن يتزوج من كان مريضاً مثلى ؟ !

فابتسم الطبيب لأول مرة ثم قال :

ـ أرجو بالعناية أن تبرأ بعد ستة أشهر . ومن الضرورى بعد ذلك أن تبقى عاما كاملا تحت الاختبار ، ويا حبذا لو صبرت نصف عام آخر ... !

ونصحه مرة اخرى بالانتقال الى المصحة اذا وسعه ذلك ، ثم وصاه ـ اذا لم يسعه الانتقال ـ بزيارته من حين لآخر . وعاد رشدى ينوء بكمده وكربه . وكان كل شيء يبدو كحلم مزعج . وامتلأت أذناه بل دنياه جميعا بذلك اللفظ المرعب « السل » ، فهل يصدق ما يقوله الناس ، أو يطمئن بما قال الدكتور ؟ وهل قرر الدكتور ـ بما قال ـ الحقيقة أو أراد أن يفرخ روعه ؟. ولكنه صارحه أيضا أنه كان من ضحايا المرض ، ولا يجد مسوغا لتكذيبه ، أجل ان ستة أشهر زمن طويل ، فليتحل بجميل الصبر وليتوكل على الله . ولو كان حرا يفعل ما يشاء لفضل الاستشفاء فى المصحة ، ولكن دون ذلك فقدان وظيفته . وحبيبته ! . فما العمل ؟! .. ان صحته مهددة . صحته التى لم يقدرها حق قدرها الا الساعة . فلم يذكر أوقات العافية والنشاط متحسرا متأوها قبل اليوم ، ولا سبق الى ظنه أن الصحة شيء يزول أو يتغير . ولكن ما قيمة الصحة اذا فقد عمله ؟ وما جدواها اذا حيل بينه وبين الفتاة التى شغف بها حبا ؟ فمن الحكمة الا يبرح البيت ، وأن يتعهد نفسه بالعناية والدواء دون أن يطلع احد على سره . وبذلك يسترد صحته محتفظا بسره ووظيفته وحبيبته . هكذا تسلسلت أفكاره ، ويسر له الاقتناع بها ان قواه كانت وما تزال

متماسكة ، وقدرته على النشاط والحركة متوفرة . وشرع فى العلاج منطويا على سره حتى شاءت المصادفة أن تطلع أخاه عليه ، فبرح الخفاء ! والواقع أنه لم يأسف لذلك كثيرا ، لا لأن أخاه قطعة من نفسه فحسب ، ولكن لأن صدره بات يتصدع بسره الخطير ، فوجد فى البوح لشقيقه ارتياحا وسلاما ، فأفضى اليه بكل آلامه ، ما عدا ما يتعلق منها بالمصحة مستوصيا بالحذر . . .

٣٥

وأصغى الكهل اليه فى صمت وذهول وحزن عميق . وزايلته الحالة المضطربة التى كانت تعتور مشاعره نحو أخيه فتسبغ عليها ألوانا متضادة من الميل والنفور ، فلم يعد يشعر نحوه بغير شعور واحد لا يقاوم ، ودرت حناياه له حبا خالصا واشفاقا شديدا وحزنا مبرحا .

بيد أن ذكرى خطرت من الماضى القريب الأسيف ، ولكنه ذبها عن مخيلتـه بقسوة خجلا ثائرا وامتلأ صـدره حنقا على الفتـاة التى استثارتها !

وانتهى رشدى من قصته فتبادلا نظرة أسى وحزن وكآبة . ثم قال أحمد :

ـ هذا أمر الله ، لن نيأس من رحمته . فينبغى أن نصدق الطبيب فيما يقول فليس العهد بالأطباء أن يكذبوا رحمة بمرضاهم . فالاصابة اذن بسيطة ولكن ينبغى أن نحشد لها كل ما فى وسعنا من عناية وحكمة ، وان كان يدهشنى أنك لم تفض الى بالحقيقة فى وقتها . . !

فقال الشاب بسرعة وان خالف الواقع :

ـ عرفت الحقيقة قبيل العيد مباشرة فلم أرد أن أزعج أحدا . ولكنى كنت أتحين الوقت الذى أفضى اليـك بالأمر وحدك !

فقال أحمد بحزن شديد :

ـ هى ارادة الله ، فلنصبر على حكمه حتى يمن علينا بالشفاء ، وهو أرحم بنا من أنفسنا . والآن فأخبرنى عما عزمت عليه .

فساور رشدى القلق ، ورمق أخاه بحذر وهو يقول :

ـ سأنفذ وصايا الدكتور بطبيعة الحال ، وقد أوصانى بالراحة والتغذية الحسنة وبعض الحقن !

فبدا على وجه الرجل كأنه لم يقتنع بما سمع وقال :

ـ ولكن المصابين بهذا المرض يقصـدون عادة الى المصحة !

فكذب رشدى مرة أخرى قائلا :

ـ لم يجد الدكتور ضرورة للمصحة !

فلاح الأمل فى نظرة الكهل الواجم وقال :

ـ لعلها اصابة تافهة يا رشدى !

ـ أجل . . أجل . . هذا ما أكده لى !

ـ عسى ألا تطول اجازتك !

فعاد القلق يساوره ، وقال بصوت منخفض :

ـ ولكنى لن أطلب اجازة !

فانزعج الرجل وقال بانكار :

ـ فكيف يتم استشفاؤك ؟! . . اياك وأن تستهتر بالمرض مهما قيل عن بساطة الاصابة وحسبك استهتارا يا رشدى !

ـ معاذ الله أن أستهين بحياتى يا أخى ، وسترى بنفسك منذ اليوم انى سآخذ نفسى بالراحة المطلقة فيما عدا أوقات العمـل ، وسأعوض ما أبذله من قواى لعملى بالغـذاء المختـار والأدوية المقوية . اما طلب اجازة مرضية فمخاطرة بوظيفتى وبمستقبلى !

ـ ألا تغالى فى تقديرك ؟!

ــ كلا يا أخى ، فاذا عرف طبيب المصرف مرضى استحال على العودة الى العمل قبل الشفاء التام ، وقد يقتضى ذلك زمنا طويلا لا آمن معه أن أفصل من وظيفتى ! بل الفصــل محتوم فى تلك الحال نظرا لما منحته من اجازات مرضية هنا وفى اســيوط من قبل . .

فتجهم وجه الكهل واشتد عليه الضيق . ثم قال بتألم :

ــ رباه . الصحة فوق الوظيفة ، كيف يتاح لك الشفاء وأنت جاهد فى عملك ؟!

فقال رشدى برجاء وانفعال :

ــ لقــد استأذنت الدكتور فى ذلك فأذن لى ، وهو أدرى . وسيتم الشفاء باذن الله بغير ضياع مستقبلى ، وبغير « فضيحة » .

فاشتد التأثر بأحمد وقال مستنكرا :

ــ فضيحة ! . . ليس فى الأمر فضيحة . هذا بلاء من الله ، وكل انسان عرضة للأمراض الا من أمر الله له بالسلامة ، ولكنى أخاف . .

ــ لا تخف ، وادع لى ربك . وستجد منى ما يطمئن خاطرك !

فسكت احمد مغلوبا على أمره ، وتنهد الشاب بارتياح ، وراح يحدث اخاه بما سوف يتخذ من تدابير الوقاية . فقال له : انه سيحضر حامض فنيك لتطهير الحمام والحوض كل صباح ، وانه سيقتنى أوانى خاصة لطعامه وشرابه متعللا بأنها هدية من شخص عزيز ، وأنصت الرجل اليه بانتباه . ولأول مرة خامره الخوف والقلق ، وخشى العدوى ، وكان بطبعــه هيابا موسوسا . اما رشدى فكان يتحفز لضراعة جديدة لا تقل خطرا فى نظره عما سواها ان لم تزد . فقال :

ــ وهناك يا أخى أمر عظيم الأهمية أرجو أن ترعاه بالعناية التى أرعاه بها ، وهو أن يبقى ما دار بيننا سرا دفينا .

فدهش أحمد ، وذكر ما قاله منذ لحظات من أنه سيقتنى أوانى خاصة متعللا بأنها هدية ، فغمغم قائلا :

ــ ووالدانا ؟!

فقال رشدى بحزم :

ــ لا ينبغى أن يعلما بشىء ، فلا داعى لازعاجهما ، ثم ان فزع أمى كفيل بافتضاح السر !

فارتبك الرجل ، وأيقن أنه مقبل على حياة مؤلمة غريبة ، فتنهد قائلا :

ــ بيدك الأمر يا رشدى ، فاذا توثبت للشفاء حقا أمكن أن يظل السر سرا ، أما . . .

ــ لا تخف لم تعد الاستهانة ممكنة بعد اليوم . . .

وادرك بسهولة ما يحمل الشاب على اخفاء مرضه حتى عن والديه . فانه ليخاف أن ينمو الخبر الى مسامع أسرة فتاته فيهون عليهم بمرضه . وتأثر لذلك غاية التأثر ، وتغلغل الحزن فى أعماق قلبه . بيد أنه خشى ان يكون الشاب قد شق على نفسه بالاستمرار فى عمله ــ على مرضه ــ ليبدو أمام الفتاة واسرتها كالسليم المعافى ، خشى أن يؤذى نفسه فى سبيل حرصه على الفتاة ، فاستجمع شجاعته وقال بصوت كالهمس :

ــ رشدى اذا كنت ترغب عن طلب الاجازة كى يبقى الأمر سرا ، فيمكن أن نختلق سببا نعتل به على طلب الاجازة غير هذا المرض !

ولكن رشدى هز رأسه بحدة وقال بلهجة دلت على البرم :

ــ لا تعد الى ما انتهينا منه !

فسكت أحمد . ثم نهض بعد فترة وجيزة وهو يقول :

ــ تشدد وكن رجلا كعهدى بك دائما ، واعلم آن الشفاء رهن بارادتك . حفظك الله ورعاك .

ورجع الى حجرته محزونا ضيق الصدر ، وقد استثار الداء الخطير مخاوفه فاهتز فؤاده عطفا على شقيقه المحبوب . نسى فى تلك الساعة أنه كان الآلة التى طعن القــدر بها آماله ، أو انه الشخص الذى جرح كبرياءه وداس غروره ، ورآه على حقيقته الأخ المحبوب الذى نشأ بين ذراعيه وغـــذى عواطف الأبوة من نفسه عشرين عاما ، ولما حانت منه التفاتة الى النافذة المغلقة التى سماها يوما بنافذة نوال تحول عنها كالغاضب ، وأبى قلبه أن يذكر الفتاة كأن استدعاءها الى رأسه جريمة لا تغتفر فى حق الشاب المريض ، فينبغى ان تقطع هذه الكارثة المحزنة ما تخلف من أسباب الذكريات ، وقال لنفسه : « ذاك شىء انتهى وانقضى ، والتأسف عليـــه وخز لعواطف الحب التى يكنها قلبى لشقيقى » وكان يتكلم بحدة دلت على السخط والاستياء . والحق أنه كان ساخطا على نفسه ، فلم ينس أمنيته الآثمة أن تبيد القاهرة ، ولا حلمه المخيف الذى استيقظ منه على تأوهات الشاب ليلة اشتداد الحمى عليه ، رباه أى شـــيطان مقيت فى أعماقه ينفث هاتيك الأخيلة !..

٣٦

وتوثب رشدى عاكف بحماس لمقاومة مرضه الخطير ، وواظب على تناول ما أشار به الدكتور من الحقن والأدوية ، وخص نفسه ــ فوق طعام البيت المعتاد ــ بأغذية ملحوظة الفائدة كاللبن والبيض والعسل والكبد والحمام ، وانفق فى ذلك عن سعة . وكان يطلع اخاه على خطى كفاحه أول بأول ليطمئن فؤاده المحب . ومضى شهر يناير جميعه ببرده القارص على حال تبشر بالخير ، فقنع من يومه بساعة سرور واحدة يمضيها بين تلميذيه المحبوبين ، ثم لاتأتى

الساعة العاشرة مساء حتى يكون قد راح فى نوم هادىء عميق . وزايلت البحة صوته وخف السعال فأوشك أن يزول ، وراعه ذلك وايقن فرحا جذلا انه يتماثل للشفاء . ولكن هزاله لم يزل ولونه لم يسترد . وكان يزور الطبيب كل عشرة أيام فوالاه بالنصح ووصاه بمضاعفة العناية .

وقد كانت أيام المرض الأولى سودا : فوقع فريسة للأوهام والمخاوف ، وخامره شعور مفزع بالقنوط ، وتهيأ له أن حياته تؤذن بالوداع ، حياته التى يكن لها حبأ لا يكنه لها أحد من بنيها المخلصين ، وكلما ذكر انه فى القاهرة حيثما كان ينبغى أن يكون فى حلوان . وانه فى عمل بينما كان ينبغى أن يكون فى اجازة ، اشتد خوفه وفزعه ، بيد أن أولئك الانفعاليين لا يعرفون التردد فيما تدعو اليه أهواؤهم ، ويتخذون من عقولهم ما يتخذه الآثم من المحامى الماهر ، فاستطاع أن يقنع نفسه — حتى فى ساعات خوفه — بوجاهة الرأى الذى ارتآه ونفذه . ولما زايلت صوته البحة وسكت فيه السعال أو كاد ، غمره الارتياح ، واسترد ثقته بنفسه ، وشعوره بالأمان وتعلقه الأمل ، وتساقطت الطمأنينة على فؤاده المروع قطرات من السكينة والرحمة . ولم يمض على ذلك أمد طويل حتى عاوده شعوره بالجسارة ونزوعه الى الاستهتار ، وألح عليه حبه العميق لمسرات الحياة ، فلم يعد المرض وخطره شغله الشاغل . ورمق صبره وقوة ارادته بعين الاعجاب ، وذكر شهر يناير — الذى اذعن فيه لما عاهد عليه نفسه أمام أخيه — بالدهشة والاكبار ، وكأنه لا يصدق أنه استطاع حقا أن ينزوى ويستقيم شهراً كاملا . ومن فرجة الأمل الباسم سمع مسرات الحياة — مسرات حياته — تناغيه بهمساتها الساحرة كتغاريد البلابل فى الصباح الباكر ، فذكر فى وحدته الاخوان وكازينو غمرة والليالى الصاخبة . فتخايلت لعينيه وجوههم المرحة ، ورنت فى اذنيه أصداء ضحكاتهم المجلجلة ، ودعاؤهم له بقلب الأسد ، كنيته

التى يحبها ويطرب لها ويخاف عليها عوادى النسيان . يا لهم من اخوان لا تطيب الحياة الا بهم ، ما اظرفهم وما الطفهم ! وهل يمكن أن ينسى كيف انثالوا على السؤال عنه بالتليفون فى المصرف حين انقطع عنهم ! ؟ ، اين انت يا عم رشدى ؟ . ما هذه الغيبة الطويلة ؟ لقد كنت فى اسيوط اقرب الينا منك وانت فى القاهرة ! ، الام يبقى كرسى قلب الأسد شاغرا ؟ اوحشتنا نقودك ! . ولكم ضاحكهم ودافعهم واعتذر لهم بمشاغل هامة !! واهاجه الحنين الى الصحاب واستفزه الشوق الى المرح ، واستهامته اللهفة على اللذات ، وجعل يقول لنفسه هل فى لقاء ليلة حرج ! ، هل تقتل سهرة أو تميت ؟ والحق أن هيامه بالحياة لم يفتر بسبب الداء ، بل بالأرجح انه غدا أرهف حسا وأعنف نشاطا وأضرم حبا وولعا . ثم استحر الاغراء فانعدم التردد ، ووجد لخلاصه من عذاب الحيرة ارتياحا فراح يدندن بصوت رخيم « ما اقدرش انساك » . ولم يكن ترنم بغناء منذ شهر ونصف . وعندما اتى المساء تلفع بمعطفه واحكم الكوفية حول عنقه ومضى الى السكاكينى ، وما ان لاحت لعينيه حديقة كازينو غمرة حتى هتف من أعماق الفؤاد « أهلا وسهلا ومرحبا » . وتلقاه الاخوان بالسرور ، فاستسلم لتيارهم الجارف ، واخذوا فى الحديث الماجن كعادتهم طويلا ، ثم انتقلوا الى البهو الداخلى يدخنون ويشربون ويقامرون ، وخاف ان يمتنع عن لذة فيثير الظنون ، ورغب من ناحية اخرى ان يتناسى ـ فى يقظة الأمل ـ انه يطوى فى رئته اليسرى ما تقشعر الأبدان لذكر اسمه ، فدخن بسرور وشرب كأسين من الكونياك بعثتا الدفء الى جسده البارد ، وقامر أيضا وان تردد قليلا لأن تكاليف التداوى أرهقت ميزانيته ، ولكن الحظ ابتسم فربح زهاء الجنيهين ، وآب مسرورا وان شعر بحرارة تلتهم انسجته ، واجهده المشى فى الجو القارص ، وبلغ البيت فى حالة مضعضعة من الاعياء ، وما أن اغلق الباب فى

هدوء حتى انفتح باب حجرة أحمد ولاح الرجل وراءه ، فدعاه الى حجرته ، ومضى اليها مرتبكا يمشي على استحياء ، وهتف به أخوه :

ـ ماذا فعلت ؟.. هل جننت ؟.. أهذا ما اتفقنا عليه ؟ !

فلاذ بالصمت وقد ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة تدل على الارتياح والحرج فاستدرك أحمد :

ـ هذا فوق التصديق ، وما دريت به حتى نبا بى الفراش ، وظل نومى خفيفاً قلقاً حتى ايقظتنى صفقة الباب . أهذا ما اتفقنا عليـه ؟

وخرج رشدى عن صمته بأن قال بصوت منخفض :

ـ أنت تعلم يا أخى انى حافظت على الاتفاق شهراً كاملا ، ثم نازعتنى نفسى أن أروح عنها قليلا ..

ـ هذا كلام انسان يجهل الحقيقة أو يتجاهلها . ألا تعلم ان استهتار ليلة واحدة يهدم ما بنيته فى شهر كامل ؟

ـ ولكنى فى الواقع أشعر بتحسن كبير !

فقال أحمد بحدة :

ـ أنت تخدع نفسك ، وتقسو عليها بجهلك ، وتركك حراً خطأ كبير ، ولو كان الدكتور يعلم بما فطرت عليه من استهتار لحتم عليك أن تنتقل الى المصحة غداة الكشف عليك ..

فتجلى الحزن فى عينى الشاب ، وتكدر صفوه ، وكان الجهد قد أعياه ، فقال كالمعاتب :

ـ لا تكن قاسيا على غير عهدك .

ـ ها أنت ذا لا تفرق بين الحنان والقسوة ، فتدعونى قاسياً جزاء قلقى وسهادى واشفاقى ، فلكم تقسو على نفسك وعلى !

واشتد بالشاب الاعياء والتأثر ، فاغرورقت عيناه ، مما أسكت غضب أحمد وحوله الى اشفاق وتألم وعدم ارتياح ، فوضع يده على كتف الشاب وقال بهدوء :

ـ حسبك تعبا وحسبى ألماً فلا تبك لا بكيت أبداً ، ولن أزيدك فالله وحده كفيل بأن يلهمك الصواب . ان قلبى يخاف عليك ويدعو لك فامض الى فراشك واتق الله فى صحتك !

وجعل يتساءل منزعجاً ترى هل يستعيد الشاب سيرته الأولى من الاستهانة بالرغم من مرضه الخطير ؟

٣٧

واستقبلت الدنيا أيام فبراير الأولى مشفقة من رياحه العاصفة وزوابعه الباردة المزمرة ، وقد تلفعت السماء بأردية ثقيلة داكنة من السحاب الجون ، فأمست الأرض ، كفرخ فى بيضة ، ترقب الربيع لتشق حجاب الظلماء عن بهجة النور وعبير الأزاهر ، وظل رشدى جسداً مهزولا فى قرارته ضرام لا يخمد من العواطف والأحاسيس وفى قلبه تمرد ثائر على الأغلال التى صفده بها المرض الخطير . وكان الطبيب أعاد عليه الكشف أخيراً وقال له ان حالة الصدر لم تتحسن ! فخاب أمله ، وتنغص عليه سروره السابق بشفاء صوته وسعاله ، لقد صبر طويلا ، وهجر الحياة التى يعشقها ، وكان يرجو ويأمل ، فمتى تتحسن اذاً ؟ والأدهى من ذلك أن الطبيب ألح عليه أن يجد سبيلا الى حلوان ، فهل أيس الرجل من أن يسعى الشفاء اليه فى القاهرة ؟ ! وما جدوى العذاب والصبر اذاً ؟ وفضلا عن هذا فأخوه لا يخفى عنه عدم ارتياحه لهزاله وشحوبه ، فبات ساخطا متبرما .

وكان ذات مساء يلقى درسه على تلميذيه ، فكلفت نوال أخاها أن يحضر كوبا من الماء ، ولما خلا لهما المكان قالت للشاب بسرعة متسائلة : « ألا تستطيع أن تقابلنى صباحا كما كنت تفعل ؟ . .

ولو مرة واحدة ! » فخفق قلبه خفقة السرور وقال دون تردد : متعاميا عن العقبات جميعاً : « غدا صباحا ! » . ثم ذكر اخاه الذى صار سجانه فقال لنفسه : « انه سلم بضرورة خروجى صباحا الساعة الثامنة ، فما يضيره لو قدمت الميعاد ثلاثة أرباع ساعة ؟ » . ونهض مبكرا فى اليوم الثانى ، وتناول فطوره الدسم ، ورصد اخاه حتى دخل الحمام فانطلق الى الخارج كالهارب . ورأى فى الممر المفضى الى السكة الجديدة حبيبته تسبقه بخطاها الخفيفة مرتدية معطفها الرمادى ، متأبطة حقيبتها ، فطرب قلبه طربا أنساه شجونه . ثم صعد فى اثرها طريق الدراسة ، فذكر كيف كان يصعد هذا الطريق فى أعقابها صحيحا معافى صافى أديم الفؤاد ، وتنهد من أعماق فؤاده متحسراً مغمغما « ما أنفس كنز الصحة ! » . ورفع بصره الى جبل المقطم وقد اطبقت السحب على قمته ، وكانت السماء تذكره دائما بربه ــ فدعا الله أن يأخذ بيده .

ولحق بها بعد المنعطف، واخذ يمناها بيسراه ، فعطفت رأسها نحوه وعلى ثغرها ابتسامة ، وقالت تداعبه بلهجة لم تخل من عتاب :

ــ أهان عليك طريقنا هذا أيها الغادر ؟

فهز رأسه متأسفا وتمتم :

ــ لعن الله البرد !

ــ كان ينبغى أن تبرأ منذ أمد طويل ، فما هذا التلكؤ ؟ !

فامتعض قليلا وقال :

ــ أجل . وما بقى فهو هين . . والحق أن اهمالى هو المسئول الأول !

وكانت تعلم طبعا انه انقطع عن لقاء الصباح بسبب السعال ، فلما زايله السعال تشجعت ودعته الى مرافقتها شوقا الى الانفراد به . وقد اختلست نظرة من وجهه الشاحب النحيل وقالت له :

ــ ألا تدرى ماذا تقول عنك نينة ؟

فخفق فؤاده ، وخشى أن يســمع تلميحا لبقا الى مســألة « الخطوبة » وسألها :

ــ ماذا تقول يا ترى ؟

ــ قالت لى ضاحكة : ما بال أستاذك نحيفــا كالخيال ؟ .. هلا تقبل منى وصفة للسمن ؟!

وضحكت نوال ضحكة رقيقة ، فجاراها فى ضحكها ، ليدارى شعوراً بالحزن غشى صدره ، وساوره القلق ، ولكنه لم ير بداً من أن يقول بلهجة تكلف بها السرور :

ــ وما حاجتى الى السمن والنحافة موضة ! أبلغيها شكرى وقولى لها انى طامع فى المزيد من النحافة ..

وقطبت فجأة كأنما ذكرت أمراً ذا خطر وقالت بلهجة التعنيف :

ــ على فكرة يا ماكر ! .. يحلو لك أحيانا ونحن حول مائدة الدرس ان تداعب قدمى بقــدمك متجاهلا أن قدميك منتعلتان وقدمى عاريتان !

فضحك رشدى ، وقد تورد وجهه ، وقال :

ــ نفسى فداء لقدميك العزيزتين !

ومرا عند ذاك بالقهوة المعروفة بنادى الصحراء ، فقالت له وهى تومىء الى النادل وكان يتناول فطوره :

ــ ألم تدر أن هذا النادل الخبيث فطن الى تواعدنا كل صباح ؟! فلما رآنى أسير وحدى الأيام الماضية جعل يصــفق بيديه كلما مررت به ويقول وكأنه يحدث نفسه : « أين أليفك يا بلبل ؟ .. كل الأحبة اثنين اثنين ! » .. رباه .. لكم تولانى الحياء حتى كدت يغمى على !

واسترسلا فى الضحك مرة أخرى وكانا يقتربان من منعطف الطريق الذى توجد على جانبيه مقبرة عاكف الخشبية . ولمحتها الفتاة فقالت :

ـ انتم مدينون لى بمائة رحمة على الأقل ، لأنى أقرأ الفاتحة لمقبرتكم كل صباح !

فقال لها مبتسما :

ـ أنت يا نوال رحمة للجد وعذاب للحفيد !

ثم امتد بصره الى المقبرة فسرعان ما خطر له خاطر مخيف كأنه شيطان انشقت عنه أرض الموتى ، هل يجرى القضاء غداً بأن تقرأ فتاته ـ وهى آخذة فى طريقها هذا ـ الفاتحة على روحه هو ؟!

وانقبض صدره ، ثم استرق الى وجهها الأسمر نظـرة غريبة ، فشعر بأنها كل أمله فى الوجود ، وبأنه اذا جاز لشيء أن يسخر من الموت ويستهين بمخاوفه فهو اتحاد قلبين متفانيين ، ووجد دافعاً قوياً يدعوه الى التعلق بها ، وضمها الى قلبه ، بل الى شـغاف قلبه اذا أمكن . ولاحت منها التفاتة اليه فطالعت نظرته الحالمة ، فلاح فى وجهها الجد ، وسألته :

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟

فقال بصوت متهدج :

ـ لأنى أحبك يا نوال .. لقد أدركت ـ وانا أنظر الى القبور على ضوء عينيك ـ معنى القول ان الحياة الحب . وقالت لى القبور ان كل سـاعة نرضى بأن تفرق بيننا جريمة عقـابها ظلمة القبر . وسمعت صوتاً يهتف بى : لله ما أحمقكم تضنون بالتافه من الأشياء عن العبث وتعبثون جزافا بنعمة الحياة ...

فتورد خداها ، وأضاءت عيناها الصافيتان بنور الوجد ، فلم يعودا (هو وهى) يشـعران بهبات الهواء البـارد المندفع من الصحراء ، وشد على راحتها وسارا صامتين . ومضى يتساءل ترى كيف يسوغ أن يمسك عن ذكر « الخطبة » بعد كل ما قال ! وكانت تتوقع من ناحيتها أن يطرق الموضوع المحبوب قبـل كل خطوة تخطوها ، ولكنه لزم الصمت حتى شارفا نهـاية الطرق ، وتوادعا ثم افترقا ، فبطؤت حركته وهو يتابع مسـيرها بنظرة

استجمعت فى حنانها جميع ما فى قلبه من حب ووجـد وحزن ، حتى انعطفت مع الطريق الى العباسـية ، وأخذ فى طريقـه الى محطة الترام ، وعند ذاك فحسب شعر بالاعياء واضطراب الأنفاس ودوار يوشك أن يصير غثيانا . .

***

ولذلك لم يفته أن يحدث أخاه عن الخطبة وعما عسى أن يحدثه امساكهم عن فتح موضوعها من سوء الظن فى نفوس أهل الفتاة ، ولكن أخاه ــ وكان غاضبا لعودته الى الخروج المبكر ــ لم يوافق على مفاتحة كمال خليل أفندى بهذا الشأن قبل الشفاء الكامل . قال للشـاب :

ــ اعتل بما تشاء من المعاذير فأنت أستاذ فى اللباقة ، ولـكن لا يجوز أن نتكلم رسمياً قبل أن تشفى تماما ان شاء الله . سيكون اعلان الخطوبة مكافأة الشفاء فأرنا همتك ! .

وعجز الرجل عن اقناعه بالعدول عن الخروج الباكر والتعرض لأذى البرد ، فآيس منه وسلم الى الله سائلا اياه اللطف والرحمة ، وكان ممن يشقون بآلام الأقربين ، فتجد الأوهام والمخاوف من صدورهم الضعيفة مرعى خصيبا للهواجس والأحزان ، فصار مرض شقيقه ــ منذ اللحظة الأولى ــ شغله الشاغل وهمه الملازم وشوكة سامة فى جانب طمأنينته .

وامتـد خوفه الى نواحى أخـرى حتى ألقى به فى النهـاية فى مواجهـة مشكلة من أدق المشـكلات الخلقية ، لم تكن لتخطر له على بال . فلم يغب عن ذهنه أن شـقيقه يلتقى بالفتـاة كل صباح . وربما انفرد بها مساء وهو يجلس منها مجلس الأستاذ ، فاذا أغراه الهوى ــ شأن المحبين ــ بقبلة ، أفلا تتعرض الفتـاة لأذى بعيد الغور ؟ ! ألا يدرك رشدى خطورة الأمر ؟ ! . . ألا يجد من ضميره وازعا ؟ ! ولكن كيف بمن يستهين بحياته أن يعرف لحياة

الآخرين قيمة ؟ . . وتفكر فى الأمر طويلا ، متكدراً مغتما ، لا يدرى كيف ينقذ من الهلاك فتاة بريئة ، وبدت حيرته ذات بواعث أخلاقية صافية ، ولم يداخله شك فى أنها كذلك ولا كانت تخلو فى الواقع من شعور أخلاقى عميق ، ولكنه لم ير ما عداها على نزوعه الطبيعى الى تفحص نفسه ، أو أن العين فى أحايين كثيرة لا ترى الا ما تحب أن تراه . فتكدر واغتم ، وأفضى به الكدر والغم الى حيرة شديدة ، فلا هو يستطيع أن ينمى الحقيقة الى كمال خليل لأن خيانة أخيه الحبيب جريمة نكراء لا يمكن أن يجترحها ، ولا هو يستطيع ان يكاشف الشاب بمخاوفه أن يصيب مقتلا من نفسه الحساسة الرقيقة . وعذبه التردد والقلق والاشفاق . ولم يكن أبدا ذا عزيمة أو ارادة ، فنكص على عقبيه بقلب خائر وفكر مشتت ، وظلت المخاوف تطارده ، وتلح على ضميره حتى بلغ منه الاعياء والكلال ، فتساءل فى يأس وقنوط « أليست غيبوبة المعلم زفتة خيرا من هذه الحياة ؟ ! » . .

٣٨

وزادت حال رشدى سوءاً ، فاشتد هزاله وشحوبه ، ولكنه بدا مستهتراً سادراً كأن الأمر لا يعنيه . ولم يعد يقنع برحلات الصباح فى طريق الجبل فكان كلما نازعه الشوق الى كازينو غمرة انطلق الى الاخوان يعربد معهم حتى مطلع الفجر . وكان احمد يقول له مبكتاً « أتروم الانتحار ؟! » . والحق انه انحدر فى سبيل الانتحار بلا قصد . وعجز عن مقاومة ميله الطبيعى للذات ، واذعن للحساسية المرهفة الجديدة التى أحدثها المرض فى نفسه ، وحجب العاقبة عن عينيه طبيعته الجسور المتفائلة ، فلم يفقد الأمل قط ،

او لم يفقـــده الا لحظات عابرة ، وظل على عهـــده من الجسارة والاستهانة والابتسام . ولكنه فوجىء بعودة السعال بل عاد أعنف مما كان فى أسوأ حالاته ، ثم تتابعت عليه نوباته ، وتلوث بصاقه مرة أخرى بالدم ، ولفتت نوبات السعال الموظفين اليه فى المصرف ، فساورتهم الشكوك ، وأمسى عمله عديم الجدوى ، وتنبه الوالدان للخطر الذى يهدد ابنهما ونصحا له بالانقطاع عن عمله حتى يسترد صحته . ولكنه بالرغم من ذلك كله ظل يكافح متعلقاً فى جنون بمظاهر الأصحاء المعافين . ولم يستطع احمد صبراً فدعاه يوماً الى حجرته وقال له بحزم :

ـ الام تتغاضى عن خطورة الحال ؟

فسأله الشاب فى استسلام لم يتوقعه :

ـ بم تشـير على ؟

ـ لا يجوز بعد اليـوم أن تواصل عملك فضلا عن السـهر والعربدة !

ـ واذا انفضح سرى ؟

فقال أحمد بتأثر شديد :

ـ ليس المرض بالفضيحة ، وللضرورة أحكام .

فأطرق رشدى وقد خارت عزيمته وتنهد من فؤاد مكلوم قائلا :

ـ الأمر لله !

ونجم استسلامه المفاجىء عن الاعياء ـ لا الاقتناع ـ ولذلك ما كاد يقرر طبيب المصرف سبب مرضه الحقيقى ويمنحه أولى اجازاته المرضية حتى خارت قواه ، ورقد على الفـراش صريع الضعف والسعال . واخفى أحمد الحقيقة عن والديه ، ولكن الحالة اشتدت اشتداداً مخيفا ، ورأت الأم البصاق الدامى وعلم به الوالد ، ففزعا فزعا شديدا ، وروع قلباهما الضعيفان . ودعت الحالة الى استشارة الطبيب ، فاقترح احمد أن يدعوه الى البيت ولكن رشدى

اختـار أن يذهبا اليه معا ، فارتدى بذلته بمسـاعدة أمه ، وقد اتسعت عليه أيما اتسـاع ، واستقلا عربة الى عيادة الطبيب ، وصحبه أحمد الى حجرة الكشف ، ولما وقع عليه بصر الطبيب ، ولم يكن رآه من أسـبوعين ، قال بصوته الرفيع وهو يتظـاهر بالابتسـام :

ــ ماذا فعلت بنفسك ؟

فابتسم رشدى ابتسامة باهتة وتمتم قائلا :

ــ السعال وضعف شديد !

وأجرى الدكتور الفحص ، فساد الصمت برهة غير قصيرة ، ثم قال بعد الانتهاء :

ــ كلمة واحدة لا أزيد عليها : المصـحة !

فتجهم الوجه المصفر ، وتساءل صاحبه بصوت خافت :

ــ هل زادت الحالة سوءا !

فرفع الرجل حاجبيه وقال :

ــ هى الحقيقة . ولا شك أنك لم تتبع نصحى ، ولكن لا داعى للخوف اذا بادرت بالذهاب الى حلوان . سافر اليوم ان امكن . وستجدنى هناك الى جانبك !

وسأله أحمد :

ــ هل تطول اقامته فى حلوان ؟

فقال الرجل :

ــ علم هذا عند الله . ولست متشائما ، ولكن لا يجوز الابطاء .

ورجعا الى البيت فوجدا الوالدين ينتظران فارغى الصبر ، وبادر الوالد أحمد قائلا :

ــ ماذا به ؟

وعلم أحمد أن الكذب لن يجدى فقال واجما ، وباقتضـاب ذى مغزى :

ـ المصـحة !

وسـاد الصمت ، واحمرت عينا الست دولت منذرة بالبكاء ، وتمتم الوالد :

ـ ربنا يلطف بنا .

فقال أحمد متصنعا السكينة :

ـ ليس هناك ما يدعو للقلق ، ولكن لا محيـد عن المصحة .

وكان رشدى لا يزال نافرا من المصحة ولكنه لا يجرؤ على قول «لا» بعد ما صار اليه حاله ، فدعا أخاه الى جانبه وقال له بتوسل وعلى مسمع من امه :

ـ لتكن المصحة اذا شئت ، ولكن ...

وأومأ الى النافذة ، واستدرك :

ـ ولكن لا أحب أن يعرفوا الحقيقة !

فاشتد التأثر بالرجل . وخفق فؤاده بحزن عميق ، وقال :

ـ لا تخف فمن السهل أن نقول انك مصاب بماء فى الرئة أوجب سفرك الى المصحة !

فتساءل رشدى محزونا :

ـ وهل يجوز هذا عليهم ؟

فقال أحمد :

ـ أن التداوى من ماء الرئة يستدعى زمنا طويلا ، ومهما يكن من أمر فالعناية بصحتك أولى بالاهتمام مما عداها .

٣٩

ولم يضع أحمد وقتاً ، فقام بالاجراءات المتبعة لالحاق شقيقه بالمصـــحة ، مستعيناً بتوصـــية من الطبيب المداوى . ووجد أن سريراً سيخلى فى أول مارس لانتهاء مدة علاج صاحبه ، فتقرر انتقال رشدى من ذاك التاريخ . وفى المدة القصيرة التى سبقت السفر عانت الأسرة آلاماً برحاء ، وكان رشدى يكابد من السعال عذاباً مضنياً وسهاداً منقطعاً . وغرق الوالدان فى حزن ذاهل ، وتكدر صفوهما ، ولاحت فى اعينهما نظرة واجمة امتزج فيها الرجاء بالخوف . ووقع احمد فريسة لهواجسه ، فانقلبت حياته غماً وجزعا ، وعاد كمال افندى خليل الشاب واكد له أن « ماء الرئة » لا خطر منه البتة مع العناية ! . ثم زارته الست توحيدة ونوال ــ ولم يكن احمد بالبيت ــ وقالت له ان غرامه بالنحافة هو الذى ادى به الى المرض ، وتعهدت له ضاحكة ، بأن تتولى تسمينه بعد الشفاء ، ولم تدر نوال ماذا تقول على مسمع من الوالدتين ، ولم يستطع الشاب أن يديم اليها النظر ، ولكن عينيه التقتا بعينيها فى لمحات خاطفة فتجاوبت رسائل الحب والشكر والحزن الصامتة ، وسر رشدى بالزيارة سروراً لم يشعر بمثله منذ استسلم للرقاد . وبعد خروج المرأة وابنتها أعرب لأمه عن خوفه من افتضاح حقيقة مرضه ، ولكن المرأة المحزونة طمأنته قائلة ان مرضه سر مطوى فى صدور محبيه .

وفى صباح اليوم الأول من مارس حملت عربة الشقيقين الى محطة باب اللوق وكان دعاء الأب آخر ما سمع رشدى فى البيت ، وكانت دموع الأم آخر ما رأى . وفى الطريق قال الشاب لشقيقه :

ـ اذا طالت مدة التداوى فصلت من عملى حتما !

فقال له أحمد بثقة :

ـ وحتى لو حدث هذا ـ لا قدر الله ـ فعودتك الى عملك مرة أخرى أمر يسير ، ولا تشغل نفسك بغير الشفاء !

ثم انتقلا الى الديزل . فانطلقت بهما فى طريق حلوان . وجلسا جنباً الى جنب . وكان أحمد صامتاً يلوح فى وجهه النحيل الهم والفكر ، وكان رشدى يسعل من حين لآخر . وعجب أحمد لسوء الحظ الذى يلاحق أسرته ، فقد فقدت غلاماً ، وها هو رشدى يصاب بالداء الخطير ، أما هو فقد نصبه الدهر هدفاً للعثرات والاخفاق ! ولو قنع الدهر به فدية لكفاه ولكنه لا يقنع ! واختلس من الشاب نظرة فهاله هزاله ، وضمور رقبته ، وذبول عينيه ، وغياب النظرة اللامعة الساخرة منهما ، فتنهد وقال لنفسه متحسراً « رباه .. متى تنكشف الغمة ؟ .. متى أفتح عينى فلا أجد من هذا الشقاء الماثل إلا اطياف ذكريات منقضية ! » . ونظر الى الخارج خلل زجاج النافذة فجرت أمام ناظريه الأبنية والفيللات فى حشد طويل ، ثم انسابت القاطرة بين حقول ممتدة من النضرة والخضرة والمناظر الريفية الفاتنة ، ثم أقبلت الصحراء اللانهائية الجرداء يحف بأفقها الجبل الشامخ . فاستثار تتابع المشاهد ما بين ابنية وحقول وصحراء جرداء عاطفة كئيبة فى صدره ، فامتلأ شجناً وأسى .

وبلغت القاطرة حلوان ، فتركا القاطرة وقد نهكت الرحلة الشاب المريض ، واستقلا عربة الى المصحة ، وسارت بهما تتهادى فى طريق مقفر . وتراءت لهما المصحة فوق سفح الجبل كقلعة هائلة ، فرنا اليها الشقيقان بقلبين خافقين ، وقال أحمد :

ـ الفاتحة ان ربنا يأخذ بيدك ويمن عليك بالشفاء ويخرجك من هذا المكان مجبور الخاطر ..

وانتهيا الى المصحة ، واستقلا المصعد الى الطابق الثالث ، ودلتهما ممرضة على الحجرة التى يقصدانها . وكان بالحجرة سريران ، يرقد على أحدهما شاب فى مثل سن رشدى وفى مثل هزاله وصفرته فتبادلوا التحية باسمين . واستراح رشدى حتى استرد أنفاسه . ثم غير ملابسه بمعونة شقيقه ، واستلقى على الفراش ، وجلس أحمد أمامه على كرسى مريح ، وأومأ الرجل الى الشاب المريض الغريب ، وقال مخاطباً شقيقه :

ـ ستجد فى صاحبك خير رفيق ، فتعاونا على قتل الوقت وتبديد وحشة الوحدة ، حتى يأذن الله لكما بالخروج سالمين غانمين !

ومضى يتحدث مع شقيقه حيناً ، ومع صاحب السرير المجاور حيناً آخر ـ وقد علم أن اسمه أنيس بشارة وانه طالب فى السنة النهائية بكلية الهندسة ـ والظاهر أن الرحلة أعيت رشدى فاعتراه تعب شديد . واستلقى فى خور وخمود . ومكث أحمد معهما حتى اطمأن على الشاب ، ثم نهض لينصرف . وقد شعر وهو يضغط على راحة الشاب مودعاً بدمعة تتحرك فى مجرى الدموع من قلبه ، فقرض على أسنانه ليمنعها من الصعود الى محجريه ، وغادر الحجرة . وخال فى الخارج أنه راى عينى الشاب كالمنذرتين بالبكاء وهو يسلم عليه ، فنازعه قلبه الى العودة اليه مرة أخرى ، ولكنه قاوم عاطفته ومضى فى سبيله . واخترق دهاليز طويلة تفتح عليها أبواب عنابر المرضى ، ورأى الأشباح الآدمية فى الثياب البيض الفضفاضة ، فاقشعر بدنه ووجف قلبه . وظل وهو آخذ فى الطريق الى المحطة يعاود النظر وراء ظهره الى بناء المصحة الشاهق ويتمتم بالدعاء .

وفى مساء ذلك اليوم باتت أسرة عاكف فى وجوم وكآبة ، وقد لاحت فى عينى الأب نظرة شاردة ، وبكت الأم حتى دميت عيناها ، وحاول أحمد أن يخفف عنها بحديث الرجاء والأمل ، ولكنه كان فى الحقيقة فى حاجة الى من يخفف عنه . . .

٤٠

وانتظرت الأسرة يوم الجمعة ــ يوم الزيارة فى المصبحة ــ بصبر فارغ . وقر رأى كمال خليل افندى على إن يصحبهم هو وأسرته ، وأخذت الأسرتان للزيارة أهبتهما فابتاع احمــد لأخيه صندوق بسكوت بالشيكولاتة ، وأعدت الست توحيدة ــ والدة نوال ــ له كعكا عرفت باتقان صنعته . وعند الضحى ذهبوا جميعا ــ الرجال الثلاثة والســـيدتان ونوال ــ الى محطة باب اللوق ، واستقلوا قاطرة الديزل ، وجلسوا متقابلين ، الرجال فى ناحية والنساء فى الأخرى ، وبذلك وجد أحمد نوال جالسة لقاءه ! ، وتجنب ، منذ اللحظة الأولى ، أن ينظر اليها ، ولم يكن رآها منذ ذاك اليوم الذى كشف له عما كشف ، بيد أن وجودها على بعد قدم منه ايقظ الذكريات وحرك الأشجان . وخاف مغبة الاستسلام للخواطر فتشاغل بالحديث مع كمال خليل تارة ، وبقـــراءة الأهرام تارة أخرى . والواقع أنه لم ينجح الا فى تجنب النظر اليها ، ولكنه غلب على أمره ازاء سيل خواطره الجارف . وانى له أن ينسى أمله الخائب! أو سخطه المر القديم على شقيقه ! أو مرض شقيقه الذى جعل من سخطه القديم عليه جرحا فى ضميره لا يلتئم ! وهل ينسى أنه خاف يوماً على الفتاة من العدوى ! وانه حام حول اتهام شقيقه بتعريض حياتها للهلاك ! كل أولئك آلام جعلت من حياته مرتعاً للنار . حتى صدق قوله لنفسه مرة « لقد أصيب رشدى فى صدره وأصبت أنا فى عقلى ! » . ثم تساءل ترى ماذا يخطر لها من الأفكار حين يقع بصرها على شخصه امامها ؟! هل يثير ألما ؟ ؟ خجلا ؟ ! الا يجوز أن تأسف أن لحقت العلة بحبيبها متعامية عن هذا الكهل ؟ ؟ ولو فعلت ما جاوزت القصد ولاحادت عن الانصاف ، فما فائدة حياته ؟

وما وجه الانتفاع بصحته ؟ ووجد لتوه ذاك الشعور بالاضطهاد ، المؤلم اللذيذ معاً ! . وحقيقة أخرى لم تغب عنه ، وهى أنه مرتاح الى وجودها رغم تجنبه النظر اليها ! . لماذا ياترى ؟ هل يرغب أن يمتحن قدرته على النسيان والتأسى ؟ ! أو يريد أن يشبع رغبته القديمة فى أن يريها قوته على تجاهلها والترفع عنها ؟ ! ثم أفاق لنفسه قليلا ، فكبر عليه أن تكون تلك خواطره وهو ماض لعيادة العزيز المريض! وبلغ منه الألم حداً تمنى معه لو كانت الجراحة تستطيع بتر الفاسد من النفس ، كما تبتر الفاسد من الأعضاء !

وانتهت الرحلة ، وساروا فى الطريق وأبصارهم عالقة بالمصحة . وقوى أمل أحمد أن يجد الشاب أحسن حالا – وان لم يمض فى المصحة سوى ثلاثة أيام – لاخلاده الاجبارى الى الراحة ووجوده فى الجو الموافق . وتقدمهم جميعا نحو الحجرة ، وسبقته عيناه الى السرير ، كان رشدى راقدا ، وقد شعر بحضورهم ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، الا ابتسامة خفيفة باهتة ارتسمت على شفتيه الذابلتين وهو يتلقى تحيات القادمين الذين أحاطوا بفراشه . وخاب أمل الرجل . وروع لما رأى من تدهور الشاب ، فلم يشك أن حالته ساءت عما كانت عليه يوم أتى به . وحار فى تفسير ذلك وانقبض صدره . وجلس الزوار ، ووضع البسكوت والكعك على خوان قريب من السرير ، ولما رآهما رشدى قال بصوت ضعيف :

– أنا لا أكاد أتناول طعاما . . . لا شهية لى البتة . .

فسألته أمه بقلق وهى تتفحصه بعينين حاولت الا يلوح فيهما شىء من الانزعاج المستولى عليها :

– ألا يعجبك طعام المصحة يا رشدى ؟

– الطعام جيد ، ولكنى فقدت شهيتى !

فقالت الست توحيدة :

ـ لا تخف فهذا شأن المرض أول عهده . وغدا تلتهم الطعام التهاما بفضل هذا الهواء الجاف النقى .

فابتسم الشاب اليها ـ والى نوال بالتالى لأنها كانت لصقها ـ ثم قال موجها الخطاب لأحمد :

ـ كانت الليالى الثلاث الماضية شديدة الوطأة على ، اضطرب فيها نومى وتقطع ، واشتد على الألم ، ولم يكف عنى . . .

ولم يتم جملته ، فأدرك أخـــوه انه أمسك حذرا عن ذكر « الســـعال » ، فأيقن فى تلك اللحظة أن اصطحابهم أسرة كمال خليل ـ على مافيه من سرور ـ كان خطأ كبيرا ، ولكنه أراد أن يشجع الشاب فقال :

ـ على رأى تيزتك فهذا شأن المرض أول عهده . وستجتاز هذه الشدة بعون الله ، وتخرج منها سالما .

ولكن رشدى قال بلهجة دلت على التوسل :

ـ أليس الأفضل أن أعود الى بيتنا ؟

ورأى أحمد أمه تهم بالموافقة على رغبته فبادر بقوله :

ـ سامحك الله ! بل قل أنك لن تبرح حجرتك حتى تسترد صحتك وفتوتك ، ثم تقفل الى القاهرة مشيا على الأقدام ! ومن حسن الحظ أنى أراك متحسنا تحسنا محسوسا !

وقال كمال خليل يساهم فى تلك الكذبة المفيدة :

ـ أجل يا رشدى أفندى انت . . اليوم أحسن حالا بلا شك !

وحدت الأم بصرها لعلها تصدق ما يقولان ، بينما راح أبوه يقول بصوته الهادىء المنكسر :

ـ الصبر . . . الصبر يا رشدى ، وربنا يرعاك ويأخذ بيدك .

فسكت رشدى ، ولكن على رغم . ولم يغب ذلك عن أخيه الذى يحسن فهمه ، وكان يعلم أنه لا يقتنع بغير رأى نفسه ، ولا يعمل الا بمشورتها ، فأيقن أنه اذا كره المصحة فلن يصبر عليها ،

ولن تعود عليه اقامته فيها بنفع يذكر ، وازداد حزنا على حزن ، واسترعت انتباهه حركة آتية من السرير الآخر ، فنظر اليه ، ورأى زميل أخيه جالسا فى فراشه ، فتولاه الخجل لأنه نسى — فى غمرة حزنه — أن يحييه ، فقال له وهو يرفع يده له بالتحية :

— كيف حالك يا أنيس افندى ؟ .. لا تؤاخذنا ..

فضحك الشاب قائلا :

— العفو يا بك . الظاهر أن رشدى يرغب فى هجرنا !

فقال رشدى متأسفا :

— لكم أزعجت نومك .

فقال الشاب مبتسما :

— لا داعى للأسف على ذلك ، فسهر الليل لا يضايقنى بتاتا .

فابتسم أحمد وقال :

— الظاهر أنك من عشاق الليل كرشدى !

— نطقت بالصواب يا سيدى ، وها نحن أولاء يعلمنا الدهر انه ينبغى أن نقلع عما كنا نعشق ..

ودعوا لهما بالشفاء ، ونهضت ام أحمد الى الخوان ، وأتت بصندوق البسكوت ، ووضعته الى جانب رشدى وفى متناول يده ، وقالت برجاء :

— هلا تناولت واحدة يا رشدى ! ؟

ولكنه هز راسه على المخدة وقال بسرعة وبلهجة حازمة :

— ليس الآن ... فيما بعد !

فأخذت المرأة الصندوق أسيفة حزينة وان كانت تغالب عواطفها مغالبة صادقة ناجحة . ولم تنس — حتى فى تلك الساعة — واجبات اللياقة ، فدلفت من سرير أنيس بشارة وقدمت له بعض البسكوت . وكان أحمد يتفحص أخاه بعينين كئيبتين ،

فاذا أرسل الشاب اليه بطرفه تبسم مداريا حزنه . وقد هاله ذبول أخيه ، واصفرار لونه ، وخـــوره ، وأمارات التعب التى تعتوره . هاله ان يراه مستسلما للرقاد ، سجينا ، وما كانت الدنيا تسعه حركة واضطرابا ولهوا . وخيل اليه انه يقرأ فى نظرة عينيه حيرة وقلقا ، الى ما بهما من الم واستسلام ، فأوحيا اليه أن الشاب ينطوى على شيء يريد أن يفضى به اليه وقوى شعوره بذلك حتى خطر له ان ينفـــرد به دقائق بعد انصراف عواده ، ولكنه خاف أن يضرع اليه أن يعيده الى البيت ، فعدل عن رأيه ، وجعل يكور له قبضـــة يده مشجعا متظاهرا بالمزاح والاطمئنان . .

وآذن الوقت بالعودة ، فسلموا بحرارة ، ولهجت السنتهم بالدعاء ، وغادروا الحجرة ، وكانت الست دولت آخر من غادرها بعد ان قبلت الشاب فى خديه وجبينه . وفى الطريق لم تعد تملك اعصـــابها فامتلأت عيناها بالدموع . وكانت نوال تعالج دمعة لا تدرى كيف تخفيها . وظل أحمد منقبض الصدر حتى أوى الى حجرته ، ومضى يعلل نفسه بالأمل ويقول انه سيجده فى الزيارة القادمة أحسن حالا حتما مما وجده اليوم . رباه ... متى يرد الى ما كان عليه من القوة والنشاط والنضارة ؟ ! متى يعاود سمعه تغريده الحنون ودعابته اللطيفة وضحكته الرنانة !

ونامت أسرة عاكف تلك الليلة على حزن وكمد كنومها ليلة الفراق .

ثم استيقظوا جميعـــاً فى الهزيع الاخير من الليل على رنين الجرس .. وجلس أحمد فى الفراش مرهف الأذنين . فسمع الرنين متصلا كأنه يصرخ فى الغافلين . وانقض عليه خاطر جعل قلبه يرجف كابرة الجرس فقفز من الفراش وجرى الى الخارج . التقى بوالديه في الصالة وهما يكادان أن يعدوا عدواً نحو الباب .

ولم ينبس أحدهم فقد تولاهم استسلام يائس للأقدار . ودلف احمد من الباب مزدردا ريقه واضاء المصباح الخارجى وفتح الباب . ونظر فى الردهة الخارجية فلم تقع عيناه على انسان ، وكان الرنين لا يزال متصلا ... والتفت الرجل الى والديه مندهشا مغمغما : « لا أحد فى الخارج » . واقترب من « بطارية الجرس » ، ورفع غطاءها وفصل بين الأسلاك فسكت الجرس المزعج ! واغلق الباب والدموع توشك أن تطفر من عينيه . وتبادلوا جميعا نظرات حائرات ، ثم هتف الأب قائلا :

ــ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

وقالت الأم وهى تتنهد من أعماق قلبها :

ــ أليس الأوفق أن نأتى برشدى ما دامت هذه رغبته ؟

فقال أحمد وقد وشى صوته باضطراب نفسه :

ــ يا شيخة وحدى الله ...

٤١

وعند عصر يوم الأحد وكان أحمد مجتمعا بوالديه يحتسون قهوة العصر . جاءه البريد بكتاب ما انرأى الظرف حتى تمتم بغرابة :

ــ هذا خط رشدى ..

وتنبه الوالدان ، وتابعت عيناهما يد الرجل وهو يفض الغلاف . وقد كتب الخطاب بالقلم الرصاص ، وبخط ردىء ــ على غير عهد صاحب الخطاب ــ وكان به ما يأتى :

٨ ــ ٣ ــ ١٩٤٢

اخى العزيز

تحياتى اليك والى والدى . أكتب كتابى هذا وقد مضى على

انتصاف الليل ساعتان .. ولا تدهش يا أخي فقد حرمت نعمة النوم الى الأبد وما عاد لأى منوم من تأثير فى . تصور انى تناولت بالامس جرعة من منوم معروف ، فلما لم تجد شـيئاً عاطانى الدكتور برشـامة مخدرة وبشرنى بنوم ثقيل . وهاهو الليل ينتصف وتمضى على انتصافه ساعتان وانا متيقظ مسهد ، ولانهاية لعذابى بل لاازال جالساً لأن الرقاد ــ او ضغط ظهرى على حشية الفراش ــ يهيج السعال الذى اشتدت نوباته على ، فلا معدى لى عن الجلوس فى فراشى ، وقصارى ما يمكن عمله لتهيئة الراحة ان اكسر مخدة واضعها على حجرى ثم أسند راسى اليها ..

أخى :

يؤسفنى أن أؤلمك او أحزنك ، ولكنها الحقيقة المرة ، ولا حيلة لى فيها .ولا مفر من أن أفضى اليك بالحقيقة فأنت ملاذى اولا وأخيراً . فاعلم ياأخى انى اطلعت على نتيجة الأشعة التى صورت صدرى غداة وصولى الى المصحة ، وقد كشفت اصابة جديدة فى الرئة اليمنى ، اما اليسرى فقد حفرت الاصابة القديمة لى كهفاً فىحجم نصف الريال ، والحالة العامة خطيرة ، واليك تقرير الطبيب النوبتجى . « عدم قابلية للأكل مطلقاً ، عدم النوم مطلقاً ، سعال نظيف ، ونفس مكروش دائماً ... » فلا شـك انى فى طريق النهاية ، لا شك فى ذلك مطلقاً . انى أكتب اليك ودموعى تنهمر فتخفى عن ناظرى الألفاظ التى أنعى بها نفسى اليك ، وكلما ذكرتكم غلبنى البكاء ...

هذه هى الحالة ، فاستحلفك بالله يا أخى الا ما وافقت على عودتى اليكم لاقضى بينكم ايامى الأخيرة حتى يوافينى الأجل .. فلا تعرض عن توسـلاتى هـذه المرة . واكرر اسفى لايلامك ولكن ما حيلتى ؟ ! ... وعليك الا تخبر والدى بالحقيقة . والسـلام عليكم ورحمة الله .

اخوك المخلص

رشدى

قرأ الخطاب ذاهلا ، واعاد قـــراءة كثير من عباراته أكثر من مرة ، وشعر عند الانتهاء من قراءته بدوار ، واتكار ، وغرابة . ولكنه لم يرفع عنه ناظريه حتى يستعيد رباطة جأشه ، فيواجه امه بشيء من السكينة يمكنه من الكذب عليها . واستطاع بفضل تفكيره فى امه ، ووجودها على كثب منه ، أن ينسى نفسه الى حين فيمتلك أعصابه ، ثم نظر الى والديه فرآهما ينتظران كلمته بعينين معذبتين كمن ينتظر ــ غير معصوب العينين ــ اطلاق النار عليه ، فتكلم قائلا متصنعاً لهجة السخط والتبرم :

ــ رشدى يلح فى العودة الى البيت ، فماذا دهاه ؟ !

فسألته الأم بلهفة :

ــ ولكنه بخير !!

ــ بخير والحمد لله الا أنه كاره للمصحة .

ــ أعده الى يا احمد ، فلا فائدة ترجى من تركه فى المصـــحة على رغمه .

فنهض أحمد وهو يقول :

ــ سأسافر اليوم الى حلوان وآتى به . .

واعطى الخطاب الى والده ومضى الى حجرته وأمه فى اثره .

وسافر الى حلوان دون تردد أو تأخير . وظل طوال الطريق مشتت الفكر موزع الفؤاد مضطرب النفس ، ولأول مرة ــ منــذ أمد بعيد ــ يفكر فى الموت كحقيقة ماثلة يطالع معالمها الرهيبــة ويستشعر آثارها العميقة من الألم والخوف والقنوط . وتخيــل المقبرة النائية التى ابتلعت شقيقه الأصغر ، فخالها تنفض عن ثغرها تراب الأرض وتفغر فاها لابتلاع رشدى الحبيب الذى لا يدرى كيف تكون الدنيا بدونه ! . وكان كلما قصرت المسافة بينه وبين المصحة اشتد انقباض صدره ، وثقلت وطأة الخوف على قلبه . رباه . . كيف يجده الآن ؟ ! . وما فعل السـهاد به ؟ ! . وغادر

القطار على عجل والشمس تميل نحو المغيب . واخذ العربة الى المصحة . ثم صعد الى الطابق الثالث لا يلوى الى شيء . واشتدت ضربات قلبه وهو يقترب من الحجرة ، ودخلها وقد تركز وعيه فى الفراش أمامه . رأى رشدى كما وصف نفسه فى رسالته جالساً فى فراشه مسند الراس الى مخدة منكسرة على حجره ! وازدرد ريقه وهتف به :

ــ رشدى !

فرفع الشاب راسه عن المخدة بسرعة ، وطالع أخاه بوجهه الضامر الشاحب ، وصدره المضطرب . وسرعان ما لاح السرور فى عينيه ، وقال بصوت متهدج :

ــ اجئت ! . . خذنى . . خذنى .

فقال أحمد ليدخل الطمأنينة على نفسه :

ــ لهذا جئت يا رشدى . . .

ثم التفت الى أنيس بشارة فحياه فرد الشاب تحيته وقال بلهجة جدية دلت على تأثره :

ــ مسكين رشدى ! انه لا يذوق للنوم طعما ، وكانت ليلته الماضية شديدة فظيعة ! فالأوفق حقاً ان يمضى هذا الاسبوع فى البيت . على أن يعود الى المصحة فيما بعد !

فأومأ أحمد براسه موافقا وسأل الشاب :

ــ أتدرى ما هى اجراءات الاستئذان لخروجه ؟

فقال أنيس بنفس اللهجة الجدية :

ــ اسع الى الطبيب بلا ابطاء .

ولم يلق الرجل صعوبة ما ، بل ساوره الخوف والقلق لسرعة موافقة الطبيب على طلبه .

وعاد الى اخيه ، وحزم متاعه ، وعجز رشدى عن خلع بيجامته وارتداء البدلة ، فاكتفى بلبس الروب ، وجاءوا بنقالة لحملة الى

المصعد . وسار أنيس بشارة فى وداعه حتى الباب الخارجى للمصحة ، وشد على يده بحرارة ، ودعا له مخلصاً بالشفاء والصحة . ورأى أحمد شقيقه يستسلم لأيدى حامليه بلا حول ولا قوة وقد زاغ بصره ، وبدا للعين هزاله ، فذكر نضارته وحسنه ، ورشاقته ونشاطه وفكاهته وغناءه ، ثم لم يملك أن يعض على شفته متوجعا متحسراً وقد شعر بقلبه ينتحب باكياً فى أعماق صدره .

٤٢

ووجدا فى انتظارهما فى البيت الوالدين وأسرة كمال خليل أفندى . وكانت الست توحيدة ونوال جاءتا لزيارة أم الشاب المريض ، فلما علما بأن شقيقه سافر ليأتى به لبثا فى انتظار وصوله . وأحدث ظهور رشدى أثرا عميقا فى النفوس فلم يحاول أحد اخفاء انزعاجه ، ولكن الشاب لم يبد عليه أنه أدرك شيئا مما حوله . أو أنه فطن الى وجود احد . وأجلس على فراشه وصدره يعلو وينخفض ، مغمض العينين ، والأعين محدقة به ، وقد انعقدت الألسنة ، واصفر وجه الست دولت وارتعشت أطرافها ، فهرعت الى فراشه ، وجلست وراء ظهره لتسنده بصدرها المضطرب . وفتح رشدى عينيه بعد برهة وأجالهما فى الحجرة والوجوه ، فلاح فيهما نور العرفان واليقظة ، وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة خفيفة ، وقال بصوت متهدج خفيض كأنما يصاعد من أعماق صدره :

ـ الحمد لله .... الحمد لله .... انا مسرور بعودتى الى حجرتى ...

فدعا له الجميع ، وكررت الست توحيدة الدعاء ، فابتسم الشاب وقال :

ــ سأشفى هنا باذن الله . . لا تبرحى مكانك يا نينة . .

فقبلته المراة فى منكبه وقالت :

ــ لن أبرحه يا رشدى ــ باذن الله ــ أن قلبى لا يمكن أن يكذبنى .

والتقت عيناه بعينى نوال مرات ، وتلقى فى كل مرة ابتسامة حلوة ضمنتها عيناها ما تكنه جوانحها من الدعاء والرجاء والاشفاق . وتنحى احمد جانبا دون أن تفارق عيناه وجه شقيقه ، وكلما طالع فى عينيه نظرتهما الذابلة ارتعش كيانه وقال لنفسه : « اللهم رحمتك ! » .

وقال عاكف افندى احمد ــ الأب ــ عن حكمة :

ــ الأوفق أن نتركه حتى يسترد انفاسه ويستريح .

فخرجوا جميعا ما عدا امه . وانصرفت الزائرتان . وخلا احمد الى نفسه فى حجرته قليلا . ولكن لم يستطع صبرا فعاد الى حجرة الشاب . ووجد رشدى لا يزال فرحا بالعودة ويحادث أمه قائلا بصوته المتهدج الخافت :

ــ لشد ما يطمئن قلبى فرحا وسرورا ، ولشد ما آلمنى جو المصحة الموحش . لم اذق فيها النوم ولا الطعام . ورأيت مريضا ينزف حتى غرق فى دمه . ومروا بحجرتنا حاملين مريضا آخر الى حجرة « العزلة » حيث يودعون المرضى المشفين على النهاية .

ومن المؤسف حقا أن سوء حالتى آلم زميلى انيس بشارة ، ويغلب على ظنى انه استثار مخاوفه فجعل يبكى حزنا وفرقا . الآن عاودتنى الطمأنينة . . .

وحول ناظريه الى أحمد ، وسكت قليلا وصدره يعلو وينخفض ثم استطرد :

ـ أتعبتك كثيرا يا أخي . معذرة . لا تجد على لعصياني نصحك . أعدك بأني سأرعى منذ اليوم صحتي ، وأني لن أخالف لك نصيحة . واذا من الله على بالشفاء فلن أستهين يوما بحياتي .

فعض أحمد على نواجذه ليحبس دموعه الهائجة ، وقال مبتسما :

ـ لا محل للوم يا رشدى ، فكل شيء بأمر الله ، وغدا سترد الى صحتك باذن الله ، وستذكر هذه المحنة كما يذكر المستيقظ وطأة الكابوس ...

فابتسم الشاب الى أخيه ارتياحا لقوله ، وسأله أن يدني الخوان من فراشه وأن يضع عليه زجاجات الدواء . وأتى أحمد بالخوان ، وجعله في متناول يد الشاب ، ورص علبة الكلسيوم ، وحق المنوم ، والكارومين ، فشكره رشدى ، ثم قال :

ـ سأحتاج الى ممرضة لحقني بالكلسيوم يوما بعد يوم ..

فقال أحمد :

ـ سأوصي الصيدلي باحضار واحدة والاتفاق معها ... ويحسن بك أن تسكت كي لا تشق على نفسك ، وربنا يرعاك ويحفظك ..

تناول الشاب جرعة من المنوم ، فاسترخت أعصابه ـ وقد نال منه أرق الليالي السابقة وأخلد للنوم ، الا ان السعال انتابه مرات فمزق نومه شر ممزق ...

٤٣

وجاءت أيام شـــدة وألم . ففرق الشـــاب المريض فى غمرة العذاب ، وتقطع قلب الأم الذى يسند ظهره المهزول . واستبد به الأرق فلم يغمض له جفن ـ مع تنـاوله المنـوم ـ الا ســاعات معدودات فى الهزيع الأخير من الليل ، وكثيراً ما أدركه الصباح وهو قاعد فى فراشه وقد حطم السعال أضلعه . وصدفت نفســه عن الطعام ، فاذا تجلد وتناول لقمات تقيأها فىنوبات السعال المخيف .

وتعاقبت عليه نوبات هذا السعال واجتاحته بعنف فما أن تسكت عنه واحدة الا وقد أشفى نفسه على الانقطاع ، وأنذرت عروق عنقه بالانفجار ، وسالت عيناه دما . فظن به الهلاك وأيست من شفائه القلوب . الا أنه بدا وكأنه يجتاز مفازة الهـلاك بسلام ، لا لتحســـن طرأ عليه ، ولكن لأن الأيام تتابعت وهو يقاوم ويجالد دون أن يسقط ، ثم مضت تخف ثورة السعال ، وتنتظم ســاعات نومه ، وتتقبل معدته القليل من الطعام ، واستطاع أخيراً أن يرقد على جنبه . وآذن كل أولئك بتحسن قريب فى صحتـــه ، ولكن مضى مارس جميعا وهو على حاله من الضعف والاعياء . لم يكن يستطيع مفارقة الفراش بتاتاً . وهزل هزالا محزناً حتى لم يعد فى برده سوى جلد ذابل وعظم معروق . وبعث منظر ســاقيه القشعريرة فى النفوس . وضمر وجهه ، وتقلص خداه ، وغارت عيناه . وعلت محياه صفرة باهتة . وبدا رأســه أكبر من الواقع وعنقه رفيعاً يكاد أن ينقصف من حمله . ولاحت فى عينيه نظرة عميقة متجهمة تدل على التصبر والتجلد ، والتألم والاستسلام ، فلم تزل تعذب أحمد حتى أضنته . كان يطالعها فى عينيه كلما عاده

فلا تمحى من ذاكرته أبداً ، وكانت تحمل فؤاده ألمرهف جميع ما تنطق به من التألم والتصبر . كانت تترك فى قلبه جروحا لا تندمل ، كان يطلع منها على عوالم الألم والمرض واليأس . رباه لكم قطعت فؤاده وفتتت كبده ، ولكم أهاجت مجارى دموعه .

وفى مرة دخل حجرته فوجده قد استوى جالساً فى الفراش ، وادلى ساقيه الى الأرض ، ولم تكن أمه فى الحجرة ، فخاف أن يكون ذلك مقدمة لمحاولات تشق عليه ، فقال له بتوسل :

ــ أليس الأوفق أن تلزم الرقاد ؟ !

ففاضت من عينيه نظرة التألم العميقة ، وحلت محلها نظرة جزع وبرم وقال بلهجة لم تخل من حدة :

ــ أخى . الا ترى كيف تمضى الأيام وأنا بمكانى هذا لا ابدى حراكا ! هكذا القى على الفراش بلا حول ولا قوة ، طوال النهار واكثر من نصف الليل ، حتى يغلبنى ذهول المخدر الذى نسميه نوما ! . . . أواه . ما أضيق الحياة . . . لقد سئمت هذا الفراش ، وضقت به ذرعا . . .

فلم يدر الآخر ماذا يقول ، والقت اللهجة الشاكية على روحه غباراً من الكدر ، فقال برقة : صبراً يا رشدى ، وما وراء الصبر الا الفرج !

ولا معدى عن الصبر أيضاً . كان يعتصر غصص الزمن الثقيل بقراءة الجرائد والمجلات ، والحديث الى أمه ــ ولم تكن تفارقه الا للضرورة ــ وابيه وشقيقه . وكان على امله وملله قد نجا من ساعات اليأس القاتل التى أوحت اليه مرة بالرسالة التى بعثها من المصحة الى شقيقه ، نجا من اليأس ، وعاوده الأمل فى الحياة ، والرجاء فى الشفاء ، ولكن الألم الذى رسم فى عينيه تلك النظرة العميقة المتجهمة لقنه حقيقة الشقاء التى ينطوى عليها قلب الدنيا . فذاق العذاب ، وشعر بأنفاس الموت الباردة تتردد على وجهه . والأرجح

أن الحياة تحرص على أن يعرفها أبناؤها جميعاً ، ألا انهـا تقطر حقيقتها على المعمرين وتسكبها فى أفواه المتعجلين .

ومن عجيب أنه لم ينس قلبه ؟ . فالمرض لا يمحو الحب . ربما لم يعد يضطرب به دمه ، ولكنه يحسه بروحه ويخفق به قلبه . ولكم ترف عليه الذكريات فتضىء مخيلتـه بنور وهاج ، وتدندن اذنيه كسجع الألحان ، فيستيقظ قلبه كزهرة نفخ الربيع فيها من روحه ، وتتخايل لعينيه بروق البسمات وطريق الصحراء والعينان النجلاوان ، وتطن فى مسمعيه العهود والمواثيق . ترى ما مصير كل أولئك ؟ .. ماذا يخبىء له الغيب ؟ .. هل يمكن أن يعـود الشباب والقوة والأمل والحب ؟ .. هل يمكن أن يسعى كسـابق عهده متبختراً فى رشاقة وخيلاء ؟ .. وأن يضحك ملء قلبه دون أن يهيـج سعالا قتـالا ؟ .. وان يذهب راسه ويجىء بالترنيم والتجـويد ؟ .. وأن يراه الاخوان فيتصـايحوا « جاء قلب الأسد » ؟ .. وأن يشبك ذراعه بذراع نوال فيقطعا معاً طريق الجبل وغلالة الضباب تخفيهما عن الأعين ؟ .. هل ما يزال ثمة امل فى أن يبتـاع خاتم الخطوبة ويزف كالعرائس ؟ .. وكانت نوال تعوده مع والديها ، فيتبادلان نظرات خاطفة مشوقة لم يشـعر بوقدتها الا هما . رباه لماذا لا يتركانهما وحدهما ولو لحظة ؟ انه يذوب شوقاً الى كلمة وداد ترطب حرارة فؤاده المحموم . وهكذا مضى شهر مارس . ولما جاء ابريل تغير الحال ، فلم يعد يرى نوال ! مضى أسبوع دون أن تزوره وانتصف الشهر فلم تحضر ، وعاده والداها بمفـرديهما ، وانتهى أبريل دون ان يراها أو تراه ! عاده اخوان قهوة الزهرة واسرهم وصحاب السكاكينى وجمهـور من الاقارب والجيران القدماء ، فالبيت لا يفرغ حتى يمتلىء ، الا نوال ، اختفت من حياته فجأة كأنها لم تكن حقيقة محسوسة وأملا مشوقاً ! ولا شـك أن والديه وشقيقه يشـاركونه أله وأنكاره ولكنهم

لا يفصحون عن مشاعرهم رأفة به . وأبى عليه كبرياؤه ان يسأل والديها . لماذا انقطعت نوال عن زيارته ؟ .

هل عرفوا حقيقة دائه وايسوا منه ؟ هل منعها من عيادته الخوف من العدوى ؟ . . هل أمسى شراً وأذى بعد أن كان حبيباً محبوباً ؟ . . أكذب الحب وعده ؟ ! . وجعل يجتر آلامه فى صمت ، حتى ضاق بها فقال يوماً لأحمد وقد خلت لهما الحجرة :

ـ ألم تر كيف انقطعت عن زيارتى ؟

عرف أحمد من يعنيها بقوله . وتظاهر بعدم الاكتراث وقال :

ـ حذار من الفكر ! انت فى نضال من أجل الصحة فلا تضعف مقاومتك بنفسك ! .

فاستطرد قائلا وكأنه لم يع ما قال الرجل :

ـ أبشع شىء فى هذه الدنيا جفاء صديق بغير ذنب . أو ان يكون ذنبه أن الصحة جفته !

ـ لا تبال شيئاً ولا تستسلم للأفكار السود !

فتمتم الشاب بصوت حزين :

ـ لن أبالى شيئاً ولكن الخيانة قبيحة !

وسرت فى الرجل رعدة لأنه ذكر أنه فاه يوماً بمثل هذه الجملة ، وقال يدارى عواطفه :

ـ حسبك قلوبنا فهى تحبك ولا تجفوك أبداً .

فتبسم رشدى وقال :

ـ لا أدرى متى حفظت هذين البيتين :

مالى أرى الأبصار بى جافية لم تلتفت منى الى ناحية
لا ينظر النــــاس الى المبتلى وانما النــــاس مع العافية

فقطب أحمد تألما وهتف به :

ـ اترغب أن تقتلنى غماً وكمداً !

فقال بأسف صادق :

ـ معاذ الله ، انت أحب الى من الشفاء !

وعاد أحمد الى حجرته وهو يقول لنفسه محزوناً « رباه ... كيف جفته و قد راح ضحية لها ؟ ! » .

٤٤

والحقيقة أن كمال خليل أخذ يساوره الشك فيما قالوا عن مرض الشاب . وما لبث أن أفضى بشكه ألى امرأته . ولكى يقطع الشك باليقين زار صديقاً فى بنك مصر وسأله عن حقيقة مرض رشدى ، فأطلعه الرجل على الحقيقة . وحزن كمال خليل حزنا بالغا ، لأنه أحب رشدى حباً صادقاً ، ووجد فيه خير زوج يمكن أن يرجوه لابنته . وهوى الخبر على الست توحيدة كالصاعقة ، وخيب أملها فى سعادة نوال . وخلا الرجل بزوجه وقال لها متجهماً :

ـ ماذا ترين ؟

فلاذت المرأة بالصمت اشفاقاً من الجهر بالحق المؤلم ، فقال كمال أفندى :

ـ لا أظن رشدى بناج من مرضه الخطير .

فقالت المرأة بامتعاض :

ـ ربنا يلطف به ...

ـ وحتى لو كتب الله له النجاة فلن يصلح للحياة الزوجية ..

ـ فماذا ترى أنت ؟

ـ أرى طبعاً أن أصون صحة ابنتى ، فهى شباب غض ، ودخولها حجرته كما حدث مرات استهتار شديد الخطورة سيىء العاقبة ، فينبغى ان تعرف الحقيقة حتى لا تعيش على الأوهام أو تتعرض لعدوى مرض خبيث ندرت النجاة منه ..

فقالت المرأة بلهجة دلت على الأسف والاستسلام :

ـ الأمر الله !

ودعوا بنوال ، وجاءت الفتاة غافلة عما يضمرانه لها ، وكان ينبعث من عينيها نظرة وديعة تلوح فيها الكآبة ، فطلب الرجل اليها أن تجلس قبالته على كرسى ثم راح يقول بصوت رزين :

ـ نوال ، دعوتك لأفضى اليك بسر هام ، وعهدى بك فتاة عاقلة ، والسلوك الحكيم هو ما أتوقعه منك دائما ، فاعلمى أن جارنا العزيز رشدى افندى مريض مرضاً خطيراً أفظع مما يقولون ..

فاصفر وجه الفتاة ، ونفذت لهجة والدها الرزينة الى قلبها فانقبض خوفا ، وتساءلت باشفاق :

ـ اى مرض يا ابتى ؟

ـ يؤسفنى أن أصارحك أن الشاب مصاب بالسل ، وهو مرض كما تعلمين فظيع ، ورحمة الله واسعة ، بيد أن على الانسان واجباً نحو نفسه لا يجوز أن يفرط فيه أو يستهين به لأى داع مهما جل شأنه ، فلندع لصديقنا العزيز بالشفاء ، ولنذكر قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

السل ! .. يا رب السماوات ! . ماذا يقول أبوها ؟ .. هل أضحى رشدى العزيز شيئاً واجباً اجتنابه ! هل أوى حقاً ذاك الداء الخطير الى صدره الحنون ؟ .. هل ضاعت الآمال وتبددت الأحلام ؟ ! . ورددت بين والديها نظرة حائرة تستحق الرثاء ، فأدركت أمها ما تعانى من ألم أجبرها وجود ابيها على مداراته ، فقالت :

ـ الله عالم بشدة حزننا وأسفنا ، وهو القادر على جبر كسرنا ، ولكن صدق والدك يا نوال ، فحداثة سنك تجعلك صيداً سهلا لعدوى هذا الداء ، فدعينا نحن نقم بالواجب عنا وعنك ، ولندع له جميعاً بالسلامة والشفاء انه سميع مجيب ..

وجعل ابوها يتفرس فى وجهها من تحت حاجبيـه ، ويقرأ ما تظهر وما تبطن ، ثم قال مستطرداً :

ــ الآن ادركت ولا شك الباعث الذى دعانا الى مخاطبتك فى هذا الشأن ، ولا شك أنك تقدرين رأيى حق قدره ، فأنا أبوك وأخاف عليك أكثر مما تخافين على نفسك . لهذا أقول لك انه لا يجوز بعد اليوم أن تعودى المريض العزيز ، ولا عليك من هذا ، ولن يلومك عليه انسان عاقل منصف . ومهما يكن من الأمر فما أبالى كلام الناس ولا أقيم للومهم وزنا اذا جاء مخالفاً للعقل . فما رأيك ..؟!

ولم تكن تملك من الجسارة ما تستطيع معه أن تصارحه بما يدور فى خلدها ، وكان له من المهابة فى نفسها ما يمنعها من مشافهته بما يخالف رأيه ، فلاذت بالصمت حتى استحثها على الجواب ، فقالت بصوت خفيض :

ــ أمرك مطاع يا أبتى ..

ولم يكن يطمع فى أكثر من هـذا ، وخاف ان أطال الحوار أن يشجعها على الافصاح عن حقيقة مشاعرها ، فنهض قائماً كالمقتنع المرتاح ، وقال :

ــ لا خيبت لى رجاء أبداً .

وما ان غيبه الباب حتى أحدقت فى وجه أمها وهتفت بها :

ــ كيف يكون هذا يا أماه ؟ ؟

فقالت المرأة بحزن واستسلام :

ــ لا معدى عنه يا نوال ..

فقالت بصوت متهدج مرتعش :

ــ كيف لا أعوده .. كيف أتجنبه ؟ . هل يقوم خوف الانسان على نفسـه عذراً معقولا لهجر اصـدقائه فى أوقات محنتهم ؟ . وما جدوى الصداقة والمروءة فى هذه الدنيا ؟

ولم تتم حديثها فخنقتها العبرات ، واوشكت الأم أن تتأثر

لها ، ولكنها تداركت عواطفها أن ترق لها فتدفع بها الى الهلاك .
فقالت بلهجة لا تدل على ذات نفسها :

ــ وما جدوى أن يصاب انسان بداء وبيل من اجل صديق لن ينتفع بمرضه فتيلا ؟ ! .. ان أباك حريص على صون شبابك الغض وله الحق فى ذلك كل الحق .

ــ أواه يا أماه ؟ . ولكنى اذا ضلت نفسى بهذا الغدر القبيح فلن انتفع بها . ليس المرض بالشر الوحيد فى هذه الدنيا ، فالغدر شر من المرض . ماذا يظن بى ؟ بل كيف ادفع عن نفسى أمامه وأمام النـاس ؟ !

ــ تقولين ان اباك اجبرك على الامتناع عن عيادته ، فعلى أبيك التبعة وعليك الطاعة ، ولن يجادل انسان حق والد على ابنته ..

ــ ما أقساك يا أماه .. سأموت كمداً ..

ــ أفضل الف مرة أن يلعننى الناس على أن ألقى بفلذة كبدى الى التهلكة .

فقالت الفتاة وما تزال عيناها تسحان دمعاً ساخنا حتى سدت خياشيمها وتغيرت نبرات صوتها :

ــ سيمقتنى ويحتقرنى ، وغدا اذا برىء ...

وخنقتها العبرات مرة أخرى ، فقالت الأم وهى تتنهد :

ــ هذا هو حظك فما حيلتنا ؟ ! . بيد أنك ما زلت على عتبة الشباب ، والفرص أمامك كثيرة ، والله قادر على جبر خاطرك ، فلندعه أن يصون للشاب المسكين شبابه وأن يعوضك عنه خيراً !

فهتفت بها منتحبة :

ــ ما أقساك .. ما أقساك .

وفرت الى حجرتها ، وكان الوقت مساء ، فدلفت من الشباك محمرة العينين ورمت ببصرها الى النافذة المحبوبة ، وكانت النافذة مغلقة ينبعث من خصاصها نور خافت . وتمثل لهـا راقداً على

جنبه تلوح من عينيه تلك النظرة الحزينة المتجهمة ثم تمثل لها وهو يسعل ذاك السعال القتال الوحشي : لهفي عليك يا حبيبي . واأسفي على رقادك بلا حول ولا قوة .. ونظرتك التى تنم عن أفظع الآلام آمالك . بل أين نضارتنا . أين شبابنا .. أين حديثنا .. أين آمالك . بل أين نضارتنا . أين شبابنا .. أين حديثنا .. أين آمالنا .. رباه ما أتعس حظي .. وما أحلك دنياى ...

وارتمت على مقعد تكفكف دمعها وتتنهد من الأعماق . وأوهنها التأثر فانطلقت خواطرها بلا ضابط ، مرت حياتها مع رشدى أمام ناظريها فى مثل لمح البصر فأيقنت أنها فتاة تعيسة الحظ . ولم يغب عنها ما فى حديث والديها عن مرض الشاب من يأس وقنوط ، فتولاها الذعر ، وما كانت تعرف عن الموت الا لفظه ، فكيف وقد تمثل لها وحشاً كاسراً يتوثب للانقضاض على قلبها ؟ رباه ! ويأمرانها بألا تعوده ! ويحولان بينها وبينه بعزيمة لا تعرف الرحمة ! . وتجهم وجهها الباكي وشعرت برعدة تسرى فى أطرافها ، فتحسست راحتها صدرها ! .. شعرت فى أعماقها بأنها تخاف المرض قدر ما تخافه على حبيبها ، الرقاد ، والسعال ، والهزال ، والعذاب ، ثم أحست تعاسة وقنوطاً وحزناً وخوفاً ، ومزقتها الحيرة أرباً أربا بين حبيبها وصحتها وسعادتها ! رباه . ألم تكن تحيا فى دعة وطمانينة وأمل مشرق ؟ ! فما الذى أوجب هذا الشقاء وهذه التعاسة !

ولدى عصر اليوم التالى عادت من المدرسة فوجدتهم قد نقلوا حجرتها الى حجرة أخرى بعيداً عن نافذته ، وأنه حيل بينها وبين رؤية ذاك البصيص من النور ...

٤٥

ولم يعد رشدي الى ذكر نوال . وعجب أحمد لصمته وتساءل أيعاني آلامه وحده أم أنه يتناسى باستهانة واحتقار ، ودعا له مخلصاً — وهو المبتلى — بالنسيان وراحة القلب . ولم يكن من الممكن استكناه باطن الشاب من محياه ، لجمود ملامحه وتجهم نظرة عينيه العميقة الحزينة وملازمته حالا من الكآبة لاتكاد تزايله ، فظل أحمد متحيراً مشفقاً . وشاركه الوالدان حيرته واشفاقه . ولم يكن الأمر يعنيهم من ناحيته العاطفية ، ولكنهم خافوه على الصحة المتهالكة التي تجاهد في سبيل الحياة ، خصوصا وأن مضي الأيام قد بعث في النفوس الأمل بعد ان أوشكت أن تشفي على اليأس . ولو سألت على بواعث الاستبشار لما وجدت غير كرور الأيام وتعود الحال ، أما رشدي فلبث عاجزا عن مغادرة الفراش ، ونضو هزال يستثير الذعر والاشفاق ، وظل لونه مصفرا مشربا بزرقة ، ولم يخف عنه السعال الا قليلا .

وفي النصف الأول من مايو جاءه طبيب المصرف ، ليعيد الكشف عليه وليجدد له الاجازة حسبما يرى ، وفحصه الرجل فحصا سطحيا ثم قال :

— أظنك تعلم أن اجازتك القانونية تنتهي في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢ !

أجل كان يعلم ذلك ، ولكنه كان كأنه يسمع به لأول مرة ، فقال بصوت خفيض :

— حقا ؟! . . نعم . . . أعلم ذلك . . .

فقال الطبيب بغير مبالاة :

ـ فأيامك الباقية من الاجازة منتهية لا محالة قبل الشفاء بزمن طويل ، وعليه فلا مناص من فصلك من خدمة البنك ابتداء من ٣١ مايو سنة ١٩٤٢ .

وكان صوت الدكتور يقع من سمعه موقعا غريبا ، فتساءل بصوت أشد ضعفا :

ـ ألا يوجد ثمت امل فى الشفاء قبل انقضاء المدة الباقية من اجازتى ؟

فهال الطبيب السؤال وقال بانكار :

ـ هل تتصور أنه من المستطاع ان تبرأ وتسترد قوتك ووزنك الطبيعى فتستأنف عملك فى بحر عشرين يوما ؟ !.. هذا محال . أمامك عام استشفاء على أقل تقدير ...

فسهم رشدى كالشارد ، ثم اطــرق كئيبا محزونا . أما الدكتور فأعطاه « استئمارة » نص بها على انتهاء اجازته فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢ ، وعلى أنه يعتبر مفصولا ابتداء من ٣١ من مايو ١٩٤٢ ، اذا لم يعد الى عمله قبل ذلك . وقال له بلهجة دلت على أنه يريد الانصراف سريعا :

ـ وقع من فضلك بامضائك على هذه الاستئمارة للعلم ...

وذكر أخاه أحمد كأنه يستغيث به فى تلك الساعة الحرجة ؟.. وردد عينيــــه بين الطبيب وبين الورقة فلم يغب عن ناظريه ما بالرجل من نفاد الصبر ، فعراه الارتباك وتناول قلمه ووقع بامضائه بيد مرتعشة . وغادر الدكتور الحجرة فجاءت أمه متطلعة اليه بوجهها الذى نال منه الاعياء والهم كل منال ، فقال لها بصوت مبحوح متهدج :

ـ اماه . وقعت الآن بامضائى على أمر فصلى من عملى !

فخفق قلب المرأة خفقة عنيفة ، بيد أنها تداركت نفسها فلم تستسلم لعواطفها ان تضاعف من أشجانه . وقالت باستهانة :

ـ أهذا ما جعلك تتكلم بهذه اللهجة الحزينة ؟!. يا بنى ، ان الله أكرمنا بانقاذك من الخطر الداهم فلا ينبغى أن نغفل عن ذكره وشكره ، وليهن بعد ذلك كل شىء ، فلا يحزنك الأمر ، فانك ان فقدت عملك اليوم واجده غدا ان شاء الله . .

ولكنه قال بنفس الصوت المتهدج المبحوح وكأنه لم يع شيئا مما قالت :

ـ قضى الأمر وخسرت وظيفتى ، وضاع الماضى والمستقبل .

فقالت المرأة وهى تعض على نواجذها دافعة دموعها :

ـ رشدى ، لا تيأس ولا تحزن ، وغدا تنكشف الغمة بأمر الله ورحمته ، فترد الى وظيفتك أو الى خير منها . والله لتبسمن بعد عبوس وليصدقنى قلبى . .

ولكنه لم يكن يصغى اليها ، وتاهت عيناه فى آفاق مجهولة ، فغابت أمه عن ناظريه ، وراح يقول وكأنه يحدث نفسه :

ـ ما أفظع المرض !. . حقا ان ألمه لشديد ، وعذابه لمروع . يجعل القوة عجزا ، والشباب شيخوخة ، والأمل قنوطا . يقعد الناهض ، ويعطل العامل ، ويقبح الحبيب . اضاع مستقبلى ، وأطفأ نورى ، وأوهن عظامى ، وأقفر يدى . اللهم اكفهم شر المرض . . . اللهم اكفهم شر المرض .

وانفلت زمام المرأة من بين يديها فأجهشت فى البكاء ، وقالت بصوتها الباكى :

ـ هلا رحمتنى يا رشدى !

فقال بحدة :

ـ الله لا يريد أن يرحمنا . .

وبعد ظهر ذاك اليوم ـ وبعد عودة الوالد من مسجد الحسين وأحمد من الوزارة ـ حدث الرجلان رشدى حديثا طويلا يهونان به من أثر ما وقع ، ويؤملانه خيرا منه ، حتى بدا فى النهاية أنه

يعيرهما أذناً واعية ويتأسى بما يقولان . ورأى أحمد أن نفقات التداوى ستضحى ، بل أضحت بالفعل ، أكثر مما تحمله نقود الشاب التى انكمشت الى ربع مرتب وستنقطع بعد حين ، وأنه لن يغنى عنه ما عسى أن يعينه به من مرتبه المثقل ، فقال له :

ــ رشدى . أنت الآن خير حالا مما كنت فى الماضى القريب ، وأظنك تحتمل البقاء فى المصحة ، افلا يحسن بك أن تنتقل اليها لتظفر بجو وعناية لا يتوافران لك ها هنا .. ؟

فقال الشاب وقد اقشعر بدنه لتذكر المصحة وعهدها :

ــ ليس فى طوقى الآن ان اعود الى الدرجة الثانية ، ومحال أن أرضى بالانتقال الى عنابر الدرجة الثالثة .

ــ أليست عنابر الدرجة الثالثة بخير من حجرتك هذه هواء ودواء ؟!

فهز رأسه الذى بدا كبيرا جداً بالنسبة الى عنقه الرفيع وقال :

ــ الحياة هناك فظيعة ، واحوال المرضى مخيفة ، كفاك الله شر المرض ..

فلم يزد أحمد كلمة واحدة . وعند المساء ، وكان رشدى وأمه كعادتهما يراوحان بين الحديث وبين سماع الراديو المترامى اليهما من المقاهى المحيطة ، قدم المذيع طبيبه الذى كشف عليه أول مرة ــ الى الجمهور « .. يلقى عليكم محاضرته الأولى عن السل » فارتعشت أمه لسماع الاسم الذى يقض مضجعها ، أما رشدى فانتبه بعناية وأرهف اذنيه ، ولم يكونا وحدهما اللذان يرهفان أذنيهما فى تلك الساعة ، فالأب فى حجرته رفع رأسه عن القرآن ومال برأسه نحو النافذة ، وغاب أحمد عن حديث الصحاب فى الزهرة ليلقى بانتباهه كله الى الراديو خافق الفؤاد . وتكلم الدكتور عن تاريخ كشف ميكروب المرض ، والأدوار التى يمر

بها ، ووصف كل دور باسهاب ، ثم تكلم عن مسألة زواج الناجين من الداء ، وما ينبغى أن ينتظـــره أصحاب كل دور من أعوام ، واقترح فى النهاية أن تنشىء الحكومة للناجين من الدور الثالث قرى فى صحراء حلوان تكون بمثابة معازل يقضـــون فيها شطرا من أعمارهم أو العمر كله . أصغت الأسرة متفرقة الى المحاضرة ، فأخفت الأم عينيها الدامعتين ، وتنهد الأب وعاد الى كتابه ، أما أحمد فبكى قلبه وهو يتظاهر بالسرور بما يقول المعلم نونو . ولازم رشدى الصمت ، ومضى يستعيد ما سمع ، فغمرته فجأة ذكريات حياته ، الشباب الطروب واللهو العابث والحب الساحر ، وصور سريعة متزاحمة من الوجوه والأماكن والربوع ، فتآكل صـــدره حسرة ، وهوى من ربوة الأمل الى هاوية القنوط ، ونسى وجود أمه فهتف يائسا : « رباه اذا كانت مشيئتك قد قضت بأن ينتهى بهذا الداء أجلى ، فأسألك الرحمة بالتعجيل به » . وارتاعت أمه ، ونظرت اليه بعتاب وهى تقول :

ــ رشدى !

فنظر اليها مبتسما ابتسامة حزينة وقال بلهجة تهكمية :

ــ الغالب أنك لن تفرحى بعرسى كما تودين !

ولما رآها تجهش فى البكاء ، غلبه التــــأثر ، فوجم .. وقال بأسف :

ــ معذرة يا أماه .. لشد ما أقسو عليك يا مسكينة . حرمت عليك النوم والطعام وســودت أيامك ، وهأنذا أعذبك بهذيانى ، فاللهم غفرانك .

٤٦

واستيقظ فى صباح اليوم الثانى أهدأ نفساً واهدأ قلبا . ولما جاء احمد يصبح عليه طلب اليه أن يعيره القرآن ، واتى الرجل بالكتاب الشريف فتناوله الشاب بسرور . وسأله :

ـ أليس من الحرام ان ألمسه ولما استحم منذ أشهر ؟!

فقال له مبتسما :

ـ عذرك مقبول عند الله . .

ومضى يقـــرأ الكتاب ، ولولا خوف السعال ، لتلاه بصوته العذب . ووجد فى القراءة لذة وسلاما ، واطمأن بذكر الله قلبه ، ونسى به الحنين الى الماضى السعيد ، والحسرة على ما فات منه ، والندم على ما فرط منه فيه . بل نسى به التوجع الدائم لما صار اليه حاله ، واليأس من الشفاء الذى قبض قلبـــه منذ أمس ، والخوف من النهاية التى تتخايل لعينيه . وفر أخيرا من آلامه ومخاوفه لائذا بالاستسلام والتسليم والصبر والتوكل على الله . ووجد ارتياحا فى الاذعان المطمئن الى ارادة الله وقضائه . ورأى تلك الارادة الشاملة تحيط بماضيه ومستقبله فاستسلم اليها آمنا مطمئنا كما يستسلم الى صدر امه اثر نوبة السعال . ومرت أيام وهو هادىء رزين ، صابر متصبر ، باش مسالم ، لا يثور ولا يغضب ، لا يشكو ولا يتذمر ، ولا يتمرد ولا يسخر . وفى المرات القلائل التى اطلقت فيهـا زمارات الانذار لم يفـارق الشـقة منهم أحد ، فكانوا يتحسسون طريقهم الى حجرته فى الظلماء ، ويلتفون حوله بقلوب خافقة وأعصاب متوترة . واطرد الزمان فى هدوء حتى وقع حادث هام ! . كان مايو قد انتصف ، والوقت

أصيلا ، والأب قد انطلق كعادته الى مسجد الحسين لصلاة المغرب ، وجلس أحمد فى حجرة الشاب يحادثه بوجود والدتهما ، فدق الجرس وفتح الباب ، واقتربت اقدام خفيفة ، ثم دخلت الحجرة امراتان : الست أم توحيدة ونوال ! وحدثت دهشة لاحت أماراتها فى الأعين ، وخفق قلب الشقيقين بعنف . لماذا جاءت نوال بعد هذا الغياب الطويل ؟ ! . . وإن ظهورها مرة اخرى خليق بأن ينكأ الجرح الذى أوشك أن يندمل . ونهض أحمد وتنحى جانبا حتى ارتفق النافذة . ورفع رشدى عينين أحاطت بهما هالتان زرقاوان ، ونطقت عيناه بالانكار ، ثم زايلته الدهشة وحل محلها امتعاض شديد فتنغص عليه هدوؤه البديع . وحدثته الست توحيدة بلهجتها المرحة ، واكدت له انه يتحسن تحسنا محسوسا ، أما نوال فرنت اليه بعينين مروعتين وقد أفزعهما ما صار اليه من الهزال والضعف ، وغلبت على أمرها فلم تدر ماذا تقول ، ولم تزد على أن قالت بصوت لا يكاد يسمع « كيف حالك ؟ ! » ، ولم يرغب فى الرد عليها فاكتفى بأن رفع ذقنه وبسط راحتيه كأنه يقول لها « كما ترين ! » ولم يعد يخفى على أحد أن الشاب تغير ، وأنه اعتراه اضطراب واستياء ، وأنه يعانى ألماً باطنيا حادا . وأرادت الست توحيدة بلباقتها أن تخفف من توتر الجو فراحت تتحدث وتضحك وتستثير الضحك ما وسعتها الحيلة ، ثم قالت :

— أبشر يا رشدى افندى ، رأيتك فى الحلم حاملا اثقالا عابرا بها قنطرة طويلة ، فبلغت نهايتها بسلام ، وتفسيره انك ستبرأ عما قريب ان شاء الله !

فقال رشدى بلهجة لم تخل من خشونة :

— فسر الدكتور قبلك هذا الحلم فأكد لى أنى لن أفارق فراشى قبل عام طويل !

فقالت المرأة بلهجة عتاب :

ـ سامحك الله يا رشدى افندى ، هكذا أنت متطير دائما ..
(واومأت الى ابنتها واستأنفت الكلام) هـذه نوال جاءت لتراك وما منعها عنك الا انشغالها بدروسها ، ومرضها فى الأيام الأخيرة ، وستؤدى الامتحان فى نهاية هذا الشهر ..

فقال الشاب بلا تردد :

ـ نفس التاريخ الذى افصل فيه من عملى ...

فاصفر وجه نوال التى ادركت حقيقة غضبه ، وبادرت المرأة تقول بامتعاض :

ـ بعد الشر .. بعد الشر . كل شدة الى انتهاء تسير ..

ولكنه بسط راحتيه على صدره وقال بحدة :

ـ الا هذه الشدة ، فلا انتهاء لها حتى تقضى على الحياة ...

ـ مرضك يا رشدى افندى ليس بالخطـير ، وستبرأ قريبا باذن الله ...

فهز منكبيه استهانة ، وعاد يقول بحدة وراحتاه على صدره :

ـ اى مرض تعنين؟ ! .. هاهنا سل ! . اما سمعت به ؟؟ .. سل .. سل . انه يأكل صدرى ، ويسيل مع ريقى دما .. انه مرض خطير فظيع ، شديد العدوى ، فحذار ... !

واشتد به التأثر ، وغلبه الانفعـال ، فضرعت اليه أمه أن يسكت ، ورجت الضيفتين ان يصحباها الى حجرة الاستقبال معتذرة عن حدة الشاب بمرضـه . ولما خلت الحجـرة الا من الشقيقين ، قال أحمد بحزن :

ـ ليتك لم تستسلم للغضب !

ولكنه قال له بانفعال شديد :

ـ والله ما تستحق اشفاقك يا أخى ! . ان الخيانة قبيحة ، وهذه الفتاة هى سبب الكارثة التى حلت بى كما تعلم يا أخى ، لولاها لتداركت خطر المرض ودفعت الأذى عن حياتى . ولكن تعلقى بها هيأ لى مداراة المرض حتى انتهيت الى ما ترى ..

واستوى جالسا وقال وما يزال منفعلا :

ـ لماذا خاطرت المرأة العجوز باصطحابها الى ؟ .. المرأة الماكرة ترمى بنظرها الى بعيد ، فترى الشفاء محتملا كالموت ، وتأخذ الحيطة لكل احتمال . ولكنى يا أخى لن افكر فى الزواج : واذا كتب الله لى الشفاء فسوف أتعهد بنيانى المتهالك بالعناية الواجبة ، فعلى أحسن الفروض لن يبقى من عمرى الا شيخوخة حقيقة بالرعاية الحكيمة . اخى : لى فى المصرف مقدار من النقود كنت ادخرته لزواجى فسأسترده وأشد الرحال الى حلوان ، وهناك أضع نفسى تحت رحمة المقادير حتى يقضى الله امرا كان مفعولا . غدا اسحب لى النقود بنفسك ، وابتع لى ثيابا ولوازم ، وسأكون بالمصحة قبل نهاية هذا الشهر ، وعلى الله الجبر ...

٤٧

وفى ضحى اليوم الثانى ـ الجمعة ـ نفذ أحمد مشيئة أخيه ، فاسترد وديعته من المصرف وابتاع له بيجامتين وثيابا داخلية وبعض اللوازم الثانوية ، وعاد الى البيت ظهرا مسرورا بما قر رأى المريض عليه من الانتقال الى حلوان . ولما دخل حجرة الشاب رآه يدخن سيجارة ، فانزعج انزعاجا شديدا ، وكان أقلع عن التدخين منذ ظهور المرض ، فارتبك لمرأى القادم ، وابتسم ابتسامة ارتباك وخجل . وهتف به احمد وقد نسى المشتريات الجديدة .

ـ من أعطاك هذه السيجارة ؟.. ماذا تفعل بنفسك ؟!

وألقى على أمه نظرة ملؤها الاتهام ، فقالت المرأة تدافع عن نفسها :

ـ الح على يا احمد ولم ينفع اعتراضى ، فما سكت حتى فاز بطلبته . .

وقال رشدى دون أن يترك السجارة :

ـ لا تؤاخذنى يا اخى . نازعتنى نفسى الى التدخين فجأة فلم استطع مقاومتها .

فقال احمد بامتعاض شديد :

ـ ولكن هذا هو الجنون عينه .

فقال الشاب كالمعتذر :

ـ سيجارة واحدة لا تؤذى . لكم هى لذيذة ! دعنى آخذ انفاسها فى طمأنينة . .

ودخن سيجارته فى سرور عجيب ، ثم قال :

ـ لا تغضب يا اخى فهى آخر سيجارة ، والآن هات ما عندك من الثياب الجديدة . .

وبعد الغداء بقليل اعتراه اعياء شديد ولم يطمئن الى الاضطجاع ، فجلس فى الفراش ماداً ساقيه مسندا ظهره الى وسادة منكسرة ، فبدا ساقاه كخطين ، واشتد اصفرار وجهه وشابته زرقة خفيفة ، ولاحت عيناه متسعتين مكحلتين بهالتين سوداوين ، وارتسمت على الحدقتين نظرة غريبة ، غير نظرة الحزن الأولى ، كأنها ترمى الى شىء بعيد لا تراه الأعين . وجاءه احمد يجالسه ساعة العصر قبل ان يمضى الى قهوة الزهرة ، فقال له رشدى :

ـ اذاهب الى الزهرة ؟! . . سلامى الى الصحاب . لكم يشوقنى أن اسهر ليلة فى السكاكينى بين اخوانى .

فقال أحمد بتأثر :

ـ ستبرأ ان شاء الله وتعود الى اخوانك ولياليك !

فقال الشاب بانكسار :

ـ هل يمكن أن ابرأ حقا ؟ ! .. انظر الى ساقى ! هل تعودان مرة أخرى الى هيئة السيقان البشرية !

ـ وما يكون هذا فى قدرة الله العظيمة ؟

فهز راسه ، ثم قال لأخيه بلهجة الناصح الأمين على غير مألوفه :

ـ ارع صحتك دائما بعين اليقظة ولا تتهاون بها ابدا ..

ثم أطرق لحظة قصيرة واستدرك قائلا وقد تغيرت نبرات صوته :

ـ المرض كالمرأة يلتهم الشباب ويبدد الآمال ..

وتساءل احمد ما بال اخيه يتكلم هكذا ؟ .. ونظر اليه بانكسار ، فاستدرك الآخر :

ـ وميكروبه يعمل فى الخفاء حتى اذا تمكن من فريسته قضى عليها .

ـ رشدى ! . ماذا تقول ؟!

ـ اجلو لك الحق قبل الفراق ، فعسى الا اراك بعد اليوم .

فقال الرجل بانزعاج :

ـ كيف لا أراك يا رشدى ؟

فتنبه قليلا وقال وكأنما عاودته سخريته المرة :

ـ أليس من المحتمل أن يذهب صبرك فتعاف المرض او تنشغل بدروسك فتنسانى فى حلوان ؟!

فهتف به احمد متألما :

ـ سامحك الله ، سامحك الله ..

فحدجه بنظرته الغريبة الغائبة وسأله :

ـ لماذا لا يحرقون المرضى فيريحوهم ويستريحوا منهم ؟

فصاح به الرجل :

ـ رشدى ! كيف تتكلم !

فلزم الصمت لحظة قصيرة ، ثم قال بأسف :

ـ لعن الله المرض ، الله يكفيكم شر المرض .

وانزعج أحمد انزعاجا كبيرا . وعادت آمه بالقهوة فاحتسى قهوته فى سكون ؛ وخاف ان يعود الشاب الى كلامه المزعج ، ولكنه لم ينبس بكلمة ، فارتاح ارتياحا خفيفا ، وحسب انه استرد حالته الطبيعية . وجعل يسترق اليه النظر ، فهاله تراخيه ، لون وجهه ، ومنظر ساقيه ، وحدث نفسه متحسرا : اهذا أنت يا رشدى !. . تبا للمرض .

وذهب الرجل الى القهوة متأخرا عن موعده ، وكان يجد فيها بعض الراحة لأعصابه المتوترة ، ونفسه المحزونة ، فمكث بها حتى منتصف العاشرة ، ثم عاد الي البيت ، ومر بحجرة أخيه ، فوجده قد تعاطى المنوم واضطجع فى طلاب النوم ، ولكنه لم يكن نام بعد فرد تحية القادم قائلا :

ـ مساء الخير . . هل عدت ؟

فقال احمد وهو يتفحصه بعينيه :

ـ أجل . . كيف حالك ؟

ـ الحمد لله . . كيف شاى الزهرة ؟

ـ كعهدك به .

فقال بصوت لم يكد يسمع :

ـ هنيئا . .

وتركه لينام ومضى الى حجرته ، وخلع ملابسه . كان منقبض الصدر متوتر الأعصاب . وترامت الى أنفه رائحة نتنة فازداد صدره انقباضا واعصابه توترا ، ترى هل للهواجس التى تضطرب بها اعماق النفس رائحة تشم ؟! وحاول أن يغيب عن افكاره ساعة بالقراءة . ثم نهض لينام . فلم يغمض له جفن حتى مضت ساعة طويلة من الأفكار والوساوس . واستيقظ فى الصباح الباكر على

حركة فى البيت فتنبهت حواسه ، ونظــر فى الساعة فوجدها الخامسة . فتساءل ما الذى ايقظهم فى هذا الوقت المبكر ؟! وغادر الفراش ، وانطلق الى الخارج يساوره قلق وخوف . وقبل أن يخطو خطوتين فى الدهليز المفضى الى حجرة رشدى انفتح باب الحجرة بقوة وبدت أمه على عتبته وقد رفعت ذراعيها فوق راسها كمن يستغيث ، ثم هوت براحتيها على خــديها تلطمهما بعنف وجنون .

٤٨

وكان يوما فظيعا مروعا ، سارت قافلته فى هــول من الألم والعذاب والشجن . وان احمد ليذكره ساعة ساعة لأن ذكرياته السود حفرت فى فؤاده كما حفرت فى فؤادى الوالدين البائسين . فساعة دخوله الحجرة : سار متثاقلا بقلب كسير وعين مذعورة لما ينتظر أن تراه ، ومد بصره نحو الفراش فرأى رشدى راقدا وقد سجته أمه بالغطاء ووالده واقفا على كثب منه دامع العينين منكس الرأس ، فاقترب من الفراش وحسر طرف الغطاء فرآه كالنائم لم تتغير منه هيئة ولا لون ، وهل ترك المرض للموت شيئا يغيره ؟!. وانحنى عليه فلثم جبينه البارد ثم أعاد الغطاء كما كان ، واستسلم لبكاء غزير تجمعت أبخرته فى قلبه يوما بعد يوم تنفثها الآلام حتى تكاثفت فى برودة الموت فسحت دمعا فياضا .

وموقفه فى حانوت بالغورية : يبتاع كفنا ، ويذكر ما ابتاع له بالأمس من ثياب الدنيا . انتقى له أجمل الألوان لما عهده فيه من حب الأناقة ، وجعل ينظر الى يدى البائع ، وهو يقيس القماش ويقطعه ثم يلفه ، بانكار وذهول .

ثم ذهابه الى مركز الصــــحة لاستخراج تصريح بالدفن . ساله موظف بعدم اكتراث : « اسم المتوفى ؟ » فأجابه وهو يود الا يسمع صــــوت نفسه : « رشـــدى عاكف » ثم قال لنفسه بذهول : « رشدى عاكف مات ! افظع بها من حقيقة » وسأله بنفس اللهجة الباردة : « عمره ؟ » فأجابه : « ستة وعشرون عاما » فسأله « المرض ؟ » فسماه والغضب يضطرب فى جوانحه ، وهل ينسى ما فعل بالشاب المنكود ؟ هل يمكن أن ينسى منظر الساقين والعنق ؟ . لون البشرة ؟.. قسوة السعال ! . ثم تسلم الورقة التى لا يمكن ان يغيب رشدى فى باطن الأرض الى الأبد الا بها ، ومضى شاكرا !! وقد أحدث عدم اكتراث الموظف والدكتور ثورة فى صدره على وشائج الانسانية جميعا ، كيف يلقى الموت بعدم اكتراث وهو افظع حدث فى الدنيا ! هل يمر يوم دون أن يرى نعش محمولا على الأعناق ؟ ! ، فكيف يمرون به مر الكرام كأن الأمر لا يعنيهم ؟ ! كيف لا يرى كل فرد نفسه محمولا على هذا النعش ؟ !

ثم مرتزقة الموت ، جاءوا تباعا يحمـــلون أدوات الغســـل والنعش ، براقة أعينهم ، قوية سواعدهم ، يكتمون وراء عبارات الرثاء المصطنع سرور التاجر بالربح المرتقب ، فلم يروا فى جثمان رشدى العزيز الا سلعة ...

ثم النعش يتهادى على الأعناق فى حلة الشباب البيضاء ، وملأ عينيه منه وهو يسير فى انحرافه المعروف تتبادله الأيدى والمناكب ، ووضع الطربوش عليه مستويا وكان صاحبه يميله الى اليمين فيوشـــك أن يمس حاجبيه فعل المختال بشــــبابه المدل بجماله . لله ما اوفى أصحابه ، لقد بكوا حتى احمرت أعينهم ، وبكى كمال خليل افندى ، اما أحمد راشد فجمد وجهه ولم يبن ، ولم يرتح احمد لمنظره ولا لوجوده بين المشيعين ، كذلك تجنب

النظر الى المعلم نونو الذى أيقن أنه لا يمكن أن يشاركه عاطفة لما طبع عليه من استهانة بالأحزان وابتسام للكروب ، وسار الأب وراء النعش مباشرة فى حزن حفظ الايمان عليه وقاره ، وبلغ التأثر بأحمد منتهاه حين بلغت الجنازة طريق الجبل ، الذى يعلم من أمره ما يعلم ، الطريق الذى شهد رشدى عاشقا صباحا بعد صباح . والذى جـرى فيه الفتى وراء هواه مستهينا بمرضه الخطير ، فاشترى قلبه بصدره ، ثم خسر الاثنين معا . رباه هل يشـهد الطريق على خيانة الرفيق ؟.. هل يفضى اليه بأن التى رأى الفتى المسكين ينتحر من أجل حبها خافت عدواه ونبذته نبذ النواة ؟ ! ثم بدت المقبرة فى ثوب قشيب ! ، فرشت أرضـها بالرمل ، واصطفت عند مدخلها الكراسى ، ودار بها السقاة ، وفغر القبر فاه كأنه يتثاءب ضجرا من المأساة المعادة ، ووضـع النعش على الأرض وكشف الغطاء ، ورفع رشدى ملفوفا فى الكفن الذى اختاره له بنفسه ، وأطبقت عليه الأيدى ، وغابوا به فى جوف الأرض ، ثم صعدوا بعد قليل من دونه ، وبلا رحمـة حثوا عليه التراب ، فاختفى فى القبر دقائق معدودات ، واستوى بالأرض ، ونضحوا الماء عليه كأن غلته لم ترو بعد ، وهكذا غاب عزيز وانتهت حياة ! بين انتباهة عين القبر وغمضتها يغيب حبيب الى الأبد فلا تغنى عنه الدموع ولا الحسرات . ورجعوا جميعا وقلوبهم شتى ، الحكمة التى أوجبت بالأمس أن يكون رشدى محبوبا توجب اليوم ان يصير نسيا منسيا ! . البيت كئيب ، والوالدان ذاهلان ، وقد كوم رياش حجـرة الراحل وأغلق بابها . ولما أوى عند منتصف الليل الى حجرته ، انثالت عليه الفكر ، حتى تنبه الى شىء فى الجو ، يا عجبا ما زالت الرائحـة الكريهة تزكم انفه ... رائحـة الموت المخيفة ! وفى صباح اليوم الثانى وجد أنها ما تزال تنبعث فى الجو ، فتهيأ له انها ربما كانت متصاعدة من الممر المفضى الى خان الخليلى

القديم ، ففتح النافذة ونظر منها ، فرأى على الطوار كلبا ميتاً وقد انتفخ بطنه وتشنجت اطرافه ، فصار كالقربة ، وأكب عليه الذباب . وادام النظر قليلا ، ثم تحول عن النافذة بفؤاد مكلوم وقد امتلأت عيناه بالدموع ...

ثم كانت أيام قاسية مرة . اما عاكف افندى الأب فقد راح يداوى بالايمان جرحاً دامياً . واما الأم فقد ذهلت فى حزنها عن كل شيء حتى الايمان ، بل ، قالت تخاطب ربها فى وقدة الألم « ما ضر دنياك لو تركت لى ابنى ! » ثم قالت لزوجها بحدة : « هذا حى شؤم ، جئته على كره منى وما احببته قط ، وفيه مرض ابنى وفيه قضى .. فدعنا نهجره بغير أسف ! » ثم انثنت الى احمد قائلة : « اذا اردت أن ترحم امك حقا فابحث لنا عن مقام جديد » . كرهت الحى وأهله جميعاً . وضاق أحمد به صدراً كذلك ، ولكن كيف السبيل الى سكن جديد والقاهرة قد ناءت بسكانها ! ولم يأل جهداً فوصى زملاءه جميعاً بالبحث عن سكن فى أى موقع من القاهرة ، بل جعل يروض حزنه الأليم بالاضطراب فى الشوارع القريبة والبعيدة بحجة البحث عن مسكن خال . وقد لاحظ المعلم نونو سهومه وكآبته فأكثر من ممازحته وجذبه الى أحاديثهم ، حتى دعاه مرة الى بيت الست عليات ، ولكن الكهل أبى وظل مغبر الجبين .

٤٩

وتلى وقت حافل بالأحداث الحربية الهائلة ، فانسحب الجيش الثامن من جسر الفرسان ، والنصف الثانى من يونيو سقطت طبرق فى يد الألمان ، وتهامس الناس بخطر الغزو . وتناول الصحاب ، فى الزهرة ، الأخبار بتعليقاتهم المعتادة ، فقال سيد عارف بسرور :

ــ لن يقف زحف رومل هذه المرة . . .

فسأله الأستاذ أحمد راشد بلهجة المتهكم :

ــ يا من تحبون الألمان ، هل تحسبون أنهم اذا دخلوا مصر يدخلون بسلام ، أو أن دون ذلك حرباً ضروساً تقتلع كل قائم ؟ !

فأجابه المعلم زفتة باستهانة :

ــ وماذا لنا فى البلد مما يخاف عليه ؟ ! فليحزن السادة الذين لا يعرفون أن الدنيا فانية !

وقال المعلم نونو :

ــ لا أملك الا روحى وأرواح أبنائى وهى جميعاً ملك لله تعالى ولا سبيل لرومل عليها الا بأمره ، وقد وقت لها آجالها قبل أن يخلق رومل بملايين السنين .

ثم ضحك نونو ضحكته المجلجلة واستدرك قائلا :

ــ نذرت الى الله ، لو جاء رومل وأنا على قيد الحياة ، لأدعونه الى سهرة ببيت الست عليات ، ليشهد ان المدفع المصرى فوق المدفع الألمانى . . .

وجعل أحمد ينقل الى والديه ما يقوله الناس ، ويحدثهما بأخطار الغزو وما يتوقعه الكثيرون من اشتداد الغارات الجوية ، وكأنما أراد أن يلهيهما عن حزنهما ولو باثارة خوفهما !

وعاد أحمد ذات مساء الى البيت ، وكان انقضى على وفاة رشدى اربعة أسابيع فوجد أمه بانتظاره ، وبادرته قائلة :

ــ زارتنى نوال بعد عصر اليوم !

وخفق قلبه لذكر الاسم ، وامسكت يداه عن فك رباط الرقبة ، وسألها مندهشاً :

ــ ولماذا جاءت ؟ !

فقالت الأم :

ــ قابلتنى فى ارتباك شديد ، وما ان التقت عينانا حتى انتحبت باكية ، وقالت لى بصوت متقطع ونبرات مختنقة : « أنا أعلم بسخطك على ، بل بسخطكم على ، ولكم العذر ، ولكنى مظلومة والله يا تيزة ، منعونى من زيارته ، وحالوا بينى وبين رؤيته ، وفرضوا على رقابة شديدة ، وابوا أن يصغوا الى توسلاتى أو يرحموا دموعى ، وما كنت لأفعل هذا بنفسي أبداً . ومع ذلك لم اذعن ولم آيس حتى اضطرت أمى تحت ضغطى الشديد أن تصطحبنى معها فى غياب ابى ، فجئنا معاً ذلك اليوم الذى لا أنساه ولن أنساه ما امتد بى عمر . آه يا تيزة ، ألقى على يومئذ نظرة واحدة ، تنطق بالاحتقار والزراية ، فقطعت قلبى المكلوم البرىء . ادركت انه ناقم على ، كاره لى ، لكم تألمت ، ولكم أتألم ... ولكنه سيعلم الحقيقة يوماً ما ، ويعلم أنى ما بغيت عليه ولا خنت عهده .. » .

أصغى احمد اليها بفؤاد خافق وصدر هائج جياش ، ثم سألها :

ــ أتقول الحق يا ترى ؟

فتفكرت المرأة قليلا ثم قالت على مهل :

ــ سمعتها تتكلم باخلاص ، ولا أدرى لماذا تحمل نفسها عناء الكذب بعد ان انتهى كل شيء ، فيغلب على ظنى أنها صادقة ، بيد أن مقتى تضاعف لأهلها الدون .

وخلع الرجل ملابسه متفكراً . وقد مال الى تصديق الفتاة كأمه ، وارتاح لذلك ، ولكن وا أسفاه قضي رشدى نحبه يائسا من حبه يأسه من الشفاء ! فيالهما من حبيبين تعيسين الميت منهما والحى ! . وأهاجته الذكريات فاستثارت أحزانه ومضى يقول لنفسه : « اللهم غفرانك ، الم يكن الأوفق أن تختارنى وتعفو عن أخى ! فحياتى الخائبة لا تستحق الوجود ، وحياته الناجحة كانت أهلا للدوام ، اللهم غفرانك ! » وأحس فى تلك اللحظة داعياً باطنياً يدعوه الى ارتياد حجرة الفقيد المغلقة . وكانت نفسه نازعته الى ذلك مرات ثم يعدل اشفاقاً ، أما هذه المرة فلم يستطع أن يغفل عن نداء الداعى ، وهزه الشوق والحزن ، وما عتم أن مضى اليها والسكون شامل وقد أخلد والده الى النوم . ولما اقترب من بابها انقبض صدره وفاض به الحزن . ثم أدار الأكرة ، وعبر مدخلها متثاقلا ، واضاء المصباح الكهربائى . والقى على الحجرة المهجورة نظرة شاردة ، وقد ملأت رائحة التراب انفه ، فرأى كوما من الأثاث ومكتباً تراكم عليه الغبار فأحاله ، وكل شىء يدل على الوداع . رباه لماذا ولج هذه الحجرة وما جفت دموعه بعد ؟ ! وأجال عينيه بها فى حزن بالغ ، فجذبهما درج المكتب الأوسط ، فذكر أن هذا الدرج يحوى مذكرات رشدى و « البوم » صوره ! ، وأملى عليه قلبه أن يحتفظ بهما فى حجرته ما دام الأثاث عرضة للبيع اليوم أو غداً ، ففتح الدرج واستخرج كراسة المذكرات والألبوم ، ونفخ عنهما الغبار ، ثم ألقى على الحجرة نظرة وداع وغادرها كأنما ما جاء الا ليأخذ الألبوم والمذكرات . ووضعهما على مكتبه ، وطفق يديم النظر اليهما باهتمام وحزن . وفتح الألبوم عن أولى صحائفه ، فرأى صورة كبيرة لرشدى تمثله واقفاً ويداه فى جيبى بنطلونه ، ما اجمله وما أنضره ! . . وسرعان ما طرقت ذاكرته صورة الكاتب الميت الذى كدر جوه يومين كاملين ! فتآكلت نفسه حسرات ! .

ولم يمض فى استعراض الصحائف احتراماً لأسرارها ، وتناول كراسة المذكرات دون أن تحدثه نفسه بالتطفل على مكنونها ، بيد أنه لم يقاوم رغبة فى فر صفحاتها الأخيرة ، فجرى بصره على بعض رءوس النبذ التى تكون خاتمة المذكرات . . فقرأ « حب جديد » . . « طريق الجبل » . . « حديث غرام » . . « آمالنا » حتى مر بصره بهذا العنوان « القبلة القاتلة ! » فخفق فؤاده بعنف شديد ، ما معنى هذا العنوان ؟ ! . . الم يردده فى بعض هواجس حزنه يوما ؟ ! وكان مؤرخا فى ١٢ يناير سنة ١٩٤٢ أى أول عهده بالمرض ، فلم تكن ثمة قوة تستطيع أن تعدل به عن قراءته ، فقرأ وصدره يضطرب ويجيش بالعاطفة :

الاثنين ١٢ من يناير سنة ١٩٤٢ :

رباه ! . أنا من اليوم وحتى يشاء الله شخص غريب ، فى صدره أذى للناس ، انفاسه تهدد العباد ، برج متداع من الميكروبات الفتاكة . لعبت لعبة خطيرة كيلا تضيع نوال من يدى . اللقاء مبذول ، ولكن حذار ، نوال محرمة عليك ، محال لمسها ! ، قبلتها التى كانت شفاء للنفس حرام حرام . لشد ما تنكرنى وتعجب لشأنى ولعلها تسائل نفسها ما له لا ينتهز فرصة خلو الطريق كما كان يفعل ؟ هل شبع من شفتى ؟ أترى فتر حبه ؟ . كلا يا حبيبتى لم يشبع من شفتيك ولا فتر حبه ، ولكنه يخاف عليك ، ويصون فاك من الهلاك المبين ، ليس الذنب ذنبى ، فقلبى كعهدك به ولكن دونه صدرا عشش فيه عدو شرير أخافه عليك وأعيذك منه . . » .

أغلق أحمد الكراسة ، وجعل يذرع الحجرة وكأنه يترنح من شدة الصدمة ، ثم ارتمى على الفراش وهو يصك جبينه براحته ويهتف : « رباه . لكم ظلمته . . ولكم اتهمته بالباطل ! » . وأحس كما لو أن منشارا ينشر قلبه فأن أنينا موجعاً . .

٥٠

وتصرمت الأيام الباقية من يونيو ، وجاء يوليه بقيظه الفائر .

وظلت الكآبة ناشرة رداءها على البيت الثاكل ، ولم تفتر همة أحمد عاكف فى التنقيب عن مسكن جديد ، رحمة بوالدته ، ولأنه هو أيضاً ، ضاق بالحى صدراً . وقد خلفت الصدمة فى أعصابه الرقيقة آثاراً عميقة ، فعاوده بعض أرقه القديم ، وتلبسته حال من القلق النفسى بات معها سريع الانفعال . سريع التأثر . كثير المخاوف مستسلماً للحزن . والتقت فى صدره الجياش أحزان الماضى والحاضر ، وتوجس خيفة مما يخبئه المستقبل ومما عسى أن يلده من الأحزان والآلام ، وقال لنفسه ، وهو يذكر والديه : أن سعادتنا بأحبائنا اليوم مرتهنة بالدموع التى نسكبها على فراقهم غداً ، وطفق يردد بيت أبى العلاء :

ومن لم تبيتـه الخطوب فانه   سيصبحه من حادث الدهر صابح

فلم تكن أعصابه مما يعين على تحمل غير الدهر وآلام الحياة ، وأوشك أن يقع فريسة لمرضه القديم ، ولذلك صدقت رغبته فى هجر الحى وفى ذلك الوقت كثر اطلاق صفارات الانذار ليلا ونهارا ولكن لم تضرب المدينة كما حدث فى سبتمبر . ثم تحرجت الحالة الحربية بتوالى تقدم قوات المحور ، فعبرت الحدود المصرية ، وتوغلت فيها ، حتى جاوزت مرسى مطروح التى كانت تعد اهم خط دفاعى عن مصر ، ثم استولت على فوكه والضبعة ، وبلغ التحرج منتهاه بتقدم القوات المعادية الى العلمين ! ... تخايلت الاسكندرية لأعين الغزاة وتهامس الناس بأن الضرورات الحربية تنذر بتحويل الوطن الى خرائب تنعق فيها البوم ، ومستنقعات يرعاها البعوض .

وفى مساء اليوم الذى بلغت فيه قوات المحور العلمين اجتمع الصحاب بقهوة الزهرة كعادتهم ، فتلاقوا بالبشر والسرور ، وملأوا الجو برنين ضحكاتهم ، لم يفكر أحد منهم فى الهجرة أو فى تخزين بعض المواد الغذائية ، ولا شغل أحد نفسه بتقدير الحالة التى تنشأ عن الغزو والحرب فى المدن ، أو كانوا يتمثلون هذه الحالة مازحين ضاحكين كأن الأمر لا يعنيهم ، ولسان حالهم يقول : « الأمر لله وليحدث لنا ما يحدث للناس جميعاً ! » ولم يختلف أحمد عاكف عنهم فى شىء ، بيد أنه وجد فى الاجتماع بهم ـ ذلك اليوم ـ لذة مضاعفة ، كأنه وجد فى مجتمعهم الصغير ملاذاً من القلق العام الذى أخذ يساور النفوس . لم يخل قلبه من خوف وقلق ولم يخل من سرور ، كان يفكر فيما يحتمل أن يحدث فينقبض صدره ، ثم تتمثل له تلك الحالة التى يختلط فيها الحابل بالنابل وتمحى التبعات وتنهار القيم فيجد فى أعماقه شعوراً بلذة خفية تعكسها أعصابه المتوترة ، كأن ذاك الغزو المرتقب سيبيد فيما يبيد أحزانه وآلامه ، وسيمحوا فيما يمحو من آثار الماضى آثار ماضيه . .

قال سيد عارف بلهجة المتثبت مما يقول :

ـ اسمعوا آخر الأخبار . . قسم رومل جيشه جناحين ، وجه الأول نحو الاسكندرية وهبط بالثانى صوب الفيوم .

وقال أحمد راشد :

ـ سمعت أن الاسكندرية تضرب بالقنابل من الجو ومن البر حتى هجرها أهلوها الى دمنهور .

ـ هل انتهى الانجليز حقاً ؟

ـ انهم يحرقون أوراقهم ويرحلون نساءهم . .

ـ متى يبلغ الألمان القاهرة ؟

ـ غداً أو بعد غد . .

ـ الا اذا ساروا بجيشهم المظفر شرقا الى السويس . .

ـ سمعت من ثقة أن جنود الباراشوت يهبطون جماعات فى الحقول . . .

وتساءل المعلم نونو :

ـ ما عسى أن يفعل أحدكم لو هبط عليه جندى من أولئـك الجنود وامره أن يدله على موقع حربى . . ؟ !

فأجاب سيد عارف فوراً :

ـ امضى به الى شـقة سليمان بك عتـة واقول له : « هاك السفير البريطانى » !

فهتف به سليمان عتة محنقا :

ـ أولى بك أن تستوهبه بعض الأقراص اللازمة لمرضك !

وقال المعلم زفتة :

ـ أما انا فاسوقه الى شقة عباس شفة واريه اضخم « طابية » فى مصر . .

فقال أحمد عاكف داهشاً :

ـ أليس لهذا المزاح من نهاية ؟ الا تعلمون بأننا مهددون بهجر ديارنا وربما قذفوا بنا الى بعض القرى القذرة .

فصـاح نونو :

ـ ما احلاها عيشة الفلاح !

فسأل أحمد راشد :

ـ الا تخافون الموت ؟ !

فقال المعلم زفتة :

ـ أعطنى عمراً وارمنى على روميل . .

وقال المعلم نونو باهتمام مصطنع :

ـ الحق فيما قال أحمد افندى ؛ الألمان شياطين ، وهم اذا هجموا على بلد انتشروا فى كل مكان ، وتخفوا فى كل زى . فلا يبعد أن ترى غداً ألمانا معممين أو فى ملاءات لف . . ووالله انى أخاف أن أفتح الصنبور لأتوضأ فيخرج لى مع الماء غواص ألمانى .

وبغتة أطلقت صفارات الانذار ! !

كانت الساعة السابعة مساء ، فهبوا جميعاً قائمين واختفت البسمات من وجوههم ، وهرعوا الى طريق المخبأ . وخاف كثيرون أن تحدث غارة عنيفة مدمرة كالتى تسبق الهجوم ، وذكروا الاسكندرية والسويس وبورسعيد ، بلذكروا وارسو وروتردام !. وبعد دقائق قلائل عج المخبأ باللاجئين . وجلس احمد مع والديه وقد شمل الجميع قلق وخوف ، وكأن الأم قد كبر عليها ذاك الحرص على الحياة منها فدمعت عيناها . ومر ثلث ساعة فى ذعر واضطراب وانتظار هو التعذيب عينه ، ثم انطلقت صفارة الأمان ! ودهش الناس ، ثم لاح فى أعينهم السرور والارتياح ، وهتف بعضهم : « استكشاف .. استكشاف ! » وهتف آخرون : « اقتربت الطيارة من حدود منطقة القاهرة ثم عادت وغيرت اتجاهها ! » ... وتحرك التيار صوب باب المخبأ . وخرج مع الخارجين . وعلى بعد قريب من مدخل المخبأ راى نوال متأبطة ذراع شقيقها الصغير محمد ! . والاثنان يضحكان ويوسعان الخطى نحو العمارة ! . خفق قلبه لمرآها كما تعود أن يخفق لمرآها أو لذكراها ، وظل هنيهة يتبعها مقلتيه حتى غيبها المنعطف ، ثم انقبض صدره ورانت عليه كآبة ، وأحنقه ضحكها وأغضبه فكأنه فاجأها متلبسة بجريمة نكراء ! وبلغ منه التأثر مبلغاً لم يستطع معه العودة الى القهوة قبل أن يروح عن نفسه قليلا بالمشى ، فمضى الى شارع الأزهر على مهل . وأخذت نفسه تسكن وتهدأ ، حتى عاودته حالته العادية بأسرع مما كان ينتظر ، بل أنحى على نفسه باللائمة لغضبه ، وانكره . ما الذى أوجب غضبه ؟ ! ماذا أثار ثائرته ؟ !، أو ضحكها ؟ ! يا عجباً ! وهل حسب أنها تظل باكية الى الابد ؟ ! ألم يضحك هو مرات سواء فى الوزارة أم فى القهوة ؟ ! .. ألم يجر الابتسام على شفتى أمه نفسها فى بعض الأحيان ؟ ! فلماذا لا تضحك نوال ؟ وماذا يغضب من ضحكها ؟ ! حقا انه النسيان ،

ذاك الدواء المر الذى يعقب العزاء ويستوجب الحسرة ، العزاء عن آلامنا والحسرة على أنفسنا . نقول نسينا والحمد لله وهى سنة الحياة ، فيهتف بنا هاتف : ولسوف تنسون وا أسفاه وهى سنة الحياة ! وتنهد من الأعماق . ثم خطر له خاطر ليس بالجديد عليه ، ولكنه كان يروغ منه ، يشفق من مواجهته ، بيد أنه قال لنفسه هذه المرة : « حتام أهرب واتجاهل ! ألا يخلق بى أن أواجه الحقيقة وأنعم النظر ! أما زلت أحب نوال ؟ لماذا يخفق فؤادى لمرآها ولذكراها ؟ » .

وتفكر ملياً — وهو آخذ فى مشية المتمهل — ثم حدث نفسه مرة أخرى وقد تورد وجهه الشاحب خجلا كأنما اطلع على سره الناس جميعاً : « حب ، فوقه غضب ، فوقه حزن ، فوقه ذكرى مروعة . فلكى أخلص الى هذا الحب ينبغى أن أدوس كرامتى وذكرى اخى وهو المحال .. بينى وبين الحب اخى وكبريائى ، والحياة أهون من ان أمتهن فى سبيلها هذين العزيزين ! » . كل هذا حق فهو يحب نوال ، ولم يزايله حبها أبداً وان حجبته الآلام كثيراً ، ولكن محال أن يعترف لهذا الحب بغاية ، فدون ذلك ما هو أقوى من الحب نفسه . ولكن حتام يمكث على كثب من النار وهو محموم ؟!

٥١

وفى أواخر أغسطس اهتدى احمد عاكف الى شقة خالية بضاحية الزيتون ، فى بيت يملكه موظف بادارة الحسابات بالأشغال ممن كانوا يعلمون برغبته الملحة فى الانتقال ، وكان يسكنها موظف اضطر الى فسخ عقدها لنقله الى احدى البلدان ، فدعا صاحب البيت أحمد وحدثه بشأنها وتم الاتفاق بينهما سريعا على أن يتم

الانتقال فى أول سبتمبر موعد اخلائهـا . وسرت الأسرة بقرب الرحيل عن خان الخليلى وذكرياته السود ، على رغم أنها ترحل عنه مهيضة الجناح ، وقد الم بالأب ضغط دم نغص عليه عزلته ، ونال الحزن من الأم فأصابها بالهزال واغاض مرحها والبسها ثوب الكبر ، بيد أن أحمد ـ على حزنه ـ رأى فى الأفق نجوما تخفق . تحدثوا فى تلك الأيام عن انصاف المنسيين من الموظفين ، وباتت الدرجة السابعة قريبة المنال ، وكان دائما يستهين بالوظيفة والموظفين ، ولكنه سر فى باطنه بالترقية المنتظرة ، وسره أيضا أنه سيصير رئيسا على أربعة غير ساعى بريد الوارد ، ونوى صادقا أن يجعل من عهد « رئاسته » فتحا جديداً فى حياة الادارة الحكومية يضرب فيه المثل الأعلى للرئيس « العالم الحكيم » !! ، ثم من يدرى بعد ذلك بما يخبئه الغيب ؟ فأمامه فى الحكومة خدمة طويلة تناهز العشرين عاما ، وعسى أن يرقى درجات أخرى ؟ وعسى أن تحسن الحكومة الاختيار ولو أخيراً !!. وليس هذا كل شىء ، فقد حدث أن اصطحب أمه الى المسكن الجديد ليعايناه ، وهنالك دعاهما صاحب البيت الى شقته فاحتسى معه القهوة فى حجرة الاستقبال ، ودعيت والدته الى حريم الرجل ، وعند عودتهما معا أثنت أمه على زوج صاحبه وشقيقته ، وقالت عن الأخيرة : انها « أرملة فى الخامسة والثلاثين على ادب وجمال » . ونشط خياله ! . ارملة فى الخامسة والثلاثين ، على أدب وجمال يحويهما بيت واحد ، وهو عزب فى الأربعين ، وزميل شقيقها ، ولا فارق فى السن من ناحيته ينفر ، ولا شباب غض من ناحيتها تتيه به عليه . والظاهر أن الحياة لا تريح من الأمل ، هل يعلم الغيب كله الا الله ؟ ، بيد أن هذه الأحلام لا تتفق ورباط رقبته الأسود ! ، رباه ، ما لأحلامه تحلق فى غير حياء ؟ ولا يبعد فى تلك اللحظة أن تكون نوال تسترق النظر الى احمد راشد مثلا . وهكذا تسير قافلة الأحياء لا تلوى على

شيء كأنهـا لم تفقد بالأمس القريب من كان يحل منهـا بالمكان المرموق . حياة صماء قاسية كالتراب ، ولكنها تنبت الأمل كما ينبت التراب الزهرة اليانعة . حزن أحمد حزنا شديداً ، ولكن لم يكن من الأمل مفر ..

وأخذوا للرحيل أهبتهم ، فلفت الأبسطة ، وفكت الدواليب والأسرة ، وجمعت الأوانى والكتب وقطع الأثاث ، واعتزم السير غدا ...

وعند عصر ذلك اليوم وفدت نسـوة العمارة لتوديع الأسرة الراحلة ، وكان أحمد لا يزال فى حجرته ، وجاء فيمن جاء منهن الست توحيدة ونوال ، وجلسن جميعاً فى الصالة الخارجية لأنها المكان الوحيد فى البيت الذى كان صالحاً للجلوس وقتذاك . ولبثت الست توحيدة ونوال بعد انصراف الزائرات . وجاء موعد ذهاب أحمد الى القهوة ليودع صحابه ، فلم يجـد بدا من المرور أمام الزائرتين ، ولكن السيدة نهضت قائمة عند ظهوره ومدت له يدها وهى تقول :

ـ كيف أنت يا أحمد افندى ؟

فسلم عليها فى ارتباكه المعهود وهو يقول بصوت خفيض :

ـ الحمد لله ياسيدتى . شكرا لك ..

ونهضت نوال لنهوض أمها ، فتحول اليها ماداً يده كذلك ، والتقت يداهما لأول مرة ، فسرت فى بدنه رعشة ، فلم ينبس بكلمة ، ولم يرفع عينيه .

وقالت السيدة :

ـ مازلت أعتذر لوالدتك عن سلوكنا ، ولعلك تقيم لنا العذر يا أحمد افندى . ووالله لقد كان المرحوم عزيزاً علينا اثيرا لدينا وربنا يعلم ..

فقال الرجل المرتبك المضطرب :

ــ كلنا نقيم لكم العذر ، وللضرورة احكام ياسيدتى .

ودارت المراة بلباقة حول الموضوع ، وشكرت احمد لادبه وحسن تقديره للأمور ، ثم استأذن الرجل فى الانصراف وسلم على السيدة ومد يده لنوال مرة اخرى ، وفى هذه المرة ، واليدان مجتمعتان ، خطف من وجهها نظرة بعينيه الخجولتين ، ثم اتجه نحو الباب . كانت اول مرة تلتقى العينان عن قرب ، ولم يكن نظر فيهما منذ مداعبات النافذة والشرفة على عهد الأمل الأول ، فخال انه طالع فيهما ما كان يطالع من صفاء وحنان وتطلع ، فدق قلبه وهو يحث خطاه وطرفت عيناه فى هياج عصبى . ربما كان موقف الوداع هو المسئول وحده عن كل ذلك ، فالوداع يستثير حتى عطف اولئك الذين لا يعطفون فى غيره من المواقف ، وهكذا اعتذر لضميره ، بسيكولوجية الوداع هذه ، عن انفعاله وتأثره وخطفه النظرة ، خاصـــة حين خطرت على فؤاده ذكرى رشدى ولاحت لعينيه صورته المحبـوبة وكأنها تبسم اليه فى عتاب ، وراح يحادثها بلهجة حزينة مؤثرة : « معذرة يارشدى ، انه الوداع وانت اعلم بالوداع ، وانه الالم وانت اخبر بالألم ، ولن تجد منى بعد الآن ما يستحق عتابك » . وبلغ قهوة الزهرة ، والله وحده يعلم متى يتاح له ان يغشى قهوة مرة أخرى ، واستقبله الصحاب استقبالا حافلا يليق باللقاء الأخير ، وامسكوا عما كانوا آخذين فيه من اسباب الحديث ليفرغوا لوداع الجار العزيز .

وقال له المعلم نونو متسائلا :

ــ اتنسانا ياترى ؟

فقال احمد وهو لا يدرى ان كان يصدق فى قوله ام يكذب :

ــ معاذ الله يا معلم .

وقال المعلم زفتة :

ــ ولكن الزيتون هذه بلدة بعيدة لا يبلغها طالبها الا بالقطار !

فقال احمد مبتسما :

ــ ما كان لقطار أن يمنع صاحباً عن صحبه .

ثم قال عباس شفة وهو يرفع حاجبيه كمن يتذكر أمراً هاماً :

ــ أنا أعرف الزيتون كما أعرف خان الخليلي . مضى زمن كنت اسافر اليها مرة على الاقل فى كل اسبوع فأرجع بأحسن أنواع الحشيش .

فابتسم احمد متسائلا :

ــ فهل أرجو أن أراك كثيراً ؟

فقال عباس شفة بلهجة دلت على الأسف الشديد :

ــ تلك أيام خلت : لقد زجوا بالتاجر فى السجن ومات فيه .

وأعربوا جميعاً عن أسفهم لفراقه ، واثنوا على أسرته أجمل الثناء ، وترحموا على فقيدها ، حتى سليمان عتة نفسه قال كلمة طيبة . وفاض قلب أحمد بمودتهم فى تلك الساعة ، سواء من يحبه منهم كالمعلم نونو أم من يمقته كالأستاذ احمد راشد ، وعجب لقلبه الذى يأسف على ترك اى شىء ــ وان طال برمه به ــ ساعة الوداع . ثم عاودوا حديث الحرب كعادتهم ، وذكروا توقف الهجوم الألمانى عند العلمين .

وكان من رأى أحمد راشد ان المحور خسر موقعة مصر ، أما سيد عارف فقال بلهجة اليقين : ان هتلر امر رومل بالتوقف ليجنب مصر ــ قلب الاسلام النابض ــ ويلات الغزو ، وانه لولا رحمة الفوهرر لكان الألمان فى القاهرة منذ شهر . ولبث بينهم مستمتعاً بسمرهم ومزاحهم حتى انتصفت العاشرة فودعهم الوداع الأخير . وسلم عليهم واحداً واحداً . وتقبل تحياتهم شاكراً ، ثم قفل الى البيت .

وفتح النافذة وأطل على الحى . كان البدر ــ بدر نصف شعبان ــ يتألق نوره السنى فى سماء أغسطس الصافية ، والنجوم من حوله تزهر باسمات فى اشفاق كأنما يرثى لادلاله بشبابه الذى علمت منــذ الأزل انه لا يدوم . وقد اكتسى الحى بغلالة فضية بددت وحشة الليل . واضفت على الأركان والممرات سحراً .

الليلة نصف شعبان ، ودعاء شعبان يتصــاعد من النــوافذ القريبة ، وذاك صوت غلام يهتف بصوته الرفيع : « اللهم ياذا المن ولا يمن عليه ياذا الجلال والاكرام » والأسرة تردد الدعاء وراءه . بينهم صامت وحده ! وتساءل عما عسى أن يتوجه به من دعاء الى ربه ؟ . . وتفكر ملياً . ثم رفع رأسه الى البدر المنير ، وبسط راحتيه ، وغمغم بخشوع : « اللهم ياخالق الخلق ، ومدبر كل شيء ، تغمده برحمتك الواسعة ، وأسكنه فسيح جناتك ، وألهم والديه الحزينين الصبر والسلوان ، وأنزل على قلبى السكينة والسلام ، واكتب لى فيما يستقبل من الأيام عزاء عما سلف (وهنا وضع يده على قلبه) فلشد ما تحمل هذا القلب من ألم ، ولشد ما تجرع من خيبة ! » .

هل يذكر يوم اقبــل على هذا الحى وفى النفس شوق الى التغيير ؟ لقد حدث التغيير وأحدث دمعاً وحسرة ! وها هو ذا رمضان مقبلا فيا للذكرى . أيذكر كيف استقبل رمضان الماضى ؟ . أيذكر موقفه من النافذة الأخرى فى انتظار أذان المغرب وكيف رفع البصر فرأى ؟ ! .

وجرى أمام ناظريه التــاريخ الذى كتبته الليــالى متتابعات حتى هذه الليلة بمداد الأمل والحب والألم والحزن .

وهذه الليلة الأخيرة . وغداً يبيت فى دار جديدة ، فى حى جديد ، مولياً الماضى ظهره . .

الماضى بما أحدث من أمل وما خيب من رجاء . . .

فالوداع يا خان الخليلى . .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

مصر القديمة	مترجم عن الانجليزية	١٩٣٢
همس الجنون	(قصص قصيرة)	الطبعة الرابعة ١٩٦٣
عبث الأقدار	قصة تاريخية	» » ١٩٦٣
رادوبيس	» »	» الخامسة ١٩٦٤
كفاح طيبة	» »	» الرابعة ١٩٦٢
القاهرة الجديدة		» » ١٩٦٢
خان الخليلي		» الخامسة ١٩٦٢
زقاق المدق		» » ١٩٦٣
السراب		» الرابعة ١٩٦٣
بداية ونهاية		» الخامسة ١٩٦٣
بين القصرين		» الخامسة ١٩٦٤.
قصر الشوق		» » ١٩٦٢
السكرية		» » ١٩٦٤
اللص والكلاب		» الثالثة ١٩٦٣
السمان والخريف		» الثانية ١٩٦٤
دنيا الله	قصص قصيرة	» الأولى ١٩٦٣
الطريق	رواية	» » ١٩٦٤

تحت الطبع :

اولاد حارتنا	رواية
الشحاذ	»
بيت سيىء السمعة	مجموعة قصص

دار مصر للطباعة

الثمن قرشا